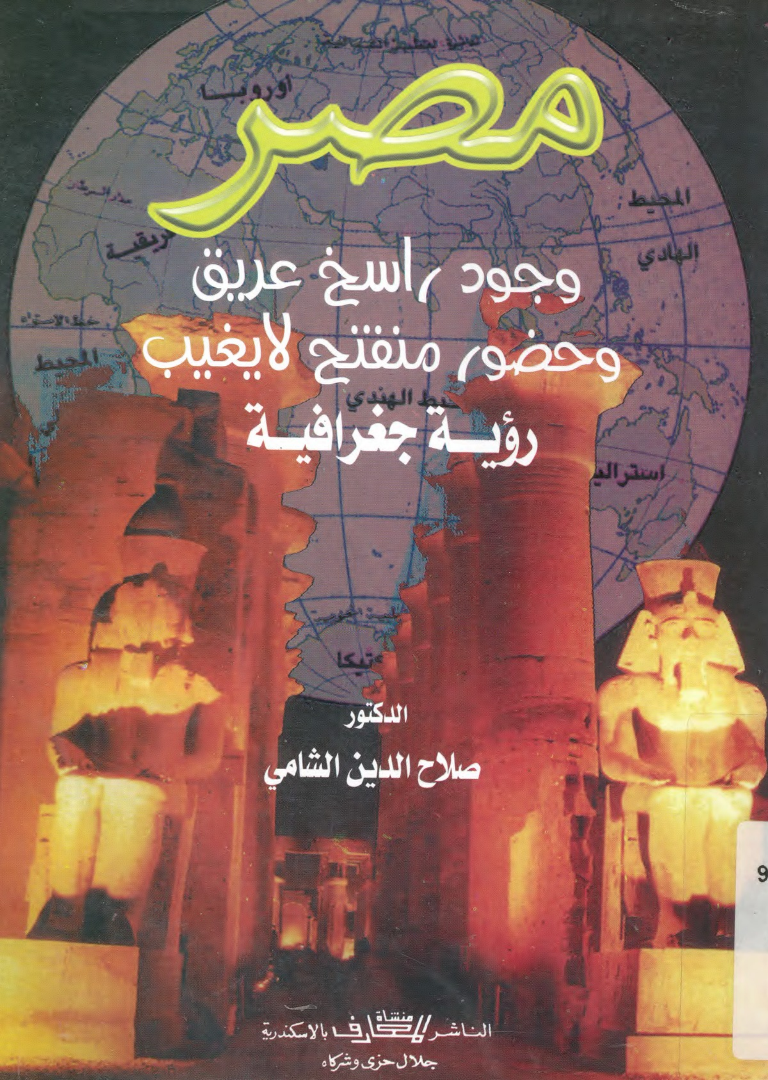


مصر

وجود راسخ عريق وحضور منفتح لايغيب

رؤيــة جغرافيــة

الدكتور

صلاح الدين الشامي

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

الناشر : منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه

٤٤شارع سعد زغلول – محطة الرمل – الاسكندرية – ت/ف ٤٨٥٣٠٥٥/٤٨٧٣٣٠٣

٣٢ شارع دكتور مصطفى مشرفة – سوتير – الاسكندرية ت/٤٢٥٤٣٣٨/٤٨٤٣٦٦٢

الادارة: ٢٤شارع ابراهيم سيد احمد – محـرم بك – الاسكندرية ت/ف ٣٩٢٢١٦٤

EMAIL: monchaa@maktoob.com

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق:

اسم الكتاب : مصـــر ... وجـــود راســـخ عريـــق

اسم المؤلف : د.صلاح الدين الشـــامـــى

رقم الايداع : ٢٠٠٣/١٠٢٣٢.

الترقيم الدولى: 4 – 1180 – 03 – 977

التجهيزات الفنية:

كتابة كمبيوتر : مكتب الكرنك

تصميم غلاف: مكتب سلطان للكمبيوتر

طبـــــاعة : مطبعة عصام جابر



وجود راسخ عريق   وحضور منفتح لا يغيب

رؤيــة جغرافيــة

دكتور

صلاح الدين الشامى

أستاذ متفرغ

آداب بنهـا

٢٠٠٣

الناشــر

منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين »

صدق الله العظيم

قراءة جغرافية لتاريخ مصر ووجودها
الذى لا يغيب عن الساحة الحضارية ،
أو عن الساحة السياسية

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

– يلفت النظر وجود مصر ، فى مكانها الجغرافى الفريد الحاكم ، على صعيد السهل الفيضى الخصيب ، على ضفاف النيل ، منذ أكثر من سبعة الاف عام . ويلفت النظر مرة أخرى ، ذلك النضج الإقتصادى والإجتماعى والحضارى ، الذى أفضى إلى وجود دولة مصر المتألقة ، على صعيد المسرح الجغرافى المصرى . وقل إن مصر ، فى حساب الزمان ، هى الأعرق ، على الصعيد الإقليمى ، والأعظم على الصعيد العالمى . بل قل إن مصر فى ذاكرة الإنسانية ، وهى الأقدم والأعرق والأعظم ، تتربع فى مكانها الجغرافى الفريد ، على مقعد الريادة المبكرة فى عالم السياسة والإقتصاد .

– هـذا ، وفى وسع الإجتهاد الجغرافى ، أن يستحضر صورة مصر الجغرافية ، فى الماضى البعيد ، وأن يتعقب دواعى ومبررات هذا الوجود الراسخ الأصيل . وفى وسع الإجتهاد الجغرافى ، مرة أخرى ، وهو عليه قادر ، أن يتابع علـى المدى الجيولوجى ، مراحـل إعداد وتجهيز المسرح الجغرافى المصرى ، وتأمين جريان النيل العظيم على هذا المسرح ، لكى تكون ، ولكى يشد أزر وجود حركة الحياة ونبضها الفاعل . وفى وسع الإجتهاد الجغرافى ، وهو عليه قادر مرة أخرى ، أن يتابع على المدى الطويل ، فى عصر ما قبل التاريخ مراحل تأهيل الإنسان ، وترسيخ الإستقرار ، وتأمين صياغة وتكوين ونضج الشعب العريق ، وإستقراره ، على صعيد المسرح الجغرافى المهجور فى مرحلة ، وعلى صعيد المسرح الجغرافى المصرى على ضفاف النيل فى مرحلة أخرى .

– ويشد الإنتباه بعد ذلك كله ، نشأة أو قيام دولة مصر فى مكانها الجغرافى الفريد ، فى أحضان النيل العظيم . ويشد الإنتباه أكثر وأكثر ، إستمـرار وجـود مصر ، على المسرح السياسى ، وهى لا تغيب أبداً عن الساحة . وهى موجودة وحضورها لا يغيب ، من أى صفحة من صفحات

كتاب التاريخ القديم ، وكتاب التاريخ الوسيط ، وكتاب التاريخ الحديث والمعاصر . وكان هذا الوجود ، حضوراً محوريًا وفاعلاً فى قلب مسيرة الأحداث ، على الصعيد الإقليمى أحيانًا ، وعلى الصعيد العالمى أحيانًا أخرى ، وهى تمسك بزمام الحركة بين الشرق والغرب .

– هذا وقل إن مصر موجودة ، ولا تغيب على المدى الطويل ، وهى دولة مستقلة ذات سيادة ، أحيانًا ، أو وهى فى ظل التبعية لإمبراطورية كبيرة ، على الصعيد الإقليمى أحيانًا أخرى . وتمثل مصر فى الحالتين درة متألقة على جبين الواقع السياسى . وقل مرة أخرى ، إن مصر كانت موجودة ، ولها حضور فاعل ، وهى تتربع على عرش العز والإزدهار ، وهى تتيه وتتألق مرة ، أو هى كانت موجودة ، ولها حضور متواضع ، وهى تجلس على مقعد الإنتكاس والوهن ، وتجتر الإضمحلال مرة أخرى .

– وفى ظل كل المتغيرات ، التى كانت تتأتى مع مرور الوقت ، تبقى مصر موجودة ، وهى لا تشيخ . وما كان فى وسع أى دواعى أو مبررات أن تفضى إلى غيابها عن الساحة السياسية . وقل كان من شأن شعب مصر ، وهو يؤمن هذا الوجود المستمر ، ولا يفرط فيه ، ولا يستغنى عنه ، إن حافظ دائماً على تجانس نسيجه وعلى تجديد حيو يته ، حتى لا يشيخ وتشيخ معه مقومات الدولة ، وينفرط عقدها فتغيب .

– ومن خلال هذا الرصد الموضوعى عن وجود مصر العريق ، وحضورها المستمر الذى لا يغيب ، تجيب هذه الدراسة الجغرافية ، على ثلاثة إستفسارات أساسية عن مصر وأوضاعها . وتتداخل هذه الإستفسارات والإجابات عليها تداخلاً منطقياً فى سياق موضوعى متكامل .

ويسأل الإستفسار الأول ، عن كيف كان وجود مصر ، الوطن والمواطن والدولة ؟ وكيف ولماذا كان إستمرار هذا الوجود فى المكان الجغرافى ، فلا تغيب أبداً ، وهى ملأ السمع والبصر ، أو وهى على هامش من هوامش الإضمحلال .

ويسأل الإستفسار الثانى ، عن كيف كان التجانس فى لبنات البناء البشرى ،وكيف ولماذا إستمر هذا التجانس ، الذى أمن وظل يؤمن سلامة وقوة

تماسك أوصال النسيج البشرى لشعب مصر ، فلا يتفكك أبداً .

ويسأل الإستفسار الثالث ، عن لماذا وكيف كانت حيوية البناء البشرى لشعب مصر تتجدد ، مع مرور الوقت ، فلا يشيخ أبداً ، ولا يعانى من عواقب وأوضاع الشيخوخة .

– هذا ، ومن وراء الإجابات عن موضوع هذه الإستفسارات ، وتقصى الحقائق الدامغة عن وجود مصر العريق وحضورها المستمر ، يبقى الإيمان بإرادة عليا . وقل إنها إرادة الله ، الذى شدت وتشد أزر مصر ، لكى تبقى ولا تغيب عن مكانها الجغرافى . وسبحان من خلق فسوى ، وسبحان من قدر فهدى . بل قل قضى ربك فى كتاب عنده فوق العرش ، أن تكون مصر الوطن ، وأن تكون مصر الشعب ، وأن تكون مصر الدولة ، فكان النيل من أجل مصر .

والله وحده من وراء القصد ، وهو على كل شئ قدير .

صلاح الدين الشامى

٢٠٠٣

مقدمة

– من أهم تعريفات علم الجغرافية المتعارف عليها ، ذلك التعريف الموضوعى ، الذى يتحدث عن دراسة المكان فى الزمان . ومن شأن الإنسان ، كل إنسان الإحساس بالمكان ، فى الإطار الفسيح ، الذى يعيش فيه ، على صعيد الأرض . وهذا الإحساس بالمكان إحساس فطرى ، يتحلى به الإنسان ، وهو جنين فى رحم الأم ، أو وهو يباشر حياته وأنشطته ، ثم وهو يرقد فى مثواه الأخير . أما الإحساس بالزمان ، فهو مكتسب ، ويستوجب متابعة توثق الصلة بين الماضى والحاضر والمستقبل . كما يستوجب إدراك كيف يخرج الحاضر من تحت عباءة الماضى ، وكيف يخرج المستقبل من تحت عباءة الحاضر .

– وفى مجال دراسة المكان فى الزمان ، يغطى مفهوم المكان مساحة الأرض المعنية ، وهى تضم اليابس والماء والهواء ، الذى يتداخل تداخلاً بديعًا فى منظومة متكاملة . ويمتلك الإنسان الحواس ، أو قل المدارك التى يحسن توظيفها ، فى معاينة الأرض فى المساحة المعنية ، ورصد المدركات الجغرافية المنتشرة فى الصورة الجغرافية المرئية ، على صعيد المسرح الجغرافى . ويمتلك الإنسان فى نفس الوقت ، حساب الزمن وكيف يستحضر صورة جغرافية فى الماضى ، أو كيف يعاين صورة جغرافية فى الحاضر ، أو كيف يتصور صورة جغرافية فى المستقبل .

– ويغطى هذا الرصد فى مساحة معينة ، وعلى أى مساحة زمنية ، ملامح ومواصفات وخواص الواقع الطبيعى السائد . ويستوعب هذا الرصد ، مبلغ تداخل الظاهرات الطبيعية المتنوعة ، تداخلاً مناسبًا ، فى صياغة منظومة هذا الواقع الطبيعى ، على صعيد المساحة المعنية ، وفى إطار المساحة الزمنية . ويغطى هذا الرصد ، فى أى مساحة معنية ، وعلى أى مساحة زمنية ، ملامح ومواصفات وخواص الواقع البشرى السائد . ويستوعب هذا الرصد فى إطار المساحة الزمنية ، مبلغ تداخل الظاهرات البشرية المتعددة ، تداخلاً مناسبًا ، فى صياغة منظومة هذا الواقع البشرى ، على صعيد المساحة المعنية .

– وفى ظل هذا الرصد الجغرافى ، على الوجهين الطبيعى والبشرى ،

تتكشف ملامح الصور الجغرافية السائدة ، على صعيد المسرح الجغرافى ، فى المكان والزمان . وتستنفر هذه المدركات الجغرافية ، على الوجهين الطبيعى والبشرى ، العقل إستنفاراً ، يفجر التفكير الجغرافى ، ويحدد توجهاته النظرية ، والتطبيقية. ويفضى هذا التفكير الجغرافى ، إلى حتمية التدبر والتمعن وتقصى الحقائق ، فى شأن كنه ومغزى التعايش ، بين الإنسان والأرض ، وتداعياته . كما يفضى هذا التفكير الجغرافى أيضاً إلى حتمية التدبر والتمعن وتقصى الحقائق ، فى شأن كنه ومغزى التعامل ، بين الإنسان والأرض وتداعياته . وتبقى العلاقة الحتمية ، بين الإنسان والأرض ، وهو يتعايش مع خواصها ، أو وهو يتعامل مع موارد ومصادر الثروة فيها ، علاقة وجود ومصلحة ومصير .

– وقل أن هذا الإحساس بالمكان ، ورصد المدركات الجغرافية ، على صعيد المساحة المعنية ، وهو يستنفر التفكير الجغرافى ، يتأتى بشكل تلقائى ومباشر ، فى معظم الأحيان . وهو بالقطع تفكير مطلوب بكل الإلحاح لحساب الإنسان ، لكى يخدم ويرسخ سبل التعايش مع خواص الأرض ، ويؤمن أوضاعه فى المكان والزمان مرة ، أو لكى يخدم وييسر التعامل مع الثروة فى الأرض ، ويكفل إحتياجاته مرة أخرى ، فى المساحة المعنية على المسرح الجغرافى . ومن أجل ذلك كله ، يولد الإنسان ، ويوجد فى ربوع المكان والزمان ، وتكون فى بنيته هذا الإستعداد الفطرى ، لمباشرة الإحساس بالمكان ، وإستيعاب ملامحه وخواصه . ومن ثم يبدو الإنسان كل إنسان فى المكان ، وكأنه جغرافى بطبعه .

– ومن شأن الإنسان كل إنسان مرة أخرى ، وهو يحيا فى ربوع المكان أى مكان ، ويتعرف على المدركات الجغرافية السائدة ، على صعيد المسرح الجغرافى ، الإحساس بالزمان . ويغطى مفهوم الزمان ، حركة التواصل والسياق والتكامل الذى لا ينقطع أبداً ، بين الماضى والحاضر والمستقبل ، أو بين الأمس واليوم والغد . وفى صحبة هذا السياق والتواصل ، تتأتى المتغيرات وتتوالى مع مرور الوقت . وعندئذ يدرك التفكير الجغرافى ويستوعب قوة فعل هذه المتغيرات ، وأن يتمعن ويتابع دواعى ومبررات هذا التغيير ، الذى تتغير بموجبه الصور الجغرافية ، على صعيد المساحة المعنية .

– وهذا التواصل والتكامل والسياق ، على إمتداد مسيرة الزمان ومرور الوقت ، بين ماضى غائب وحاضر معاش ، ومستقبل مرتقب ، يشد الإنتباه ويستنفر العقل . ويفجر هذا الإستنفار التفكير التاريخى . ويفضى هذا التفكير التاريخى إلى التمعن والتدبر فى الحاضر ، وكيف يغيب مع مرور الوقت ، أو إلى التمعن والتدبر فى الماضى وكيف يخفيه مرور الزمان ، أو إلى التمعن والتدبر فى المستقبل وكيف يفضى إليه مرور الزمان . ومن ثم يكون فى وسع الإجتهاد الجغرافى ، أن يتوقف فى الزمان ، الماضى أو الحاضر ، أو يستشرف المستقبل ، من أجل رؤية الصورة الجغرافية فى المكان ، ورصد الأوضاع السائدة على المسرح الجغرافى .

– وقل إن هذا الإحساس بالزمان ومتابعة سياقه التغير ، ورصد تداعيات مرور الوقت فى المكان ، وهو يستنفر التفكير التاريخى ، يتأتى بشكل متعمد ومقصود . بل قل هذا هو الإحساس المكتسب ، الذى تفرزه اليقظة ، ومتابعة مرور الوقت ، ورصد سياق الأحداث . وهذا بالضرورة تفكير مطلوب بكل الضرورة ، لكى يكفل متابعة الأحداث ، ويفسر تغير الأوضاع ، على صعيد المساحة المعنية ، أو لكى يتعقب حركة الأحداث ، وتطور قوة فعل المتغيرات ومبلغ إستجابة الصورة الجغرافية لها ، على صعيد المسرح الجغرافى .

– ومن خلال علاقة ترابط موضوعى حتمى ، بين إحساس بالمكان ، ومعاينة صورة جغرافية ، على صعيد الأرض فى مساحة معنية ، وتجسيد مادى لرؤية هذه الصورة ، ورصد ملامحها ، وهو إحساس فطرى بالفعل مرة ، وإحساس بالزمان ، ومتابعة سياق حركة أحداث متوالية ، وتجسيد مبلغ تغير ملامح هذه الصورة الجغرافية من زمان إلى زمان آخر ، وهو إحساس مكتسب بالضرورة مرة أخرى ، توثقت الصلة الحتمية بين صورة الأرض فى المكان على الوجـهين ، الطبيعى والبشرى ، وهى تتغير . ويتحرى الإجتهاد الجغرافى عندئذ ، مضى سياق حركة الزمان ، وقوة فعل المتغيرات ، التى يتأتى بموجبها هذا التغيير الطبيعى ، أو التغيير البشرى . وهذا هو الأساس الذى التزم به علم الجغرافية وتحرى بموجبه ، دراسة المكان فى الزمان ، وهو فى ذمة الماضى أحيانًا ، أو وهو فى قلب الحاضر أحيانًا أخرى . وقد تتجاوز هذه الدراسة

الجـغرافية ، الماضى ، والحاضر ، لكى تستشرف الصورة الجغرافية فى المستقبل القريب ، وتطل عليها عن كثب .

– هـذا ، وقل أن توجه هذا التوثيق ، بين تمـعن وتدبر وتفكير موضوعى ، يتحدث عن صورة الأرضى على الوجهين الطبيعى والبشرى فى المكان ، ويتحرى رصد تداعيات مرور الوقت عليها فى جانب ، وتمعن وتدبر وتفكـير موضوعى ، يتابع فعل المتغيرات فى صحبة سياق الزمن فى جانب آخر ، هو الذى صنع ورسخ أصل وحتمية العلاقة الجغرافية ، بين المكان والزمان . بل قل إن كنه وماهية ومغزى هذه العلاقة ، هو الذى إستوجب حتمية الربط ، بين المكان والزمان . فلا صورة جغرافية فى مكان ، من غير أن تشهد وتسجل فعل المتغيرات مع مرور الوقت ، وسياق حركة الزمان . ولا زمان وسباق زمنى يمر من وقت لآخر ، من غير أن يسجل بصمات ومعالم وملامح التغيير فى المكان .

– ومفهوم المكان فى نظر الباحث الجغرافى ، تغطية أى مساحة معنية ، من الأرض . ويمتلك الباحث الجغرافى دون قيد ، الحق المطلق فى مرونة كاملة ، وهو يحدد أبعاد هذه المساحة المعنية . وقد يكون ذلك التحديد الذى يقع عليه الإختيار ، على صعيد إقليم ، أو على صعيد دولة ، أو على صعيد قارة ، أو على صعيد العالم كله . ومثل هذه المرونة المطلقة ، لا تتعارض أبداً مع موجبات الإلتزام الحتمى ، بإطار حاكم ومناسب ، يحدد أبعاد هذه المساحة المعنية بمعنى أن المرونة فى الإختيار ، حق مشروع ، ينبغى أن يتمتع به الإجتهاد الجغرافى . ولا مانع من شأنه أن يحرم الباحث الجغرافى دون حرج ، من مباشرة هذا الحق . ومن ثم يكون الإطار الذى يحدد ويحكم الابعاد المكانية واجب ، لا ينبغى إهماله ، أو التفريط فيه .

– هكذا يكون فى وسع الباحث الجغرافى دائمًا ، أن يباشر حق إختبار الحبكة المكانية ، فى الإطار الأنسب ، لتحديد أبعاد المساحة المكانية ، التى تجـاوب أهـداف بحثه . كما يكون فى وسع الباحث الجغرافى دائمًا مرة أخرى ، أن يباشر حق إختيار الحبكة الزمانية فى السياق الأنسب ، لتحديد أبعاد المساحة الزمنيـة ، التى تجاوب أهداف بحثـه . وهذا الحق المشـروع فى

إختيار الحبكة المكانية ، وفى إختيار الحبكة الزمنية ، هو الذى يفضى إلى معنى ومغزى دراسة المكان فى الزمان .

– وأمام الباحث الجغرافى ، أكثر من إطار واحد ، يفصل بين المساحة المعنية ، وكل المساحات غير المعنية الأخرى . وأمام الباحث الجغرافى أكثر من مساحة زمنية ، يلتمس فيها دراسة الصورة الجغرافية فى إطار المساحة المعنية ، ويجسد هذا الإختبار البداية ، التى يجب أن تسبق أى إهتمام آخر ، فى مجال مباشرة الدراسة الجغرافية ، لأى ظاهرة جغرافية طبيعية أو بشرية . بمعنى أن يتحرى الباحث الجغرافى ، وضع معالم تحديد الحبكة المكانية وحصر المساحة المعنية داخل الإطار الحاكم مرة ، ووضع معالم تحديد الحبكة الزمنية ، وحصر السياق الزمنى داخل المساحة الزمنية مرة أخرى . وينبغى أن يتجنب الباحث الجغرافى عندئذ ، الخروج عن دواعى الإلتزام بهذه الحبكة المكانية ، أو الحبكة الزمانية ، من غير قصد ودون مبرر أحياناً ، أو الشرود دون بصيرة وعدم الإلتزام الفعلى بهما ، أو بأى منها .

– ومهما يكن من أمر ، فإن الحبكة المكانية منشودة ، والحبكة الزمنية ملزمة ، لكى يباشر الباحث الجغرافى ، دراسته الجغرافية ، لأى ظاهرة طبيعية أحيـانًا ، ولأى ظاهـرة بشرية أحيانًا أخرى . ومع ذلك فإن هـذا الإلتـزام الجغرافى، بهذا الإطار المنتخب الحاكم للحبكة المكانية على صعيد المساحة المعنية ، أو بهذا الإطار المنتخب الحاكم للحبكة الزمنية ، من أجل دراسة مناسبة عن الموضوع الذى يغطى ويستوعب الظاهرة الجغرافية ، لا يعنى بالضرورة ، الإنغلاق الصارم ، داخل أى من هاتين الحبكتين ،على صعيد المساحة المعنية . بل قل إنه التزام موضوعى ، ولكنه فى نفس الوقت لا يعنى مرة أخرى ، تحريم تجاوز ؛

أ– الإطار الفاصل بين المساحة المعنية ، وهى مكان الدراسة والبحث وتقصى الحقائق الجغرافية ، فى ظل الحبكة المكانية المنشودة فى جانب ، وكل المساحات الأخرى خارج هذا الإطار الحاكم فى جانب آخر .

ب– الإطار الحاكم للمساحة الزمنية ، وهى تغطى سياق الزمن لحساب

البحث والدراسة وتقصى الحقائق الجغرافية ، فى ظل الحبكة الزمنية المنشودة فى جـانب ، وكل مسـاحات الزمن ، خارج هذا الإطار الحاكم فى جانب آخر .

– ومن ثم تستوجب العناية الجغرافية ، بإختيار الإطار الحاكم للمكان ، وتأمين الحبكة المنشودة ، لمباشرة الدراسة الجغرافية ، الشئ المناسب من حسن التنسيق وتجنب عدم التعارض ، بين الإلتزام بالحبكة المكانية ، وهذا واجب لا مفر منه فى جـانب ، والمرونة فى الأداء أو الإنجاز ، وهذا حق مشروع فى جانب آخر ، أن يتجاوز الإطار الحاكم للحبكة المكانية دون إختراق أو إنتهاك لجدوى هذه الحبكة . ومثل هذا التجاوز ، يكون بالضرورة هادفًا وله ما يبرره ، وهو لا ينتهك أبداً الحبكة المكانية وحتمية الإلتزام الموضوعى بها .

– وقل إن هذا التجاوز المشروع ، الذى يجسد التوسع المكانى ، لا قيد عليه . بل قل لا ينبغى الطعن فى جدوى هذا التوسع المكانى ، أو حرمان الباحث ، من مباشرته . ولا يكون هذا التوسع المكانى مشروعًا ، ومباحًا ، إلا من أجل جنى ثمرات هذا التوسع الذى له ما يبرره . ويلتمس هذا التوسع المكانى فى الغالب ، التماس التفسير الموضوعى للظاهرة الجغرافية المعنية أحيانًا ، أو التمـاس المقارنة الموضوعية بين الظاهرة الجغرافية المعنية فى إطار الحبكة المكانية ، والظاهرة الجغرافية المشابهة الأخرى فى المساحة غير المعنية . بمعنى أنه توسع مكانى هادف ومحسوب ، بصرف النظر عن مداه ، ويظل الباحث الجغرافى ملتـزمًا ، ولا يترك لهذا التوسع المكانى الذى له ما يبرره ، الحبل على الغارب .

– وهكذا تكون إنطلاقة هذا التوسع المكانى ، وتجاوز الحد الذى يفرضه الإطار الحاكم للحبكة المكانية ،على المساحة المعنية ، إنطلاقة مشروعة ومبررة . وقل إن هذا التوسع المكانى ، يكون من غير حدود ، وفى أى إتجاه ، بشرط أن يكون هادفًا ومفيداً ، لحساب البحث الجغرافى ، على صعـيد المســرح الجغرافى ، فى المساحة المعنية . بل قل أن إنطلاقة هذا التوسع المكانى ، تكون متاحة ، ولها ما يبررها أو ما يستوجبها . ومع ذلك لا ينبغى أن يفضى هذا التوسع المكانى المنشود ، إلى الشرود ، أو إلى الخروج من غير قصد ، عن صلب الموضوعية الجغرافية المنشودة . وهذا هو ما يستحق عندئذ الطعن فى

جدواه .. بل قل يستوجب فى نفس الوقت حتمية الإعتراض عليه .

– ويوازى هذا الإجتهاد الجغرافى ، الذى يتحرى تحديد المكان ، وتأمين الحبكة المكانية المنشودة ، على صعيد المساحة المعنية ، الإجتهاد الجغرافى ، الذى يتحرى تحديد الزمان ، وتأمين الحبكة الزمنية التى تشهد أوضاع الصورة الجغرافية ، على صعيد نفس المساحة المعنية . ولأن صورة الأرض فى المكان ، على صعيد أى مساحة معنية ، والتى يعلن عنها المنظور الجغرافى الطبيعى ، تكون قابلة للتغير من زمان إلى زمان آخر ، ولأن أوضاع حركة الحياة ، على صعيد أى مساحة معنية ، والتى يعلن عنها المنظور الجغرافى البشرى ، تكون قابلة للتغير من زمان إلى زمان آخر ، يتعين على الباحث الجغرافى ، تحرى وتحديد الزمان الفعلى والمساحة الزمنية المنشودة ، لمعاينة الرؤية الجغرافية ، ورصد المدركات والحقائق الجغرافية المتاحة على صعيد المساحة المعنية .

–وتوجه الإجتهاد الجغرافى ، إلى تحديد الزمان وصياغة الحبكة الزمنية ، والإلتزام بها ، فى مجال معاينة المنظور الجغرافى ، على الوجهين الطبيعى والبشرى ، وإجراء الدراسة الجغرافية ، على صعيد المساحة المعنية ، يتأتى على ثلاثة أوجه . وتتمثل هذه الأوجه فى ؛

أ– صورة جغرافية غائبة فى الماضى .

ويتعين إستحضار عناصر هذه الصورة غير المرئية . ويتحلى الجغرافى بمهارة جمع الدلالات ، وكشف النقاب عنها . وفى وسع الباحث الجغرافى عندئذ أن يصف هذه الصورة الغائبة ، وكأنه يعاينها على المسرح الجغرافى ، وأن يتحرى تفسيرها مرة ، أو أن يتحرى تقويمها مرة أخرى .

ب– صورة جغرافية حاضرة .

ويملك الباحث الجغرافى التمعن فيها ، ورصد خواصها ،وتحرى تفاصيل ملامحها ومواصفاتها ويطالع أوضاعها وخواصها . وفى وسع الباحث الجغرافى عندئذ ، أن يصف هذه الصورة الجغرافية ، وأن يتحرى تفسيرها مرة ، وأن يتحرى تقويمها مرة أخرى ، وهو يعاينها .

جـ- صورة جغرافية غائبة فى المستقبل .

ويتعين على الباحث الجغرافى إستحضار عناصر هذه الصورة المرتقبة وتصور مواصفاتها . ويتحلى هذا الباحث بمهارة إستشراف الإسقاطات التى تكشف النقاب عنها . وفى وسع الباحث الجغرافى عندئذ ، أن يصف هذه الصورة الجغرافية المرتقبة ، وأن يتحرى تفسيرها مرة ، وأن يتحرى تقويمها مرة أخرى ، دون معاينة .

- وهناك بالضرورة ، فرق كبير ، بين معاينة صورة جغرافية معلنة ، يتعامل معها الباحث الجغرافى ويرى عناصرها عن كثب ، وهى تتحدث عن نفسها ، وهو يحسن الإستماع إليها فى جانب ، وتحرى صورة جغرافية غائبة فى الماضى أى ماضى ، أو تحرى صورة جغرافية مرتقبة فى المستقبل دون معاينة ، فى جانب آخر . ومن وراء هذا الفرق الواضح ، بين حضور المنظور الجغرافى الطبيعى أو البشرى ، وغيابه ، يختلف بالضرورة المنهج البحثى الذى يعتمد عليه البحث . وهناك منهج مناسب لحساب دراسة وتحليل عناصر الصورة الجغرافية المعلنة فى الوقت الحاضر . وهناك منهج مناسب آخر ، لحساب جمع وتصور وحسن تركيب وتنسيق عناصر وأوصال الصورة الجغرافية الغائبة ، فى الماضى أوفى المستقبل .

- ومن خلال المهارة الجغرافية ، فى مجال التنسيق البديع ، بين التزام موضوعى بالزمان ، الذى شهد أو الذى يشهد الصورة الجغرافية فى جانب ، ومرونة الأداء ، وحسن تقصى قوة فعل المتغيرات ، وهى تؤثر على عناصر الصورة الجغرافية ، فى جانب آخر ، يكون فى وسع الباحث الجغرافى ، متابعة سياق الزمن الذى لا يتوقف ، وأن يرصد ما تتأتى فيه من متغيرات ودواعى التغيير . بمعنى أن يتأتى أحياناً تجاوز المساحة الزمنية تجاوزاً هادفاً ، وله ما يبرره ، ويسعى هذا التجاوز وراء تقصى والتماس جذور الحقيقة الجغرافية . ولا ينتهك هذا التجاوز أبداً خصوصية الحبكة الزمنية والإطار الحاكم لها . بل قل إنه تجاوز مشروع ، ولا يتعارض أبداً مع موضوعية البحث الجغرافى فى المكان والزمان .

– وقل هـذا هو التوسع الزمانى ، الذى له ما يبرره . وهو توسع لا قيد عليه ، وهو ضرورى ومفيد لحساب البحث الجغرافى . بل قل لا ينبغى الطعن فيه ، أو حرمان الباحث الجغرافى من حق مباشرته بكل الحرية . ومن حق الباحث الجغرافى – على كل حال – جنى ثمرات هذا التوسع الزمانى ، لحساب التفسير المناسب أحيانًا ، أو التماس المقارنة الموضوعية أحيانًا أخرى . وتكون إنطلاق هذا التوسع الزمانى ، وتجاوز الحد الذى يفرضه سياق الزمان ، على أوضاع وخواص الصورة الجغرافية ، على صعيد المساحة المعنية ، من غير حدود ، وإلى أى مدى. ولا قيد أو ضابط حاكم على مباشرة هذا التوسع الزمانى ، الذى يتجاوز الحبكة الزمانية ، مادام هادفًا ومفيدًا ، لحساب البحث الجغرافى على صعيد المسرح الجغرافى ، فى إطار المساحة المعنية .

–وهكذا تكون إنطلاق هذا التوسع الزمانى متاحة دائمًا ،ولها ما يبررها ، وهى على المدى القصير ، أو وهى على المدى الطويل ، أو وهى على المدى الچيولوچى . والهدف الجغرافى المنشود الذى يلتمسه الباحث ، هو الذى يحدد بدقة أبعاد هذا المدى . بمعنى أن هذا التوسع الزمانى ، لا يترك للباحث الجغرافى الحبل على الغارب .

بل قل تفرض عليه موضوعية البحث ، وحتمية عدم التمادى من غير طائل ، فى مباشرة هذا التوسع . ذلك أن هذا التمادى فى مباشرة هذا التوسع الزمانى ، يفضى بالضرورة إلى الشرود ، أو إلى الخروج عن صلب الموضوعية الجغرافية المنشودة . ومن ثم يستحق هذا الشرود عندئذ الطعن فى جدواه . وقد يستوجب حتمية الإعتراض عليه .

تمهيد :

هذا ، وبعد حسن إستيعاب لماذا ،وكيف يتحرى علم الجغرافية دراسة المكان في الزمان ، ثم لماذا وكيف يتأتى التوسع المكاني وله ما يبرره مرة ، والتوسع الزماني وله ما يبرره مرة أخرى ، في إطار الحبكة البحتية الجغرافية الموضوعية ، تكون هذه الدراسة الجغرافية عن وجود مصر ، في مكانها الجغرافي . وتتحرى هذه الدراسة بكل إهتمام رصد منظومة الحقائق الجغرافية التي تتحدث وتكشف النقاب عن وجود مصر العريق ، على صعيد المسرح الجغرافي المصري ، في المكان والزمان .

– ومن شأن هذه الدراسة الجغرافية ، أن تتناول صورة جغرافية غائبة ، كانت منذ الاف السنين . وتجسد هذه الصورة الجغرافية الغائبة ، العلاقة بين الأرض ، وهي وطن ، والإنسان ،وهو مواطن . ويعكف الباحث الجغرافي على جمع وتأصيل عناصر هذه الصورة الجغرافية على المسرح الجغرافي المصري ، وينفض عنها غبار الزمن الطويل . وقل إنه يلتمس إجابات صحيحة وموضوعية ، تجاوب على إستفسارات وأسئلة تسأل عن ، لماذا ، وكيف ، ومتى ، كان وجود مصر ، وإستمرار أو دوام هذا الوجود العريق ، في المكان والزمان .

– وقبيل طرح هذه الأسئلة ، وعرض الإستفسارات ، من أجل التماس الحقائق الجغرافية التي لا تكذب ولا تضلل ، وقبيل تحرى وجمع أوصال الردود والإجابات المقنعة ، التي تجسد وتوثق هذه الحقائق الجغرافية عن وجود مصر في الماضي البعيد قبل التاريخ ، وعن إستمرار وجودها على الساحة ، يجب أن نضع في الإعتبار مقولات متعددة ، ينبغي أن تشد الإنتباه . وفي إطار ثقة من غير حدود ، في صدق القائل ، وفي صدق المقولة ، ينبغي أن مذرك إنها مقولات حقه ولا تتأتى أبداً من فراغ .

– وقل لم يتأتى من فراغ أبداً ، ذكر مصر صراحة ، وليس غيرها مرات متعددة ، في أيات بينات من القرآن الكريم . وهذا هو كلام الله العلي العظيم ، الذي لا يأتي الباطل من بين يديه أو من خلفه . وهو الذي سخر كل ما في الأرض لحساب حركة الحياة ، وهو على كل شئ قدير .

– وقل لم يتأتى من فراغ أبداً ، قول السيد المسيح عيسى بن مريم عليه

الصلاة والسلام « مبارك شعب مصر » . وهذا هو القول الصريح ، الذى خص شعب مصر دون غيره ، وهو بالضرورة قول جاوب وحى السماء ، وإرادة اللّه العلى القدير ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى .

– وقل لم يتأتى من فراغ أبداً ، قول رسول اللّه محمد بن عبد اللّه « صلى اللّه عليه وسلم » مصر كنانة اللّه فى أرضه ، وأهل مصر فى رباط إلى يوم الدين » وهذا هو بلاغ بين وصريح ، من الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

– وقل مرة أخرى ، لم يتأتى وصف مصر ، الذى يتردد على ألسنة أهل مصر ، وهم يقولون أنها أم الدنيا . وهم يباهون فى زهو بالوطن العزيز ، ويرددون الأناشيد في حب مصر . وهم يفخرون عن ثقة ويقين ، بمورثهم الحضارى العريق ، دون إستعلاء أو تعالى عن الغير .

– وقل مرة أخيرة ، فى نهاية المطاف ، لم يتأتى من فراغ أبداً ، ذكر مصر الذى تردد ، ومازال تردد على الأسماع بين أهل مصر ، وهم يقولون مصرالمحروسة . وهذا هو مردود خارج من تحت عباءة الموروث الثقافى ، وصدى إستشعار فضل اللّه ، وعنايته وقدرته التى تؤمنهم فى مواجهة أعباء الحياة .

– وفى ظل هذا الإجماع المثير ، الذى جمع فى الحديث عن مصر ، أو عن ذكر مصر ، بين قول اللّه ، وقول الرسل ، وقول عامة الناس ، يبدأ البحث الجغرافى عن وجود مصر ، وعن حضورها المستمر على الساحة ، فى المكان والزمان . ويتمعن الإجتهاد الجغرافى ، ويتدبر جيداً ، فيما أنطوت عليه خلفية وموضوعية ، هذا الإجماع المؤكد ، الموارد فى التراث الأصيل والعريق .

ومن حق الإجتهاد الجغرافى أن يسأل عن دلالات هذا الإجماع المثير وتداعياته . بل قل ينبغى أن يتحرى الإجتهاد الجغرافى ، وقفة تأمل وتفكير عميق ، وهو يسأل ، أو وهو يستفسر عن سر غامض ، يتحدث عن وجود مصر العريق فى مكان جغرافى حاكم ، على صعيد مسرح جغرافى فريد .

– ويكون الإستفسار الجغرافى مهماً ، وهويسأل عن وجود مصر الوطن ، وهو المسرح الجغرافى ، وعن وجود مصر الوطن ، وهو صاحب السيادة على هذا المسرح ، كما يكون الإستفسار الجغرافى أهم ، وهو يسأل مرة أخرى ،

عن وجود مصر في ظل النظام الحاكم ، الذى أعلن عن وجود دولة مصرالعريقة ، وهى فى الموقع الجغرافى الفريد الحاكم ، لأهم تحركات حركة الحياة الإنسانية على الصعيد العالمى . وقل إنها فى مكانها الجغرافى حاكمة للحركة على المحور العرض من الشرق إلى الغرب ، وعلى المحور الطولى من الشمال إلى الجنوب . ثم يكون بعد ذلك كله الإستفسار الجغرافى الأهم ، الذى يسأل عن سر إستمرار وجود مصر ، الوطن ، والمواطن ، والدولة ، وهى حاضرة لا تغيب أبداً ، عن الساحة الإقليمية ، أو عن الساحة العالمية .

– وما من شك أبداً فى أن إرادة الله العلى القدير ، هى التى تسخر ما يشاء ، كيفما شاء ، لما يشاء . وكان من شأن هذه المشيئة الإلهية ، أن تسخر ، وأن تضبط على المدى الچيولوچى ، أو على المدى الطويل ، إيقاعات :

أ– قوة فعل الطبيعة :

وتحرى متغيراتها على المدى الچيولوچى الطويل ، وماذا وكيف ومتى فعلت أو أنجزت ، وهى من وراء تكوين وجريان نهر النيل العظيم ، الذى تولى تجهيز المسرح الجغرافى للوطن المصرى ، فى المكان والزمان . وكان هذا التجهيز بالشكل الأنسب ، على إمتداد السهل الفيضى . وهذا هو الشكل الذى أمن ، ومازال يؤمن وجود المواطنين على المسرح الجغرافى المصرى ، ويكفل ويدعم ويشد أزر الإستقرار ، فى ظل أنحاء الوطن ، على صعيد الوادى والدلتا .

ب– أوضاع الإنسان :

وتحرى متغيرات قدراته الفاعلة ، على المدى الطول ، الذى علمه الله بالقلم ، علمه ما لم يعلم . وكان الإلهام من وراء تأهيل وصقل المهارات ، وإكتساب الخبرات . وقد تأتى هذا التأهيل ، على صعيد وطن قديم مناسب ، أصبح مهجوراً بعد أن شهد أنشطة الوجود الحياتى المستقر ، وشهد مراحل التطور الإقتصادى والإجتماعى ، وشهد مراحل الإبداع الحضارى البكر ، قبل النزوع الإجبارى إلى الوطن ، الذى إحتوى وجود مصر ، على ضفاف النيل .

جـ- دواعى وتداعيات الاسر المتبادل :

وتحرى كيف تأتى ، بين المواطنين الذين تأهلوا فى جانب ، والوطن الذى تأتى وإكتمل تجهيزه فى جانب آخر . وكان هذا الأسر المتبادل ، من وراء تحديات صعبة . وقد فجرت هذه التحديات الصعبة تجلبات وشطحات إبداعية حضارية مادية ومعنوية بديعة . ويفضى هذا الإبداع الحضارى فى نهاية المطاف إلى تنوير كفل حسن التعايش مرة ، وحسن التعامل مرة أخرى ، بين الإنسان والطبيعة .

بل قل أفضى هذا التنوير ، إلى نضج وتطور . وكان من وراء تكوين دولة موحدة . ورسخ ذلك كله أوضاع مصر الوطن ومصر المواطن ، وكفل سيادته ، على المسرح الجغرافى المصرى . وهل هناك أهم أو أجدى من هذا الأسر المتبادل وتداعياته ، وهى التى جمعت ونسقت ، بين عبقرية المكان وعبقرية الإنسان ، لكى تكون وتتجلى عبقرية وجود الدولة التى لا تغيب ، فى المكان والزمان ؟

- هذا ، وإستحضار الصور الجغرافية الغائبة ، على المدى الچيولوچى ، أو على المـدى الطـويل ، التى تتحدث بصدق وموضوعية ، عن وجود مصر الوطن ، وعن وجود مصر المواطنين ، وعن وجود مصر الدولة ، تستوجب مهارة جغرافية خاصة ومتخصصة . وتكفل هذه المهارة حسن جمع كل العناصر المتداخلة تداخلاً سليماً ومناسباً ، فى توليفة كل صورة جغرافية خاصة من هذه الصورة المتعددة .

- وتتحدث **الصورة الجغرافية الأولى** وهى الأقدم ، عن تجهيز وأعداد الوطن ، على المسرح الجغرافى المصرى ، فى المكان والزمان . وليس أهم أو أجدى من متابعة قصة التاريخ الچيولوچى للنيل ، وهى تسجل مراحل تكوين المجرى ، وإنسياب جريان النيل . وقل أن النيل العظيم ، هو صانع السهل الفيضى ، الذى يضم أرض الوطن الخصبة الطيبة . بل قل إن نهر النيل ، هو أهم معلم على صعيد هذا المسرح الجغرافى ، وهو الذى إستقطب الناس ،

وأمن الإستقرار ، وعزز أوضاع الشعب ووجوده الفاعل ، على صعيد الوطن وأمن وجود مصر التى لا تغيب .

– وتتحدث **الصورة الجغرافية الثانية** ، وهى الأعجب ، عن إستقرار الناس ، ونقله نوعية ، إقتصادية ، وإجتماعية وحضارية ، على صعيد وطن قديم لبعض الوقت . ويسرت هذه النقلة النوعية وتداعياتها المثيرة ، مسألة تأهيل وصقل مهارات وإكتساب خبرات ، فى وطن مناسب ، وفى أوضاع حياتيه مناسبة ، سجلنها صفحات تاريخ ما قبل التاريخ . وكان ذلك التأهيل على المدى الطويل ، قبل دفع الناس دفعاً على غير إرادتهم للإنتقال والنزوع من وطن قديم بات مهجوراً ، إلى الوطن الأنسب على المسرح الجغرافى المصرى ، على ضفاف نهر النيل العظيم . وما كان هذا النزوح من الوطن المهجور إلى الوطن على ضفاف النيل وليد المصادفة . بل قل سخر من كان فى يديه ملكوت كل شئ الطبيعة وحلول الجفاف ، لكى يتأتى هذا النزوح إلى المكان الأنسب .

– وتتحدث **الصورة الجغرافية الثالثة** ، عن مشوار النزوح الإجبارى المثير ، الذى أسكن حركة الحياة ، وأمن وجود الإستقرار الراسخ ، فى ربوع السهل الفيضى . وجاءت هذه النقلة المكانية ، إلى حملت فى جعبتها تجارب وتداعيات وخبرات النقلة النوعية العريقة ، لكى تسجل نقطة البداية ، فى وجود مصر الوطن ، وفى صحبة وجود مصر المواطنين . وعلى صعيد الوطن ، تأتى الأسر المتبادل بين الناس والنيل . وأفضى هذا الأسر التبادل ، إلى إستكمال مشوار حركة الحياة ، إقتصادياً وإجتماعياً ، وحضارياً . وكان بعد ذلك كله ، إتمام التوجه إلى تجانس لبنات الشعب المصرى . وأهل هذا التجانس البشرى الشعب ، لكى يملك ناصية السيادة على أرض الوطن . وتحرى الشعب عندئذ إقامة النظام الحاكم العريق ، الذى أعلن عن وجود دولة مصر .

– وفى نهاية المطاف ، هناك **صورة رابعة أخيرة** ، تتحدث عن مسألة إستمرار وجود مصر وهى لا تغيب . ويلملم الباحث الجغرافى عناصر هذه الصورة ، من صفحات التاريخ القديم ، والتاريخ الوسيط ، والتاريخ الحديث والمعاصر . وتحدث هذه الصورة فى إيجاز ووضوح ، حديث الصدق

والموضوعية ، عن معنى ومغزى إستمرار وجود مصر الوطن ، ووجود مصر المواطن ، ووجود مصر الدولة المستقلة أحيانًا أو فى ظل التبعية أحيانًا أخرى . وكانت مصر على المدى الطويل حاضرة على الساحة . بل قل ماغابت مصر أبدًا ، أو غربت شمسها ، عن الساحة الإقليمية ، أو عن الساحة العالمية . وتبقى مصر وشعبها الحريص على تجانس لبناته ، فى مكانها الجغرافى الفريد . وتتأرجح أوضاعها فى ظل هذا الوجود المستمر ، بين تربع بإستحقاق على قمة الإزدهار أحيانًا ، أو جلوس بإستحياء على مقعد التواضع والإضمحلال أحيانًا أخرى .

– وفى كل الأحوال ، تبقى مصر صامدة فى مكانها الجغرافى الحاكم . وفى كل مراحل التاريخ تعيش مصر ، وهى ملأُ السمع والبصر . ويكون فى وسع الإجتهاد الجغرافى أن يجد الإجابة عن ؟

أ– سوال يسأل عن سر إستمرار وجود مصر ، فى مكانها الجغرافى .

ب– سؤال يسأل عن كيفية تجدد حيوية شعب مصر المتجانس ، وهو لا يفرط فى إستمرار وجود دولة مصر ؛ على الساحة الإقليمية ، أو على الساحة العالمية .

الأولى

صورة تتحدث عن التاريخ الجيولوجى لتكوين وجريان النيل وبناء وتجهيز المسرح الجغرافى فى الوادى والدلتا

الأولى

تجهيز المسرح الجغرافى . وإعداد أرض الوطن

– تقع مصر على الصعيد الإفريقى ، فى موقع جغرافى حاكم ، فى القلب من جزيرة العالم ، التى تضم آسيا وأوروبا وأفريقية . ويعظم قيمة هذا الموقع الجغرافى ، ويرسخ عبقرية المكان ، إشراف مصر المباشر على البحر المتوسط والبحر الأحمر . ويجاوب هذا الموقع الجغرافى الفريد ، تحلى مصر بالإنفتاح ، والإستعداد لقبول الآخر . وفى ظل الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، يتفانى شعب مصر فى حب الوطن ، ويتباهى بأصله العريق ، وهو عاشق للسلام . وكان شعب مصر فى وسعه دائماً ، إستيعاب الغرباء إستيعاباً برر حيويته ، وإنعش شبابه .

– ومن خلال رصد الصورة الجغرافية السائدة ، على صعيد المسرح الجغرافى ،والتمعن فى دلالاتها وفحواها ، ينبغى أن ندرك جيداً ، دور نهر النيل العظيم . كما يجب أن ندرك جدوى جريان النيل الرتيب ، فى تكوين وصياغة مواصفات وملامح وخواص أرض هذا الوطن المصرى . وقل إن نهر النيل هوصانع هذه الأرض ، وهو أهم معلم فى إطار الصورة الجغرافية . بل قل إنه المعلم الأهم ، الذى أسهم على المدى الطويل ، فى صياغة وتكوين كل المعالم الأخرى ، على صعيد المسرح الجغرافى المصرى على إمتداد السهل الفيضى والدلتا .

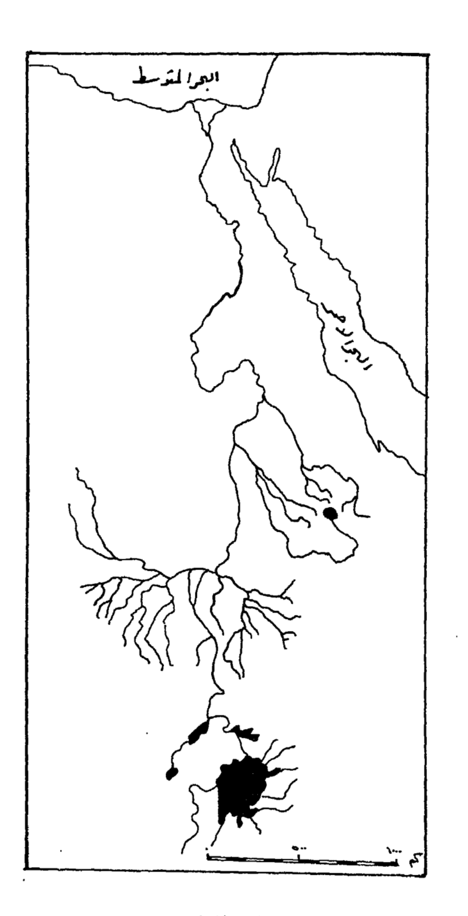
– وجريان النيل ، ورتابة نظام هذا الجريان الدائم ، بصرف النظر عن تفاوت المناسيب على مدار السنة وتفاوت كم الإيراد الطبيعى من سنة إلى أخرى ، هو الذى أفضى إلى وجود مصر ، وهو أيضاً من وراء إستمرار وجود مصر . وغياب هذا الجريان الرتيب فى النيل . يفضى بالضرورة إلى غياب مصر عن الساحة . وسبحان من قدر وشاء ، وأجرى النيل ، لكى تكون مصر فى مكانها الجغرافى الفريد . وسلمت وتسلم الأيدى المصرية ، التى كان فى وسعها ضبط إيقاعات الجريان فى النيل ، وتأمين حسن الإنتفاع به ، لكى تبقى مصر فى مكانها الجغرافى الحاكم ، ولا تغيب .

– هذا ، وليس ثمة شك ، فى أن جريان النيل ، ورتابة التدفق فى المجرى ، هو الذى يتهادى ويستمر ، ويجاوب إرادة حركة الحياة على الضفاف ، ولا يخذلها . وقل يطاوع النيل يد الخبرة التى تضبط الجريان ، سواء وهى تهذب المجرى وتصونه ، أو وهى تروض الجريان وتؤمن الإنتفاع به . وهكذا يقع نهر النيل فى أسر حركة الحياة ، ويستسلم لقوة فعل السيطرة عليه ، فى مقابل وقوع حركة الحياة فى أسر نهر النيل . وفى ظل هذا الأسر المتبادل ، توجد مصر ، ويستمر وجودها فلا تغيب .

– وعلى المدى الچيولوچى الطويل ، أفضى الجريان فى النيل ، وهو يتهادى وديعاً فى موسم ، ويتدفق سريعاً فى الموسم الآخر ، إلى أرساب الحمولة العالقة به ، وتكوين السهل الفيضى . ويمتد هذا السهل الفيضى فى رتابة وإنتظام ، من خط عرض أسوان إلى خط عرض القاهرة . وجريان النيل المستمر الرتيب ، هو الذى أفضى على المدى الچيولوچى الطويل مرة أخرى ، إلى تكوين الدلتا . وتصبح دلتا النيل بعد نضج تكوينها من وجهة النظر الجمورفولوچية ، قطاعاً مهماً وحيوياً ، من المسرح الجغرافى للوطن المصرى . وتؤمن الصحراء الحارة الجافة شرقًا وغربًا ، وهى تمتد على هامش الوادى والدلتا ، الإستقرار ، الذى أوقع حركة الحياة ، فى أسر النيل وأوقع النيل فى أسر حركة الحياة .

– وصحيح أن رتابة جريان النيل العظم وإستمراره ، على المسرح الجغرافى المصرى ، يكون له دور البطولة فى دعم وتعزيز أوضاع حركة الحياة ، وفى ترسيخ وجود مصر ، فى المكان والزمان . وصحيح مرة أخرى ، أن غياب الجريان فى النيل – وهو ما لم يحدث –يفضى بالضرورة إلى مجاعة مائية تستوجب غياب مصر . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو أن كان من شأن الإنسان المصرى على صعيد المسرح الجغرافى المصرى ، فضل المشاركة الجادة والمجدية بكل الخبرة والمهارة فى ضبط النيل والسيطرة عليه ، والإيقاع به فى آسر حركة الحياة .

– وقل أن هذا الضبط ،هو الذى وضع ويضع الجريان فى النيل تحت السيطرة ، وهو الذى عظم ويعظم الإنتفاع به ، لحساب حركة الحياة ،



نهر النيل

ووجودها المنتعش . بل قل أن الإنسان المصرى ، وهو صاحب حق أصيل فى الحياة على ضفاف النيل وفروعه ، كان من شأنه أن يشارك الجريان بموجب الضبط والترويض ، فى دور البطولة . وفى ظل الندية بين جريان رتيب فى جانب ، وضبط قدير فى جانب آخر ، تأتى ترسيخ الإستقرار ، وتأمين مكانة مصر ، على صعيد المسرح الجغرافى المصرى .

– هذا وسياق القصة الطويلة والمثيرة ، التى تتحدث فصولها أو مشاهدها المتواصلة ، على المدى الجيولوجى الطويل ، عن مراحل نشأة المجرى ، أو عن تكوين وتواصل جريان النيل ، هو الذى يكشف أو ينم عن إرادة أو عن مشيئة من خلق فسوى ، ومن قدر فهدى . وقد سخرت هذه الإرادة ، التى من شأنها أن تقول للشئ كن فيكون ، الطبيعة لكى تنشط وتتوجه بكل الجد والإلحاح فى تكوين المجرى ، وتأهيله للجريان وصولاً إلى مصر ، وإمتلاك القدرة على بناء وتجهيز المسرح الجغرافى المصرى ، فى المكان والزمان .

– وقضت هذه الإرادة العلية ، أن يجرى النيل فى مجراه الطويل ، من آحباسه العليا أو منابعه ، من الجنوب على سطح إفريقية العليا ، إلى الشمال على سطح أفريقية السفلى . ويتفرد مجرى النيل – بكل المعايير – فى هذا التوجه الفريد . ويصل النيل بموجب هذا التوجه ، فى نهاية المطاف ، إلى المسرح الجغرافى المصرى . وقد إكتسب الجريان فى مجرى النيل ، كل الخواص والملامح ، التى أفضت إلى الإرساب ، وتجهيز هذا المسرح الجغرافى المصرى ، فى الوادى والدلتا . وهذا المسرح الجغرافى هو الذى إحتوى ويحتوى مصر ، وهو الذى جمع ويجمع ، ونسق وينسق بين عبقرية الإنسان وعبقرية المكان ، فى مجال صياغة التداعيات الحياتية ، فى كل زمان .

وأنهار كثيرة كبرى ، تجرى فى مجاريها على الصعيد العالمى ، ولم يخرج من تحت عباءة أى منها شعبًا أو حضارة وأنهار متعددة كبرى ، تتفاوت معدلات ومستويات الإنتفاع بها ، وتظل على مستوى أدنى من مستوى الإنتفاع بالجريان فى النيل . وليس مثل نهر النيل نهراً من كل هذه الانهار ، على الصعيد العالمى ، يضارعه أو يحاكيه .

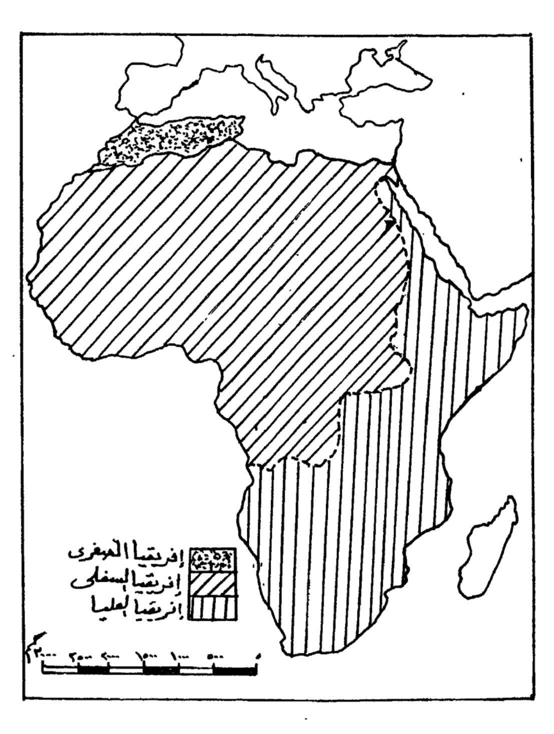
وقل أن النيل وحده وليس غيره ، هو الذى أتاح وشارك فى صياغة وعزف

النشيد ، الذى تغنى ويتغنى بأم الدنيا مصر ، وهى الأعرق حضارياً ، على الصعيد العالمى .

– وتمعن فى صور هذه الانهار الكبرى ، التى تجرى من الشمال إلى الجنوب ، أو التى تجرى من الشرق إلى الغرب ، أو التى تجرى من الغرب إلى الشرق ، وتبين كيف لم يكن لدى نهر من هذه الأنهار فى مكانه الجغرافى ، مكانة حضارية ، أو مكانة إقتصادية ، أو مكانة إجتماعية ، أو مكانة سياسية ، مثل نهر النيل ، على المسرح الإقليمى أو على المسرح العالمى ، إلا منذ وقت حديث . وليس أعرق من النيل فى تبنى حضارة . وليس أو فى من النيل فى دعم وتطوير وتعزيز أقدم حضارة ، لكى تبقى لها المكانة والريادة فى المكان الجغرافى الحاكم .

– وقل لم يكن لأى من الانهار الكبرى ، مثل نهر الكنغو على الصعيد الأفريقى ، أونهر الدانوب على الصعيد الأوروبى ، أو نهر الأمازون ونهر الميسسبى على الصعيد الأمريكى ، دوراً مباشراً أو غير مباشر فى الماضى البعيد ، من وراء إبداع حضارى متألق ، لحساب حركة الحياة . بل قل لم يشارك أى نهر من هذه الانهار فى صناعة التاريخ ، أو فى صياغة حضارة مادية أو معنوية . وهل هناك من فى وسعه ، أن ينكر أو أن يستنكر دور جريان النيل ، وهو بكل تأكيد من وراء تألق الإبداع الحضارى المصرى ، الذى تحلى بالإنفتاح ، وحلق بجناحى التوجه العالمى المنفتح ، لكى يعلم العالم ، ويقود مسيرة التنوير على كل المحاور ، وفى كل الإتجاهات ؟ ومن ثم قل بكل ثقة كيف لا تكون مصر أم الدنيا ؟

– وعلى الصعيد الإفريقى الواسع ، الذى يضم إفريقية العليا وهضابها المرتفعة العالية ، وأفريقية السفلى ، وسطحها الرتيب ، تبدأ فصول القصة الطويلة ، على المدى الچيولوچى ، التى تتحدث عن نشأة أو عن تكوين النيل ، وتواصل أجزاء ومجراه الطويل . وأنظر وتمعن فى خريطة أفريقية ، لكى تشهد منابع النيل على هضاب أفريقية العليا ، وكيف تمتد فى إتجاه الشمال ، على صعيد أفريقية السفلى . وبصرف النظر فى مظاهر الشذوذ التى يتميز بها الجريان فى النيل ، يصل هذا الجريان فى نهاية المطاف إلى مصر .



الأقسام التضاريسية العظمى

– وأنظر وتمعن فى خريطة أفريقية مرة أخرى ، لكن ترصد مجموعة الأحواض المصفوفة من الجنوب إلى الشمال ، وكيف إحتواها حوض النيل ، فى إطار إمتداده الطولى من الجنوب إلى الشمال . وفى مرحلة مبكرة على المدى الچيولوچى ، كان نشاط وقوة فعل عوامل النحت والأرساب ، لكى تنشأ مجموعة من الأحواض . وقد تفاوت مساحات هذه الأحواض ، سواء كانت على صعيد أفريقية العليا ، أو كانت على صعيد أفريقية السفلى . وكانت هذه الأحواض مغلقة . وكانت مرتفعات خطوط تقسيم المياه ، تطوقها وتفرض هذا الأنغلاق . وقد إحتوى كل حوض حسب سعته – نظامًا نهريًا خاصًا ، جاوب طبيعة هذا الإنغلاق .

– وإعتبارًا من عصر الكدنياس ، وهو آخر عصر من عصور الزمن الچيولوچى الثانى ، بدأ مشوار هذه القصة التى تتحدث عن نشأة النيل . وفى مراحـل تعاقـبت على المدى الچيولوچى الطـويل . فى عصـور الزمن الچيولوچى ، فتأتت قوة فعل الكسر فى مواضع ، وتتأتت قوة فعل الأسر ، فى مواضع أخرى ، لكى تنفتح هذه الأحواض المغلقة ، وتتواصل عبر هذه المواضع أجزاء مجرى النل العظيم .

– وكان الكسر فى مواضع ، محصلة قوة فعل حركة باطنية ، أو محصلة رد فعل حركة باطنيته ، تفضى إلى صدع أو إنكسار، فى التكوين الصخرى لمرتفعات خط تقسيم المياه . وبموجب هذا الصدع أوالإنكسار تحولت الأحواض المصفوفة ، على المحور الطولى من الجنوب إلى الشمال ، من حالة الإنغلاق إلى حالة الإنفتاح . وعبر موضع هذا الصدع ، تواصل الجريان من حوض إلى الحوض الآخر .

– وكان الاسـر النهرى فى مواضع أخرى ، محصلة قوة فعل نحت تراجعى صاعد ، فى إتجاه المنبع على صعيد نهرين ، فى إتجاهين مختلفين ، على منحـدرات خط تقسيم المياه ، بين حوضين . وبموجب هذا الاسر النهرى ، تحولت الأحواض المصفوفة ، على المحور الطولى من الجنوب إلى الشمال ، من حالة الإنغلاق ، إلى حالة الإنفتاح. وعبر موضع هذا الاسر النهرى ، تواصل الجريان من حوض إلى الحوض الآخر .

– هذا ، ويفضى فهم وإستيعاب دور الكسر مرة ، ودور الأسر النهرى مرة أخرى ، إلى متابعة قصة النيل ، وتحرى فصولها المتوالية ، التى شهدت تكوين النيل . وقد توالت هذه الفصول من عصر چيولوچى إلى عصر چيولوچى آخر ، على المدى الطويل ، أثناء الزمن الچولوچى الثالث . ويكشف هذا التوالى النقاب، عن مراحل التاريخ الچولوچى لجريان النيل ، فى إتجاه الشمالى ، وصولاً إلى مصر . وقل إن فصول هذه القصة الطويلة والمعقدة ، تكشف النقاب ، عن ؛

أ– كيفية تواصل أجزاء المجرى ، وتكامل المجرى تكاملاً إستوعب بموجبه الجريان .

ب– كيفية إشتراك المنابع الإستوائية والمنابع الحبشية ، على صعيد أفريقية العليا ، فى هذا الجريان الدائم .

جـ– كيفية تغير مناسيب الجريان وهى ترتفع فى موسم الفيضان ، وتنخفض فى موسم الفيضان .

– والفصل الأول من هذه القصة ، يتحدث عن بداية مبكرة . وكانت هذه البداية المبكرة فى فجر عصر الكرنياس ، وعلى صعيد المسرح الجغرافى الإفريقى الفسيح . وكان من شأن هذا المسرح الجغرافى الإفريقى ، الجمع بين إفريقية العليا ، وهى التى تضم هضاب جنوب وشرق وشمال شرق القارة فى جانب ، وافريقية السفلى ، وهى التى تضم مساحات السطح الرتيب ، الذى تنتهك رتابته ، الأحواض المتناثرة ، والمرتفعات البارزة فى جانب آخر . وكانت المرتفعات على هذا السطح الرتيب ، تمثل خطوط تقسيم المياه ، بين هذه الأحواض المغلقة أحياناً ، أو شبه المغلقة أحياناً أخرى .

– وفى إطار التوزيع الجغرافى، على صعيد أفريقية العليا ، كان حوضان ، هما حوض فكتوريا ، وحوض كيوجا . وقد أسفر النحت عن تكوين وتعميق هذين الحوضين . وتفاوتت معدلات هذا النحت ، لكى يكون حوض فكتوريا ، هو الأكثر إتساعًا ، الأدنى عمقًا على صعيد الهضبة الإستوائية . وكان الحوضان مغلقان ، وحاجز تضاريسى غير مرتفع ، إتخذ شكل خط تقسيم المياه بينهما .

– وعلى صعيد الهضبة الحبشية ، وبوجب إرساب تكوينات .اللاڤا الغطائية ، أفضى التضرس السائد إلى تكوين حوض آخر ، هو حوض بحيرة يايا . وكان هذا الحوض متوسط العمق ، وهوالذى شغل مساحة كبيرة ، فى القلب الأوسط من الهضبة الحبشية .

–وفى إطار التوزيع الجغرافى مرة أخرى ، على صعيد إفريقية السفلى ، أفضى النحت إلى تكوين ثلاثة أحواض . وتبدو هذه الأحواض ، وهى مصفوفة من الجنوب إلى الشمال . وهذه الأحواض هى ، حوض الغزال ، وحوض السودان الأوسط ، وحوض النوبة . وكانت مناسيب قيعان هذه الأحواض متقاربة إلى حد كبير . وقل أن التواصل بين هذه الأحواض ، سواء تأتى بموجب الاسر النهرى وتخفيض منسوب إرتفاع خط تقسيم المياه ، أو بموجب الكسر أو الصدع وإختراق خط تقسيم المياه ، هو الذى أفضى إلى تكوين مجرى النيل وتواصل الجريان فيه .

– وقد شهد هذا المسرح الجغرافى الإفريقى ، على المدى الچولوچى ، إعتباراً من عصر الكريتاسى ، ظاهرتين طبيعتين . وعلى التوازى تداخل فعل كل ظاهرة طبيعية منهما تداخلاً غير مباشر فى صياغة سيناريو تشكيل السطح . وأفضى هذا التداخل دون تعارض إلى تجهيز السطح تجهيزاً مناسباً ، لكى يتأتى جيران النيل ، بعد تواصل أجزاء المجرى . وقد إستمر فعل كل ظاهرة طبيعية ، على المدى الچيولوچى الطول ، أثناء عصور الزمن الچيولوچى الثالث .

– وقوة فعل ظاهرة من هاتين الظاهرتين ، كان واضحًا وفعالاً فى بطء على السطح المكشوف ، على صعيد الأرض ، فى إطار إفريقية العليا ، وفى إطار إفريقية السفلى على حد سواء . وقوة فعل الظاهرة الطبيعية الأخرى ، كانت سواء تأتت فى بطء شديد ، أو فى سرعة مفاجئة ، فى قلب الباطن غير المكشوف ، من تكوينات قشرة الأرض ، على صعيد أفريقية العليا فقط .

– وبوجب توازى وإستمرار هذا الفعل المباشر أو غير المباشر ، سواء كان بطيئًا أو مفاجئًا ، تتوالى أو قل تتعاقب فصول ومراحل التاريخ الچيولوچى لتكوين المجرى وجريان النيل . وفى تنسيق بديع وتوازى أكثر إبداعًا ، تأتى فعل هاتين

الظاهرتين الطبيعتين ، مرة على صعيد مساحات الأرض التى إحتواها حوض النيل فى جانب ، ومرة أخرى ، على صعيد مساحات الأرض على هامش الجانب الشرقى من حوض النيل فى جانب آخر . وقد إتخذت العلاقة فى إطار هذا التنسيق والتوازى بينهما ، شكل الفعل المباشر فى جانب ، وأحياناً أخرى شكل رد الفعل غير المباشر فى جانب آخر . وما كان من شأن هذه العلاقة ، إن أفضت إلى الفصل ، بين المراحل المتوالية ، التى يتحدث عنها كل فصل من فصول قصة التاريخ الچيولوچى للنيل .

– ومهما يكن من أمر ، فإن تكوين مجرى النيل ورواقده ، وتواصل أجزاء المجرى الرئيسى ، ثم الجريان المستمر فى هذا المجرى ، هو محصلة تداخل وتكامل قوة فعل هاتين الظاهرتين الطبيعتين ، وإشتراكهما المتوازى والمنسق ، فى تأثير الفعل المباشر أو فى تأثير رد الفعل غير المباشر . وكان هذا الفعل الطبيعى المشترك والمتوازى على أطول وأوسع مدى ، متزامناً . وهو – على كل حال – من وراء تكامل المجرى ، وتفسير أهم مظاهر الشذوذ ، التى يتحلى بها الجريان فى النيل .

– هذا ، وتتمثل هاتان الظاهرتان الطبيعتان ، وما كان من أمر فعل كل منهما المباشر أو غير المباشر ، فى :

أ– ظاهرة طبيعية أولى ، تمثلت فى نشاط قوة فعل العوامل الظاهرية المتنوعة . وكانت قوة فعل هذه الظاهرات ، تباشر النحت والارساب ، وتعمل فى مجال تشكيل تضاريس السطح . وقد تأتى فعل هذه الظاهرة الطبيعية ، وتواصل فى بطء ، على صعيد مساحات أرض إفريقية العليا ، ومساحات أرض إفريقية السفلى ، التى إحتواها حوض النيل . وقد لعبت صلابة التركيب الصخرى على السطح المكشوف دوراً مباشراً ، فى إبطاء فعل النحت أوالإرساب أحياناً ، أو تسريعه أحياناً أخرى . وأفضى هذا الفعل إلى إنتهاك رتابة السطح ، لكى تكون الأحواض وهى إنتهاكات سالبة ، ولكى تكون الكتل الجبلية والمرتفعات ، وهى إنتهاكات موجبة .

ب– ظاهرة طبيعة ثانية ، تمثلت فى نشاط قوة فعل الحركات الباطنية

المتنوعة . وشهد التركيب الصخرى لقشرة الأرض ، حدوث هذه الحركات الباطنية البطيئة أو الحركات الباطنية المفاجئة . وقد تأتى فعل هذه الحركات الباطنية على المدى الطويل ، وأفضى إلى ضعف وعدم إستقرار فى قشـرة الأرض . وفى ظل هذا الضعف وعدم الإستقرار ، توالى أو قل تواصل فى بطء أحيانًا ، أو فى سرعة أحيانًا أخرى ، حدوث أو تكرار هذه الحركات الباطنية ، على المدى الچيولوچى . وأفضى ذلك الفعل المتكرر إلى صدوع ، وإنكسارات وأنشطة بركانية ، على أوسع مدى على صعيد مساحات الأرض ، التى إحتواها حوض النيــل ، أو التى كانت عــلى هامش أرض حوض النيل . وإضافة إلى هذا الفعل ، تأتت فى نفس الوقت ردود أفعال هذه الحركات الباطنية ، على صعيد أرض إحتواها حوض النيل فى افريقية السفلى . وكانت ردود هذه الأفعال غير المباشرة ، من وراء صدوع وإنكسارات فى أكثر من موضع . وأتاح ذلك تواصل الأحواض المغلقة ، وتواصل أجزاء مجرى النيل .

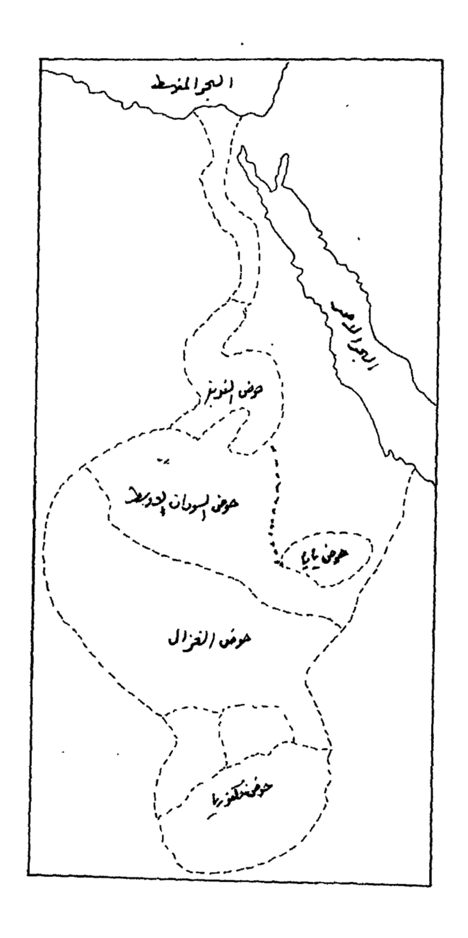
– ومن غير إهمال أو تفريط ، فى إستيعاب معنى ومغزى ، هذا التوازى بين قوة هاتين الظاهرتين الطبيعتين ، أو فى التأثير المتبادل بينهما ، وهما يشتركان معًا فى تكوين مجرى النيل ، وتحديد الإطار المحكم لحوض النيل ، ومن غير تمييز بين دور أو نصيب كل ظاهرة من هاتين الظاهرتين ، وضبط إيقاعات هذه المشاركة ، فى مجال تواصل أجزاء مجرى النيل ، ينبغى أن تتابع بشئ من التفصيل ، محصلة فعل كل ظاهرة منهما على إنفراد . ومن شأن هذه المتابعة ، أن تكشف فى نهاية المطاف عن التكامل والتزامن ، بين فعل العوامل الطبيعية الظاهرية ، وقوة فعل العوامل الطبيعية الباطنية . بل قل تتكشـف مشاركة حقيقية ، تجسد مبلغ التوازى والتزامن ، فى صياغة السيناريو المحكم ، الذى يعبر عن تواصل أجزاء مجرى النيل وروافده .

– وكان من شأن نشاط الظاهرة الطبيعية ، وهو قابل لتغير معدلاته ، مباشرة النحت أحيانًا ، أو مباشرة الارساب أحيانًا أخرى ، على إمتداد المسرح الجغرافى . وأفضى نشاط هذه العوامل ، وهى تباشر فعلها البطئ ، على المدى الچيولوچى ، إلى تسوية السطح إلى حد كبير . وكان من شأن هذا الفعل ، الكشف عن كتل جبلية من تكوينات صلبة ، لم تستسلم لقوة فعل عوامل

النحت . وأفضت هذه العوامل مرة أخرى ، وهى تباشر فعلها البطئ ، على المدى الچيولوچى ، إلى تكوين وتشكيل مجموعة أحواض على أوسع مدى . وقد أحاطت المرتفعات والكتل الجبلية ، التى كانت تعلو عن مستوى قاع كل حوض من هذه الأحواض ، لكى تصبح فى الغالب أحواضاً مغلقة . وإحتوى كل حوض من هذه الأحواض نظاماً نهرياً خاصاً ، وتصريفاً داخلياً ، فى إطار هذا الإنغلاق .

– وعلى صعيد المسرح الجغرافى على إمتداد هضاب شرق افريقية إنتشرت بعض هذه الأحواض المغلقة . وتمثلت هذه الأحواض ، التى دخلت فى إطار حوض النيل فى زمن جيولوچى لاحق ، فى حوضين وهذان الحوضان ، هما الحوض الذى إحتوى بحيرة فكتوريا ، والحوض الآخر ، الذى إحتوى بحيرة كيوجا . ويلفت النظر تفاوت معدلات النحت والتعميق ، فى كل من هذين الحوضين . وكانت معدلات الحفر والتعميق فى حوض فكتوريا ، أكبر منها فى حوض كبوجا . ولا يفسر هذا التفاوت فى النحت والتعميق ، شيئًا غير تباين درجة تماسك التكوينات السطحية ، على إمتداد هذا المسرح الجغرافى

– وعلى صعيد المسرح الجرافى ، على إمتداد سطح إفريقية السفلى الرتيب ، إنتشرت أيضاً بعض الأحواض المغلقة . وتمثلت هذه الأحواض ، التى دخلت فى إطار حوض النيل ، فى زمن چيولوچى لاحق ، فى ثلاثة أحواض . وهذه الأحواض ، هى حوض الغزال ، وحوض السودان الأوسط ، وحوض النوبة . وكانت هذه الأحواض المغلقة مصفوفة على التوالى من الجنوب إلى الشمال ، على صعيد السطح الذى كان ينحدر إنحداراً بطيئًا ، فى إتجاه الشمال . وكانت خطوط تقسيم المياه ، التى تفصل بين هذه الأحواض ، واضحة المعالم تماماً . وكم من كتل جبلية بارزة ، من تكوينات صخرية صلبة ، كشفت عنها عوامل النحت . وكانت هذه الكتل الجبلية تعلو ، وكأنها تمتطى ظهر خطوط تقسيم المياه .


البحر المتوسط
البحر الأحمر
حوض النوبة
حوض السودان الأوسط
حوض تانا
حوض الغزال
حوض فكتوريا

– وبصرف النظر عن مساحة كل حوض ، وعن شكل كل حوض ، وعن عمق كل حوض ، وعن مبلغ رتابة سطح قاع كل حوض ، من هذه الأحواض ، كانت كل هذه الأحواض الخمسة ، التى تواصلت فى عصر چيولوچى لاحق ، تواصلاً أدخلها فى إطار حوض النيل ، أحواضًا مغلقة . وأنظر إلى الخريطة ، وتبين كيف كانت مرتفعات خطوط تقسيم المياه ، تفصل فصلاً تامًا بين هذه الأحواض المغلقة ، على صعيد أفريقية العليا مرة ، وعلى صعيد أفريقية السفلى مرة أخرى .

– وفى إطار كل حوض من مجموعة هذه الأحواض المغلقة ، كان ثمة نظام نهرى خاص ومتفرد . وكان التصريف النهرى إنذاك تصريفًا داخلية فى هذه الأحواض المغلقة . وصحيح أن معالم كل نظام نهرى من هذه النظم فى كل حوض مغلق ، قد إندثر وغابت بموجب المتغيرات والدواعى التى أدت تواصل هذه الأحواض ، وتكوين مجرى النيل . ولكن الصحيح أيضًا أن بعض أجزاء مجارى هذه النظم التى إندثرت ، قد تداخلت من خلال الاسر النهرى فى مجال تكوين مجرى النيل .

– وجاوب كل نظام نهرى من هذه النظم الخاصة البائدة ، ملامح شكل السطح ، وطبيعة الإنحدار على سطح قاع الحوض ، فيما بين مرتفعات خط تقسيم المياه ، وقاع الحوض الرتيب . كما جاوب كل نظام نهرى من هذه النهرية البائدة فى كل حوض على إنفراد ، خواص ومواصفات وأحوال المناخ وتساقط المطر السائد . وفى ظل التغير المناخى الذى تأتى من عصر چيولوچى إلى عصر چيولوچى آخر ، وإحتمال سقوط المطر فى عصر ، وإحتمال غياب المطر فى عصر آخر ، تأثرت أوضاع وخواص تصريف هذه النظم النهرية . بمعنى أن كانت هذه النظم النهرية تنتعش فى العصر الچيولوچى الذى شهد المطر ، وكانت تضمحل أو تغيب تمامًا وتندثر فى العصر الچيولوچى ، الذى شهد الجفاف . وفى إطار حوض النيل بعد أن تداخلت فيه هذه الأحواض ، وتكاد تحدث الوديان الجافة هنا أو هناك ، عن بقايا ومخلفات هـذه النظم النهرية البائدة .

– وإضافة إلى كل هذه الأحواض المغلقة المصفوفة من الجنوب إلى الشمال ، وهى محصلة النحت ، تأتى على المسرح الجغرافى على صعيد

الهضبة الحبشية ، فى إطار إفريقية العليا ، تكوين حوض كبير . وهذا الحوض هو محصلة الإرساب . وكانت قوة فعل الحركات الباطنية المفاجئة ، هى التى أفضت إلى تراكم رواسب اللافا الغطائية على السطح ، من وراء التجهز الأولى ، لهذا الحوض الكبير المغلق . ثم كانت قوة فعل العوامل الظاهرية ، على صعيد الهضبة الحبشية ، من وراء تعميق وتشكيل هذا الحوض . بل قل إنها بموجب النحت ، توسعت منطقة تجميع هذا الحوض . وكان تساقط المطر ، فى عصر الميوسين ، الذى شهد العصر المطير البونتى ، وفى العصر المطير الأول البلايستوسين الأدنى ، من وراء تجمع وتراكم الماء فى بحيرة شغلت هذا الحوض ، إلى عصر البلاتستوسين الأوسط .

– وصحيح إن معالم هذا الحوض الكبير المغلق ، والبحيرة التى كان قد إحتواها ، على صعيد الهضبة الحبشية ، قد إندثرت . ولكن الصحيح أن الدراسة الميدانية ، التى باشرها الباحث أريك نلسن ، قد كشفت عن بقايا الرواسب البحيرية ، على أطراف هذا الحوض ، فى أكثر من موضع . وقد وجد هذه الرواسب البحيرية ، التى ترجع إلى عصر البلايستوسن الأدنى ، على مناسيب متفاوتة . وكانت مناسيب هذه الرواسب البحيرية على مناسيب مرتفعة على الجانب الشرقى من الحوض ، وهى أعلى من مناسيب نفس الرواسب على الجانب الغربى .

– هذا ولا يفسر هذا التفاوت الكبير ، بين مناسيب الرواسب البحيرية ، على الجانبين الشرقى والغربى ، غير إستشعار قوة فعل حركات باطنية على المستوى الرأسى ، قد تأتت فى البلايستوسن الأوسط . وقد أرتفعت بموجب هذه الحركات الباطنية ، الحافة الشرقية للهضبة التى تطل على اخدود البحر الأحمر . وأفضى هذا الإرتفاع إلى هذا التغير فى مناسيب الرواسب ، بشكل ملموس . وفى ظل هذا التغير ، تأتى تفريغ البحيرة من الماء . وقد مهد هذا الإنحدار ، الذى إستجد آنذاك . بموجب إرتفاع حافة الهضبة الحبشية الشرقية ، وتفريغ بحيرة يايا من المياه ، لتكوين مجرى النيل الأزرق بصفة خاصة ، والروافد الحبشية الأخرى بصفة عامة .

– ويتمم رصد قوة فعل العوامل الظاهرية ، ومتابعة دور النحت تارة ، ودور الارساب تارة أخرى ومتغيراتها على المسرح الجغرافى ، ما كان من أمر النحت

التراجعى ، الذى أفضى إلى الاسر النهرى . وكان هذا النحت التراجعى فى المجارى النهرية ، ضمن النظم النهرية البائدة فى الأحواض المغلقة ، قبل تكوين مجرى نهر النيل . ومفهوم أن قوة فعل هذا النحت التراجعى ، وهو صاعد فى إتجاه الاحباس العليا (المنابع) ، فى مجريين فى إتجاهين معاكسين ، هو الذى أفضى إلى إختراق خط تقسيم المياه بين حوضين مغلقين . ويتسبب هذا الإختراق فى مباشرة الاسر النهرى . وهناك أكثر من موقع ، شهد هذا الاسر النهرى .

– وعلى صعيد الهضبة الإستوائية ، هناك موضعان شهدا هذا الاسر النهرى . وتبدو ملامح هذا الاسر النهرى مرة على هذا المسرح الجغرافى ، فى مجال تكوين نهر كاجيرا ، أكبر وأهم روافد بحيرة فكتوريا . وتبدو ملامح هذا الاسر النهرى مرة أخرى ، على المسرح الجغرافى فى قلب الاخدود الغربى . وقد شهد خط تقسيم المياة بين الحوض الذى كان قد إحتوى بحيرة أدوارد فى جانب ، والحوض الأخر الذى كان قد إحتوى بحيرة البرت ، وكليهما فى قاع الاخدود الغربى ، النحت التراجعى فى نهرين إتجه أحدهما إلى بحيرة إدوراد ، والآخر إلى بحيرة البرت ، وهذا النحت التراجعى هو الذى أفضى إلى إختراق خط تقسيم ، لكى يكون نهر سمليكى ، وأدى إلى وصل بين بحيرة إدوارد وبحيرة البرت .

– وفضلاً عن مظاهر هذا الاسر النهرى ، على صعيد الهضبة الإستوائية ، هناك موضع ثالث لهذا الاسر النهرى . وكان هذا الاسر النهرى ، هو الأهم بصفة خاصة فى مجال تكوين مجرى النيل . وقد تأتى هذا الاسر النهرى فى الموضع الذى شهد النحت التراجعى ، فى مجريين ، أحدهما ينساب فى إتجاه الشمال فى حوض السودان الأوسط ، والآخر ينساب فى إتجاه الجنوب فى حوض الغزال . وقد أفضى النحت التراجعى فى هذين المجريين ، إلى إختراق خط تقسيم المياه بين الحوضين المغلقين . وأتاح هذا الاسر النهرى تواصل الجريان فى بحر الجبل مع الجريان فى النيل الأبيض . وقل إن الجريان فى القطاع الضحل فيما يعرف بمخاضة أبو زيد ، وتكوينات القاع فى موقع هذه المخاضة ، هو الذى يتحدث عن مكان إختراق خط تقسيم المياه ، وحدوث هذا الاسر النهرى .

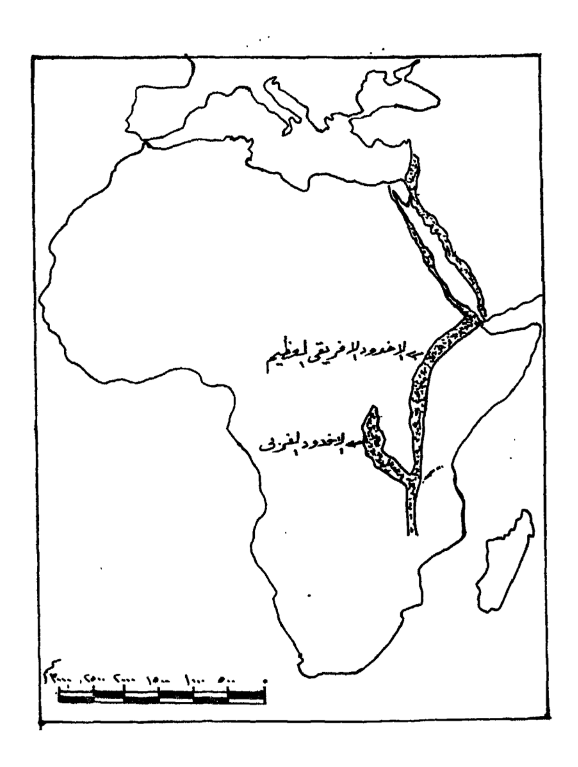
– والظاهرة الطبيعية الثانية ، التى تأتت لكى تشارك بشكل مباشر أو

بشكل غـير مباشر ، فى التجهيز لتكوين مجرى النيل وتواصل أجزاء هذا المجرى وروافده ، هى التى تمثلت فى نشاط قوة فعل الحركات الباطنية .

وكان فعل هذه الحركات الباطنية وهى بطيئة أحياناً ، أو وهى مفاجئة أحياناً أخرى ، يتأتى فى إطـار قشرة الأرض وتركيبها الصخـرى . وهذه الحركات الباطنية ، هى التى كان من شأنها أن تفضى إلى تكوين تضاريس سطح الأرض مرة ، وإلى تشكيل هذا السطح مرة أخرى ، على المدى الچيولوچى الطويل . وهى التى كان من شأنها أيضاً ، أن تفضى إلى حالة من عدم الإستقرار فى قشرة الأرض بصفة عامة . وعدم الإستقرار يعنى بالضرورة الضعف فى تركيب قشرة الأرض ، وتوقع تكرار قوة فعل الحركات الباطنية وحدوثها ، من حين إلى حين آخر ، على المدى الچيولوچى الطويل . بل قل لا شئ فى وسعه الجزم بالتحول من حالة عدم الإستقرار إلى حالة الإستقرار ، فى مواضع الضعف القشرى .

– وينبغى أن ندرك جيداً ، كيف كانت هذه الحركات الباطنية ، وهى تباشر فعلها المباشر فى قشرة الأرض ، على صعيد المسرح الجغرافى خارج إطار حوض النيل . بمعنى أن الفعل المباشر كان على أطراف معظم مساحات الأرض التى شهدت تكوين مجرى النيل الرئيسى وروافده بصفة عامة . وقد بدأ نشاط هذه الحركات الباطنية ، إعتباراً من عصر الكريتاس آخر عصور الزمن الچيولوچى الثانى . وفى إطار الضعف فى قشرة الأرض ، إستمر وتواصل عدم الإستقرار ، على المدى الچيولوچى أثناء عصور الزمن الچيولوچى الثالث ، وحتى الوقت الحاضر .

– وفى صحبة نشاط قوة فعل هذه الحركات الباطنية المتواصل ، تأتت ردود الأفعال ، لكى تؤثر بشكل غير مباشر على خواص وملامح وأوضاع تضاريس سطح الأرض ، فى إطار حوض النيل . بمعنى حتمية أن ندرك فى نهاية المطاف ، كيف تأتى فى تزامن بديع ، إشتراك نشاط قوة فعل الحركات الباطنية خارج حدود حوض النيل ، مع نشاط قوة فعل ردود أفعالها ، داخل حدود حوض النيل ، فى تكوين وتواصـل أجزاء مجـرى النيل وروافده العظمى ، واباحة إنتظام الجريان النهرى الرتيب من المنابع الإستوائية والمنابع الحبشية ، فى إتجاه الشمال وصولاً إلى مصر .



الاخـــدود

– هذا ، ولا شئ أفضت إليه أنشطة الحركات الباطنية ، على صعيد الجانب الشرقى من أفريقية العليا ، بداية من عصر الكريتاس ، أهم من تكوين ظاهرة الأخدود . وتلك هى البداية التى أشاعت ظاهرة الضعف القشرى ، وعدم الإستقرار بصفة عامة ، على أطراف حدود حوض النيل الشرقية والجنوبية . وكان من وارء الإخدود وتداعياته ، فى ظل إستمرار عدم الإستقرار ، توقع ردود أفعال الحركات الباطنية ، مشواراً مستمراً وطويلاً ، على المدى الچيولوچى ، الذى شهدته كل عصور الزمن الچيولوچى الثالث . وما زال هذا الضعف القشرى مستمراً إلى الكون . وما زالت هذه الحركات الباطنية مرتقبة .

– وتبدأ ملامح أو معالم هذا التكوين الإخدودى من خط عرض على أطراف دولة مالاوى . ويمتد هذا التكوين الإخدودى ، على المحور الطولى ، فى إتجاه الشمالى بصفة عامة . ويبدو الإخدود فى إطار التضاريس السائدة أو قل الوادى الإخدودى ، وهو واضح المعالم بصفة عامة ، حتى لو تفاوت الفاصل الرأسى ، بين إرتفاع الحافتين على الجانبين فى جانب ، وإنخفاض القاع بينهما فى جانب آخر . وفى عمق قاع هذا الوادى الإخدودى ، الكائن بين حافتيه الشرقية والغربية ، تكونت بحيرة قياسا فى قلب دولة مالاوى . بمعنى أن هذه البحيرة إخدودية النشأة ، وهى تشغل الهبوط الرأسى الغائر فى قاع الوادى الإخدودى .

– وفى شمال بحيرة نياسا ، تشتد وتتعاظم مظاهر وتداعيات قوة فعل الحركات الباطنية . بل قل يتعاظم الضعف القشرى وعدم الإستقرار ، وتتوالى تداعياته . وقد أفضى تعاظم قوة فعل الحركات الباطنية ، وشيوع عدم الإستقرار ، إلى نشأة ثلاثة أفرع للإخدود أو للوادى الإخدودى . وتمتد هذه الأفرع أو قل تفترق على ثلاثة محاور . ويمضى كل فرع من هذه الفروع فى مسار مستقل خاص . وتتمثل هذه الأودية الإخدودية الثلاثة فى ،

أ – وادى إخدودى قصير :

يمضى هذا الوادى الإخدودى القصير ، وهو متواضع إلى حد كبير ، فى إتجاه الشمال الشرقى ، وصولاً إلى الساحل الافريقى على المحيط الهندى . ويبدو هذا الوادى الاخدودى ضحلاً . ولا يتجاوز الفاصل الرأسى بين الحافتين

والقاع الهابط بينهما ، بضعة أمتار قليلة . وتكاد مع مرور الوقت على المدى الچيولوچى بداية من الزمن الچيلولوچى الثالث ، أن تندثر معالمة . ويكون فعل العوامل الظاهرية السائدة ، من وراء غياب ملامح هذا الوادى الإخدودى . بمعنى أن قوة فعل الحركات الباطنية على إمتداد هذا المحور ، كانت متواضعة إلى حد كبيراً . وفى وسعنا بالفعل أن نسقط هذا الوادى الاخدودى تماماً من حسابنا . ذلك أن لا علاقة مباشرة أو غير مباشرة ، بين الضعف القشرى فى هذا الوادى الإخدودى الضحل فى جانب ، وردود أفعال الحركات الباطنية فى جانب آخر ، وهى التى تأتى تأثيرها غير المباشر على تكوين مجرى النيل وإنسياب الجريان فيه .

ب- وادى إخدودى على الصعيد المحلى .

ويكون هذا الوادى الإخدودى ، فى إطار محلى ، على صعيد هضاب إفريقية العليا . وهذا هو الوادى الاخدودى الذى يعرف بالاخدود الغربى . ويلتف هذا الوادى الإخدودى الغربى ، فى شكل قوس كبير ، حول الهضبة الإستوائية . ويبدو تقعير هذا القوس الكبير فى إتجاه الشرق ، وهو يحتضن أو قل وهو يطوق الهضبة الإستوائية . ويكون ظهر هذا القوس الكبير المحدب فى إتجاه الغرب ، وهو يمثل خط تقسيم المياه واضح المعالم ، بين حوض الكنغو وحوض النيل ، فى الهضبة الإستوائية .

وتبدو معالم هذا الوادى الاخدودى ، واضحة تمامًا . ويكون الفاصل الرأسى بين الحافتين المرتفعتين فى جانب ، والقاع الهابط فيما بينهما كبيراً . وفى أعماق هذا القاع ، أغواراً أكثر عمقًا . وقد إحتوت هذه الأغوار المياه ، وإتخذت شكل البحيرات الإخدودية الطولية العميقة وتتمثل هذه البحيرات الإخدودية النشأة من الجنوب إلى الشمال فى بحيرة تنجانيقا وبحيرة كيفو ، وبحيرة إدوارد ، وبحيرة البرت . ويوحى ذلك التوزيع الجغرافى لهذه البحيرات فى قاع الإخدود الغربى ، بمبلغ قوة فعل الحركات الباطنية ، وهى التى كانت قد أفضت إلى تكوين هذه الأغوار العميقة . كما يوحى ذلك مرة أخرى بهيمنة حالة عدم الإستقرار والضعف القشرى ، على أوسع مدى .

-وكان عدم الإستقرار والضعف القشرى فى بنية هذا الوادى الإخدودى، من وراء نشاط بركانى فى القاع . وأسفر هذا النشاط البركانى عن نشأة

كتلة جبل مفبيرو البركانية . وكان من شأن هذه الكتلة الجبلية البركانية النشأة ، الفصل التام بين قطاع من الإخدود الغربى ، دخل فى إطار حوض نهر الكنغو فى جانب ، وقطاع آخر دخل فى إطار حوض النيل فى جانب آخر . بمعنى أن إتخذت كتلة جبل مفمبيرو شكل ومواصفات خط تقسيم المياه ، بين بحيرة كيفو وبحيرة إدوارد .

– وأصبح من شأن القطاع الشمالى من الإخدودى الغربى ، الذى دخل فى إطار حوض النيل ، أن يضم بحيرتى إدوارد والبرت . ويصل نهر سمليكى وصلاً مباشراً بين هاتين البحيرتين . وكانت نشأة نهر سمليكى قد تأتت – كما ذكرنا من قبل – بموجب الاسر النهرى بين رافدين . وكان أحد هذان الرافدان ، يصيب فى بحيرة البرت ، وهو يجرى من الشمال إلى الجنوب ، وكان الرافد الآخر ، يصب فى بحيرة إدوارد ، وهو يجرى من الجنوب إلى الشمال . وإنضمام هذا القطاع من الاخدود ، والبحيرات فى قاعة إلى القطاع الذى إحتوى بحيرة فكتوريا وبحيرة كبوجا ، هو الذى إستوجب تسمين هذا القطاع من حوض النيل ، هضبة البحيرات .

جـ– وادى اخدودى على الصعيد الإقليمى

يقع إمتداد هذا الوادى الاخدودى العام فى إتجاه الشمالى . وهو محصور بين الإخدود الشرقى فاقد المعالم فى جانب ، والإخدود الغربى واضح المعالم فى جانب آخر . وهذا هو الإخدود الافريقى العظيم . ويواصل هذا الاخدود العظيم الإمتداد فى إتجاه الشمال ، حتى ينتهى فى وادى البقاع على الصعيد اللبنانى . ويبلغ طول هذا الاخدود الافريقى العظيم ، حوالى سدس طول محيط الأرض بصفة عامة . وفى القطاع الأوسط من هذا الاخدود الافريقى العظيم ، نتبين كيف أسفر تكوين هذا الإخدود ، إلى الفصل التام بين كتلة الدرع العربى فى الشرق على الصعيد الآسيوى ، وكتلة النوبة فى الغرب على الصعيد الأفريقى .

ولا تناقض أبداً بين إستمرار وحدة إمتداد هذا الاخدود أو الوادى الاخدودى الطولى من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال فى جانب ، وتفاوت العمق أو الفاصل الرأسى بين الحافتين المرتفعتين ، والقاع الهابط فى الوادى الاخدودى فى جانب آخر . ويكون هذا التفاوت دليلاً على مبلغ تفاوت قوة

فعل الحركات الباطنية التى أفضت إلى هذا التكوين الاخدودى . وهناك من عتقد فى أن هذا التكوين الاخدودى ، محصلة أكثر من حركة باطنية . وأنها كانت غيرمتزامنة ، وغير متماثلة فى قوة الفعل المباشر .

ويخترق هذا الوادى الاخدودى ، هضاب شرق أفريقية ، فى كل من تنزانيا وكينيا ، إختراقًا مستمراً . ويشق هذا الإختراق الهضاب شقًا طويلاً . فى إتجاه الشمال . ويحتوى هذا القطاع من الوادى الاخدودى الضحل ، بحيرة رودلف ، التى تشغل أكثر الاجزاء عمقًا . ويواصل إمتداد هذا الوادى الاخدودى ، لكى يخترق الهضبة الحبشية ، على محور عام من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى . ويكون العمق فى هذا القطاع من الوادى الاخدودى على الصعيد الحبشى متواضعًا ، حيث لا ترتفع الحافتان عن منسوب القاع ، سوى عشرات الأمتار .

وعند نهاية هذا القطاع من الوادى الاخدودى فى الهضبة الحبشية ، يتغير الإتجاه تغيراً كبيراً . ويصبح إمتداد الوادى الاخدودى فى إتجاه عام صوب الشمال الغربى . ومع هذا التغير فى الإتجاه ، يتخذ الوادى الاخدودى ، شكلاً يكون فيه الفاصل الرأسى ، بين الحافتين المرتفعتين ، والقاع الغائر كبيراً . ويشغل البحر الأحمر هذا القطاع العميق ، من الوادى الاخدودى . ويتمم إمتداده الطولى الشمالى خليج العقبة . وهذا هو أكثر أجزاء الاخدود تعرضًا لقوة فعل الحركات الباطنية ، بموجب عدم الإستقرار . وردود أفعال هذه الحركات الباطنية ، هى التى كانت تؤثر بشكل غير مباشر على تواصل أجزاء مجرى النيل .

ويمتد القطاع الأخير من هذا الوادى الاخدودى ، على صعيد أرض الشام . وهكذا يتجاوز هذا الإمتداد الطولى فى إتجاه الشمال ، الصعيد الافريقى ، ويمتد على الصعيد الاسيوى . ويبدو هذا القطاع ، الذى يشمل وادى عربة ، وادى الاردن ، ووادى البقاع ، ضحلاً بصفة عامة . ويكون الإستثناء فى الغور العميق الذى يحتوى البحر الميت ، والغور الضحل الذى يحتوى بحيرة طبرية .

– وتكون الاخدود بصفة عامة ، والاخدود الافريقى العظيم بصفة خاصة ، وإمتداده الطولى ، يعنى بالضرورة ، ضعفًا فى قشرة الارض . ويفضى

هذا الضعف القشرى ، إلى حالة عدم الإستقرار بصفة عامة . وحالة عدم الإستقرار ، تفضى إلى تكرار ، أو إلى توالى ، أو توقع سيناريوهات الحركات الباطـنية البطيئة وتدعـياتها أحيانًا ، وسيناريوهات الحركات الباطنية المفاجئة أحيانًا أخرى ، على المدى الجيولوجى الطويل . وتتنوع تداعيات هذه الحركات الباطنيـة ، وهى تعلن عن معنى ومغزى عدم الإستقـرار ، فى إطار الوادى الاخدودى . كما تتنوع تداعيات ردود أفعال الحركات الباطنية ، وهى التى كانت تؤثر على تضاريس سطح الارض الذى يجرى عليه النيل .

– هذا ، ولا يخضع حساب الفاصل الزمنى على المدى الجيولوجى ، لتكرار هذه السيناريوهات لاى من المعايير أو الضوابط ، وهى مرتقبة أو متوقعة من حين إلى حين آخر . وقل لا يتوقف أو يكف تعدد هذه السيناريوهات ، وهى تتوالى ، إلا بعد أن يتأتى الإستقرار الفعلى ، ويغيب الضعف على صعيد قشرة الأرض . بل قل أن الوضع السائد ، على إمتداد الاخدود الافريقى العظيم فى الوقـت الحـاضر ، ينبئ بإستمرار حالة عدم الإستقرار وإستمرار الضعف القشرى .

– وعلى إمتداد هذا الاخدود الافريقى العظيم ، وهو يحف ويوازى حوض النيل ، وإمتداده الطولى من الجنوب إلى الشمـال مرة ، وعلى إمتداد الاخدود الغربى الذى يدخل جزء منه فى إطار حوض النيل ، ينبغى أن ندرك مبلغ تداعيات الضعف فى قشرة الأرض وعدم الإستقرار ، على المدى الجيولوجى إعتبارًا من عصر الكرتياسى .

كما ينبغى نتبين أيضًا ، مبلغ التفاوت الكبير ، بين الفاصل الرأسى، الذى يحدد العمق الفعلى بين الحافتين المرتفعين ، وأحدهما تمثل خط تقسيم المياه بين حوض النيل فى جانب ، وحوض البحر الأحمر فى جانب آخر ، وقاع الـوادى الاخـدودى الغائر الذى يشغله البحر الأحمر . ويقـدم هذا البيان الواضح ، التقديم المناسب من أجل إستيعاب تعدد سيناريوهات قوة فعل الحركات الباطنية ، وهى تتكرر فى قـاع الوادى الاخدودى ، وتحرى تـداعياتها ، ومبلغ تأثير ردود أفعالها غير المباشرة ، على صعيد المسرح الجغرافى لحوض النيل ، وعلى تكوين مجـرى النهر وإنسياب جـريان النيـل بصفة عامة .

– ويوحى هذا التفاوت الكبير الواضح ، بين ملامح ومواصفات أجزاء الاخدود الافريقى العظيم ، بمبلغ التفاوت أو التباين ، بين معدلات حالات عدم الإستقرار ، في كل جزء من هذه الاجزاء . كما يوحى هذا التفاوت الكبير الواضح مرة أخرى ، بل قل يؤكد أن تكوين الاخدود الأفريقى العظم فى إمـتداده الطـولى الكبير ، قد تأتى بموجب قوة فعل أكثر من حـركة باطنية ، سواء كانت متزامنة أو غير متزامنة . وفى ظل هذا التفاوت الواضح ، فى شأن حساب قوة فعل الحركات الباطنين ، وفى مداها ، كان التفاوت الكبير ، بين أعماق ومبلغ الهبوط فى القاع ، وإرتفاع الحافتين ، ومبلغ العلو، على الجانبين ، فى أجزاء هذا الوادى الاخدودى ، فى قطاعاته المتوالية على الإمتداد الطولى ، فى إتجاه الشمـال . وفى ظل إستيعاب هذا التفاوت فى قوة فعل الحركات الباطنية ، وفى مداها ، وفى تحرى تداعياتها ، ينبغى أن ندرك أيضاً ، مبلغ التفاوت الكبير بين ردود أفعال حركات باطنية ، أثرت فى تكوين مجرى النيل وإنسياب الجريان فيه أحياناً ، وردود أفعال حركات باطنية لم تؤثر أو كانت محدودة الأثر أحياناً أخرى .

– وهناك إعتقاد سائد بين معظم الباحثين ، يتحدث عن حركات باطنية متعددة ، غير متزامنة ، وغير متماثلة فى قوة الفعل . وكانت هذه الحركات الباطنية تتوالى على المدى الچيولوچى من عصر إلى عصر آخر ، وهى من وراء تكوين هذا الوادى الاخدودى ، وإمتداده الطولى الكبير ، من الجنوب إلى الشمال . وأنظر وتمعن فى مبلغ التفاوت بين عمق الوادى الاخدودى على صعيد هضاب شرق أفريقية ، وعلى صعيد بلاد الشام ، وهو ضحل لا يتجاوز عشرات الأمتار فى جانب ، وعمق الوادى الاخدودى بين اليابس الافريقى واليابس الاسيوى وهو غائر وعميق ، ويحتوى البحر الأحمر فى جانب آخر .

– وفى القطاع غير العميق أو الضحل من الوادى الاخدودى ، سواء كان على صعيد هضاب شرق أفريقية أو على صعيد بلاد الشام ، كانت الحركات الباطنية متواضعة نسبياً . وكانت ردود أفعالها بالضرورة محدودة الأثر . أما فى القـطاع العميق الغائر من الوادى الاخدودى ، كانت الحركات الباطنية أكبر قوة ، وأشد فعلاً . ويكفى أن نتبين مبلغ نشاط قوة فعل الحركات الباطنية المفاجئة ، التى أفضت إلى تراكم اللافة الغطائية ، على صعيد الهضبة الحبشية .

كما نتبين أيضاً مبلغ نشاط قوة فعل الحركات الباطنية البطيئة ، التى رفعت الحافة الحبشية إلى أعلى مئات الأمتار فى البلايستوسين الأوسط .

– وأصحاب هذا الإعتقاد ، يتصورون أن الاخدود الافريقى العظيم ، يمثل مجموعة أخاديد متوالية ، وليس أخدوداً واحداً . وتبدو هذه الاخاديد فى نظرهم ، وهى مصفوفة ومتواصلة تلاحق بعضها بعضاً ، على الإمتداد الطولى من الجنوب إلى الشمال . وتبدو عندئذ كأنها أخدود واحد . بمعنى أن كل أخدود من هذه الأخاديد المتلاحقة والمتلاحمة ، كان محصلة قوة فعل حركات باطنية موضعية وخاصة ، فى كل قطاع من قطاعات الأخدود الافريقى العظيم .. وكانت هذه الحركات الباطنية الموضعية ، من وراء حالة الضعف القشرى وعدم الإستقرار فى كل قطاع من القطاعات ، أو قل فى كل أخدود من مجموعة الأخاديد المصفوفة على التوالى ، من الجنوب إلى الشمال . وربما كانت هذا الحركات الباطنية المستقلة ، غير متزامنة أحياناً ، وغير متماثلة فى قوة الفعل المباشر أحياناً أخرى .

– وبصرف النظر عن هذه النظريات والتفسيرات المتباينة ، ومن غير التمادى أو الأمعان فى الجدل ، نذكر أن حالة عدم الإستقرار والضعف القشرى ، قد تأتت إعتباراً من عصر الكريتاس . وتستمر تداعيات حالة عدم الإستقرار ، فى كل عصر من عصور الزمن الچيولوچى الثالث . ومحصلة كل تداعى من هذه التداعيات كان متوافقاً مع السياريو ، الذى جاوب قوة فعل الحركة الباطنية ، فى مكانها الجغرافى . وقل بعد ذلك ، إن هذا الضعف القشرى ، وحالة عدم الإستقرار ، مازالت مستمرة فى الوقت الحاضر . بل قل تظل الحركات الباطنية متوقعة إلى الآن .

– وفى إطار الرؤية الجغرافية للأخدود الافريقى العظيم ، وتحرى التاريخ الچيولوچى له ، على المدى الطويل ، لا ينبغى أن نهتم بشئ غير تقصى العلاقة بين :

أ– قوة فعل الحركات الباطنية ، وهى التى تتوالى وتكرر من حين إلى حين آخر ، وتحرى تاريخها الچيولوچى .

ب– قوة فعل ردود أفعال هذه الحركات الباطنية ، ومبلغ تأثيرها المباشر على تكوين مجرى النيل ، وإنفتاح وتواصل الأحواض التى كانت مغلقة ،

وإنسياب الجريان فى المجرى .

– ورصد هذه العلاقة ، بين قوة فعل الحركات الباطنية وتداعياتها فى الاخدود ، فى جانب ، وقوة فعل ردود أفعالها على صعيد حوض النيل فى جانب آخر ، وإستيعابها جغرافياً ، ينبغى أن يفضى إلى ذكر ملاحظتين هاتين . وتتحدث هاتان الملاحظتان الجوهريتان موضوعياً عن :

١ – توالى حدوث حركات باطنيـة بطيئـة أحيانًا ، أو مفاجئة أحيانًا أخرى ، من حين إلى حين آخر ، على المدى الچيولوچى . وقل مازالت هذه الحركات الباطنية متوقعة . وفى وسعنا أن نحس بهذه الحركات الباطنية وردود أفعالها فى الوقت الحاضر .

٢ – توقع حدوث ردود أفعال على صعيد حوض النيل ، يتأتى فى صحبة حركات باطنية متوقعة ، فى إطار الاخدود الافريقى العظيم . وتوقع حدوث ردود الافعال شئ ، وتوقع تداعيات تؤثر على طبيعة الأرض ، أو على المجرى والجريان فى النيل شئ آخر .

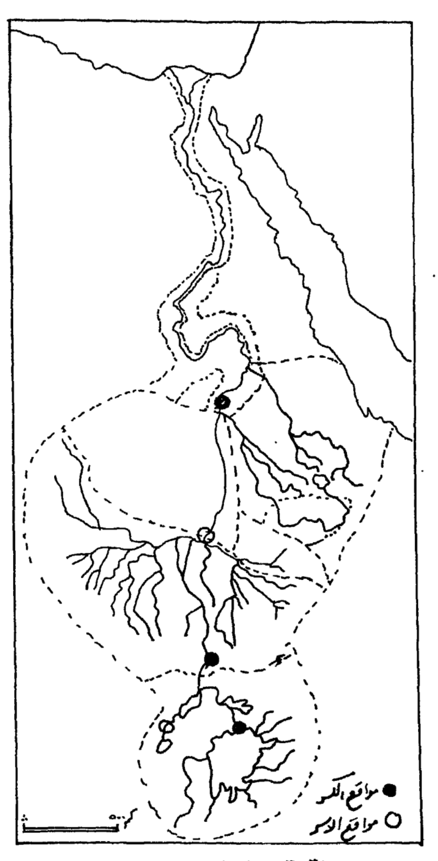
– هذا ، وينبغى أن ندرك كيف تتأتى الحركات الباطنية ، وكيف نرصد ردود أفعالها ، ومع ذلك لا تكاد تؤثر تأثيراً جوهريًا ، على مجرى النيل أوعلى الجريان فيه . بمعنى أن بعض ، وليس كل ردود أفعال الحركات الباطنية ، هى التى تؤثر بشكل واضح وصريح ، فى مجال تحرى أو متابعة التاريخ الچيولوچى، للجريان النيل ، وقد تأتى هذا التأثير بالفعل ، يوم أن أفضى ردود أفعال هذه الحركات الباطنية، إلى التواصل بين الأحواض التى كانت مغلقة . وكان الصدع أو الإنكسار الذى إنتهك تضاريس خط تقسيم المياه بين حوضين ، من وراء تواصل هذه الأحواض المصفوفة من الجنوب إلى الشمال . وأتاح هذا الإنفتاح والتواصل ، الجريان وادخال هذه الأحواض فى إطار حوض النيل .

– ومن بين أهم هذه الحركات الباطنية ، التى كانت تتكرر أو تتعاقب على المدى الطويل ، من عصر چيولوچى إلى عصر چيولوچى آخر ، فى إطار قطاع الاخدود التى يحتوى البحر الأحمر ، نذكر تلك الحركات الباطنية ، التى تأتت فى عصر البلايستوسين الأوسط ، على وجه الخصوص . وقل إن ليس أهم من قوة فعل هذه الحركات الباطنية ، التى كان فى وسع البحث

الچيولوچى الميدانى كشف النقاب عنها ، وتحرى نتائجها وتداعياتها المباشرة وغير المباشرة . وكانت ردود أفعال هذه الحركات الباطنية ، وفى إطار حوض النيل ، من وراء تواصل الأحواض وإنفتاحها ، وبداية مشوار جريان النيل وصولاً إلى مصر ، فى نهاية عصر البلايستوسين الأوسط .

– وفى مجال الكشف عن هذه الحقيقة ، نذكر كيف رصد اريك نلسن الرواسب البحيرية ، فى إطار الحوض المغلق التى كانت تشغله بحيرة يايا ، على صعيد الهضبة الحبشية ، رصداً مباشراً وجيداً . وقد تبين لهذا البـاحث أن هذه الرواسب البحيرية على الجانب الشرقى ، ترتفع عشرات الأمتار ، عن منسوب نفس هذه الرواسب البحرية المناظرة ، على الجانب الغربى للبحيرة . وأفضى ذلك الرصد ، بل قل وثـق هذا الرصـد ، إدراك قوة فعل الحركات الباطنية ، على المنسوب الرأسى ، وكيف رفعت الحافة الشرقية للهضبة الحبشية حوالى ١٨٠٠ متراً عن منسوب سطح الماء فى البحر الأحمر . وفى إطار تحرى عمر التكوينات التى عثر عند هذا المنسوب ، قدر نسلن لهذة الحركات الباطنية وفعلها المباشر على المنسوب الرأسى ،أنها حدثت فى نهاية البلايستوسين الأدنى وبداية عصر البلايستوسين الأوسط .

– وكانت من وراء قوة فعل هذه الحركات الباطنية فى الاخدود الافريقى العظيم على المستوى الرأسى ، تلك الحركة القوية فى نهاية البلايستوسين الأدنى . وقـد أفضــت ردود أفعال هذه الحركة إلى تداعيات فى أكثر من موضع . وقل إن هذه التداعات كانت متزامنة ، على صعيد أطراف حوض النيل فى افريقية العليا مرة ، وعلى صعيد قلب حوض النيل فى افريقية السفلى مرة أخرى . وتزامن هذه التداعيات ، لا يعنى أنها قد تأتت فى يوم وليلة واحدة ، بل قل يعنى أنها قد تأتت فى إطار مساحة زمنية مناسبة .



مواقع تواصل الجريان فى النيل

– وعلى صعيد الهضبة الإستوائية ، أو قل هضبة البحيرات ، أدى رد فعل الحركة الباطنية التى رفعت الحافة الحبشية ، إلى صدع أو إنكسار عند الطرف الشمالى من الحوض الذى كان قد إحتوى بحيرة فكتوريا . وأفضى هذا الصدع إلى تكوين فتحة ريبون . وعبر هذه الفتحة ، أنسياب الماء من بحيـرة فكتوريا . وكون هذا الإنسياب مجرى نيل فكتوريا . وإتخذ الجريان مساره ، وفى صحبته مياه بحيرة كيوجا ، وصولاً إلى حافة الاخدود الغربى ، والسقوط عند شلالات مرتشيزون إلى بحيرة البرت . وقد تزامن هذا الإتصال بموجب الإنكسار ، مع إتصال بحيرة إدوارد مع بحيرة البرت ، بموجب فعل الأسر النهرى ، وتكوين نهر سمليكى ، وبانت الحاجة ملحة ، بحثاً عن مخرج لكى ينساب الجريان من بحيرة البرت فى إتجاه الشمال .

– وفى تزامن بديع جاوب هذه الحاجة ، كان رد الفعل الذى أفضى إلى صدع أو إنكسار ، إنتهك مرتفعات خط تقسيم المياه بين أحواض البحيرات فى الهضبة الإستوائية فى جانب ، وحوض الغزال ، الذى يضم حوض بحر الغزال فى القطاع الغربى ، وحوض البيبور رافد السوباط فى القطاع الشرقى ، وحوض بحر الجبل فى ما بينهما فى القطاع الأوسط ، فى جانب آخر . وتمثل هذا الصدع فى تكوين جنادل فولا . وكانت جنادل فولا ، وكأنها ثغرة عبور وإنسياب الجريان من نيل البرت ، إلى مجرى بحر الجبل . وفى ظل رتابة السطح على المسرح الجغرافى لبحر الجبل ، وفى ظل غياب الحمولة العالقة فى صحبة الجريان من بحيرة البرت ، غابت الجسور التى كان فى وسعها المحافظة على الإيراد الطبيعى ، وتحرى عدم ضياعها فاقداً فى المستنقعات .

– وفى تزامن بديع جاوب هذه الحاجة مرة أخرى ، كان رد الفعل الذى أفضى إلى صدع أو إنكسار ، إنتهك خط تقسيم المياه ، بين حوض السودان الأوسط ، وحوض النوبة . وقد إتخذ هذا الصدع شكل إخدود صغير أو وادى أخـدودى ، بين إنكسارين متوازيين ، على محور طولى من الجنوب إلى الشـمال . بل قل إتخذ هذا الوادى الاخدودى شكل الخانق ، فى موقع جغرافى شمال خط عرض الخرطوم . وكفل خانق سبلوكة إنسياب الجريان فى مجرى النيل ، وهو محصلة إيراد النيل الأبيض من المنـابع الإستوائية ، وإيراد النيـل الازرق من المنابع الحبشية .

– وفى تزامن بديع جاوب هذه الحاجة مرة أخرى ، كان رد الفعل الذى أفضى إلى تغير الإنحدارات على صعيد الهضبة الحبشية . وفى ظل هذا التغير الذى أدى إليه إرتفاع الحافة الشرقية للهضبة الحبشية تدفقت المياه التى كانت فى إطار حوض يايا . وكان هذا التدفق ، من وراء تفريغ بحيرة يايا ، وفى ظل هذا التفريغ ، ومع الإنحدار الذى استجد ، بدا الجريان فى المنابع الحبشية ، والنيل الازرق على وجه الخصوص . بل قل كان إنحدار الهضبة الحبشية فى إتجاه الغرب والشمال الغربى ، من وراء نشأة البارو ، وهـو رافد السوباط الأعظـم ، ونشأة نهر العطبرة .

– وكما تزامنت ردود الأفعال فى هذه المواضع المتباعدة ، لكى تنهى إنغلاق الأحواض ، وتتواصل أجزاء المجرى والروافد ، أفلح الأسر النهرى فى أن يكفل توازى وتزامن فعل النحت التراجعى ، مع الصدوع والإنكسارات . وكان من شأن هذا الاسر النهرى ، على صعيد مرتفعات خط تقسيم المياه ، بين حوض الغـزال فى جانب ، وحوض السودان الأوسط فى جانب ، إنتهاك هذه المرتفعات . وقد أتاح هذا الإنتهـاك الذى أنهى إنغلاق الحوضين ، تواصل الجريان ، من بحر الجبل إلى النيل الأبيض . وتكون صخور قاع النيل الأبيض الصلبة ، فى مخاضة أبو زيد ، شاهداً كاشفًا عن ما كان من أمر هذا الاسر النهرى . وقل كان النحت التراجعى فى مجرى نهرى ضمن النظام النهرى البائد ، فى حوض الغزال وهو مغلق ، والنحت التراجعى فى مجرى نهر آخر ضمن النظام النهرى البائد ، فى حوض السودان الأوسط ، وهو مغلق أيضاً .

– هذا ، وإذا كانت إرادة الله ، الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى ، قد سخرت الطبيعية وكفلت هذا التزامن البديع بين الكسر فى مواضع ، والاسر النهرى فى مواضع أخرى ، لكى تتأتى دواعى التواصل بين الأحواض ، التى إنتهى إنغلاقها ، وإنسياب الجريان عبرها ، فقد كفلت هذه الإرادة الالهية ، تمرير الجريان بعد خانق سبلوكه ، بمعدلات السرعة المناسبة ، فى مجرى النيل النوبى . وكان الهدف المعنى ، أن يكون وصول الجريان النهرى إلى الشمال وصولاً مناسبًا . بمعنى أن يكون هذا الوصول الانسب ، بالكم الأنسب ، والسرعة الأنسب ، وفى صحبته الحمولة العالقة بالكم الأنسب ، والشكل

الأنسب . وكان ذلك هو المطلوب ، من أجل تأمين بناء وتجهيز السهل الفيضى ، وهو على المسرح الجغرافى ، الأنسب لوجود مصر .

– وليس أنسب من طبيعة الجريان فى مجرى النيل النوبى ، لكى يكون لصالح تجهيز المسرح الجغرافى المصرى . وقد إتخذ النيل النوبى شكلاً خاصاً ، يضم ثنيتين كبيرتين . وتبدو الثنية العليا ، وهى محدبة ، وظهرها صوب الشرق . وتبدو الثنية السفلى ، وهى مقعرة وظهرها صوب الغرب . ويعترض إنسياب الجريان فى مجرى النيل النوبى مجموعة جنادل ، تنتشر فى عرض المجرى ، على مسافات مناسبة . وقل إن من شأن هذه الجنادل ، التى تفقد المجرى صلاحية للملاحة أو الابحار ، إختناق الجريان . ويكون هذا الإختناق ، فى المكان المناسب . ذلك أنه يكفل إعادة سرعة الجريان التى تكون قد هدأت وتناقصت ، إلى المعدل الأنسب ، وصولاً إلى المسرح الجغرافى المصرى . بمعنى أن كانت هذه الجنادل ، مسئولة عن ضبط إيقاعات سرعة الجريان ، وتؤمن إستمرار الحمولة العالقة بالماء ، من أجل الوصول الأنسب إلى مجرى النيل على صعيد مصر .

– وصحيح أن شكل مجرى النيل النوبى ، يعنى طول مشوار الجريان ، حيث يتعرض لفاقد كبير ، بموجب التبخر وزيادة معدلاته ، عندما يخيم على الأقليم المناخ الصحراوى الحار الجاف . وصحيح مرة أخرى ، أن إنتشار الجنادل يعوق الملاحة النهرية ، وإنسياب حركة النقل الإقتصادى بأقل التكاليف . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أن طول المشوار ووجود الجنادل وتوزيعها ، كان لصالح الجريان المناسب ، وصولاً إلى مصر ، وفى صحبته الحمولة العالقة ، من أجل بناء السهل الفيضى ، على ضفاف النيل . ذلك أن غياب الرحلة الطويلة ، ومشوار الجريان فى مجرى النيل النوبى ، ووصول الجريان والتدفق السريع بعد إجتياز خانق سبلوكه ، يكون من شأنه معدل سرعة كبيرة ، يتعذر بموجبها الارساب ، وبناء السهل الفيضى والدلتا ، حتى يصبح المسرح الجغرافى المصرى ، فى وضعه الأنسب .

– ومن أجل وصول الجريان بالسرعة الأنسب فى مجرى النيل النوبى ، وفى صحبته الحمولة بالكم الأنسب من الرواسب ، ومن أجل تأمين

الارساب ، ومن حسن توزيع هذه الحمولة العالقة على صعيد السهل الفيضى فى مصر ، كانت الجنادل وتوزيعها الجغرافى الأنسب فى المجرى ، وهى التى تضبط إيقاعات سرعة الجريان ، لحساب هذا الهدف . وقل إن سرعة الجريان التى تتناقص تديجيًا بموجب الجاذبية فى المجرى ، وهو يمضى فى إتجاه الشمال ، كانت تكتسب شيئًا مناسبًا من زيادة السرعة ، بموجب الإختناق عند موضع كل جندل . وتكفل زيادة السرعة عند كل جندل ، محافظة الجريان على الحمولة العالقة الواردة ، مع الجريان الفيضى المتدفق من المنابع الحبشية . وهل هناك أهم من ضبط إيقاعات الجريان فى مجرى النيل النوبى ، وتأمين وصول الحمولة العالقة إلى نيل مصر ، لكى يبدأ من خط عرض أسـوان مشـوار بناء السهل الفيضى ، وإعداد أو تجهيز المسرح الجغرافى المصرى ؟

– وإمعانًا فى المحافظة على الحمولة العالقة بالجريان فى النيل النوبى ، وهى لحساب مصر بصفة خاصة حالت تضاريس السطح ، وهى تشرف بشكل مباشر على المجرى دون الارساب ، وبناء سهل فيضى متصل على ضـفاف النهر . وقد تأتى بعض الارساب فى مساحات محدودة ، إتخذت مواصفات الجيوب السهلية المغلقة . وبموجب التوزيع الجغرافى ، كان من شأن هذه الجيوب السهلية أن إحتوى كل جيب سهلى قبيلة من قبائل النوبة . وحافظ إنغلاق الجيب السهلى على خصوصية كل قبيلةعلى ذاتها . وبموجب هذه الخصوصية تعذر التواصل بين القبائل ، لكى تكون شعبًا متجانسًا . وأصبح النيل النوبى ، وهو فى شكله الأنسب ، مسئولاً عن آداء دوره الوظيفى بأمانة ، لحساب الوصول المناسب إلى نيل مصر فى فجر البلايستوسين الأعلى .

– هذا ، وإذا كان فعل قوى الطبيعة الظاهرة على السطح ، أو الباطن فى قلب قشرة الأرض ، قد أنجزت دورها فى توازى وتوازن وتزامن بديع ، بداية من عصر الكريتاس ، لكى تتواصل أجزاء مجرى النيل وروافده ، حتى وصل إلى مصر فى البلاتستوسين الأعلى ، فعلينا أن نسأل عن فعل قوى الطبيعة ، التى أعدت وجهزت ، من أجل حسن إستقبال جريان النيل ، فى نيل مصر ؟ بمعنى أن نسأل عن ذلك التجهيز الذى كان قد تأتى ، وكأن الطبيعة إنذاك كانت على موعد مع وصول جريان النيل إلى مصر . ومن أجل التماس الإجابة

على هذا الإستفسار ، ينبغى تحرى مشاهد السيناريو الذى يكشف عن مراحل هذا التجهيز . بل قل يجب إستحضار صورة جغرافية ، عن شكل تضاريس السطح مرة ، وعن علاقة هذا السطح بالمسطح المائى ، الذى ينتهى إليه الجريان فى البحر المتوسط .

– وتجسد الصورة الجغرافية المعنية المطلوب إستحضارها ، شكل السطح فيما قبل عصر الميوسين . وفى الإعتقاد الجغرافى ، أن المسرح الجغرافى المصرى إنذاك ، قد شهد نوعين من التغيير ، وهما محصلة فعل قوى الطبيعة ، التى شكلت الواقع الطبيعى .

والنوع الأول من التغيير ، تمثل فى تغير تضاريسى واضح المعالم ، وعلى أوسع مدى . وكان هذا التغير التضاريسى محصلة لتكوين الاخدود الإفريقى العظيم ، وفى إطار القطاع الذى إحتوى البحر الأحمر فى عصر چيولوچى لاحق . وأفضى هذا التغير التضاريسى إلى إرتفاع ووضوح معالم حافة هذا الوادى الاخدودى . وقد إمتدت حصة مصر من هذه الحافة ، على محور طولى ، وكونت تلال البحر الأحمر ، وإتخذت هذه التلال صفة خط تقسيم المياه بين الوادى الاخدودى فى جانب ، وحوض النيل فى جانب آخر .

– **والنوع الثانى من التغيير** ، تمثل فى تغير هيدروجرافى واضح المعالم مرة أخرى . وكان هذا التغير الهيدروجرافى محصلة إرتفاع منسوب الماء فى البحر المتوسط ، وأفضى هذا التغيير الهيدروجرافى ، إلى طغيان ماء البحر ، وتكوين خليج عظم المساحة ، هو الذى شغلته فيما بعد دلتا النيل . ومن هذا الخليج الكبير ، إمتد ذراع من ماء البحر ، على المحور الطولى ، فى إتجاه الجنوب ، وصولاً إلى خط عرض أسوان . وبات هذا الذراع الضحل ، فى مكان الجغرافى ، وهو محصور بين تلال البحر الأحمر فى جانب ، وحافة السطح للهضبة الغربية الرتيبة فى جانب آخر .

– وفى عصر الميوسين ، شهدت الصورة الجغرافية ، على المسرح الجغرافى المصرى ، **النوع الثالث من التغيير** . وتمثل هذا النوع الثالث فى تغير مناخى واضح المعالم . وقد أنهى هذا التغير المناخى الجفاف فى عصر الالوجسين ، لكى يبدأ العصر المطير البونتى فى الميوسين . وسقوط المصر على

الصعيد المحلى المصرى ، وإنسياب الجريان على منحدرات تلال البحر الأحمر ، حمل معه ، بل قل جرف حمولة عالقة خشنة . وكان من شأن هذا الجريان أن يلقى بهذه الحمولة العالقة ، فى ذراع ماء البحر الممتدة على المحور الطولى . بمعنى أن كان فى وسع الجريان على منحدرات تلال البحر الأحمر ، شق المجارى ، التى إتخذت صفة الروافد . وكان ذراع الماء الملح هو مستوى القاعدة الذى تنتهى إليه هذه الروافد . وفى ظل التدفق وسرعة الجريان فى هذه الروافد المحلية القصيرة ، كانت الحمولة العالقة خشنة ، قوامها احجار وحصى وحصباء وقليل من الرمال الخشنة .

– وسجل ارساب هذه الحمولة العالقة ، من هذا المصدر المحلى ، فرشة رسوبية ، فى ذراع ماء البحر . وكان هذا الارساب إنذاك كفيلاً بردم وإخفاء معظم معالم هذا الذراع ، فى كثير من المواضع الضحلة . وقد أحلت هذه الفرشة الرسوبية الخشنة ، على المدى الطويل محل ذراع الماء ، بما يشبه الوادى الصندوقى . وكان هذا الوادى الصندوقى ، كائنًا ومحصوراً بين حافة شوقية مضرسة ووعرة ، وحافة غربية أقل وعورة وتضرسًا . وكان ذلك بالقطع أول مشهد من مشاهد سيناريو التجهيز والإعداد الأولى ، لبناء وتكوين السهل الفيضى ، على صعيد المسرح الجغرافى المصرى . وقد وضع الجفاف فى نهاية عصر الميوسين نهاية لهذا المشهد . بمعنى أن التغير المناخى والتحول من عصر شهد المطر إلى عصر شهد الجفاف ، كان من وراء إنهاء هذا المشهد ، أو هذه المرحلة المبكرة .

– ومع التغير المناخى الذى أنهى الجفاف مرة أخرى فى عصر البلايوسين، شهد عصر البلايستوسين الأدنى ، العصر المطير الأول . ولأن الجريان فى النيل لم يصل إلى مصرفى ذلك العصر ، كان من الطبيعى أن يتكرر نفس السيناريو ، الذى كان قد تأتى فى عصر الميوسين ، دون تغير واضح . وكان من شأن المجارى النهرية ، أو قل الروافد المتعددة ، على منحدرات تلال البحر الأحمر ، التى تنتشر أحواض تجميعها ، على أوسع مدى ، جمع الفائض أو الايراد المائى المحلى ، وفى صحبته حمولة عالقة كبيرة . وكفلت سرعة التدفق ، جرف أكبر حجم من الحمولة العالقة . وهذا الجرف معناه ، تنوع واضح فى مكونات هذه الحمولة العالقة . وكانت الكتل الصخرية ، وهى محصلة فى

عصر الجفاف ، تضيف إلى الحصى و الحصباء مزيداً من الخشونة . وسجل هذا المشهد من السيناريو إضافة مستجدة من هذه الحمولة العالقة إلى الفرشة الرسوبية ، التى كانت قد أرسبت من قبل فى الوادى الصندوقى ، فى عصر الميوسين .

– وصحيح أن مكونات الفرشة الرسوبية ، التى أرسبت على قاع الوادى الصندوقى ، فى عصر البلاتستوسين الأدنى ، لا تختلف كثيراً عن مكونات الفرشة الرسوبية التى كانت قد أرسبت على نفس القاع فى عصر الميوسين وصحيح مرة أخرى أنها من مصدر واحد محلى ، هو منحدرات تلال البحر الأحمر . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو إندثار الذراع البحرية تمامًا . وأصبح سمك هذه الفرشة الرسوبية المزدوجة ، سمكاً مناسباً ، لإستقبال جريان النيل الوارد من الجنوب عبر النيل النوبى فى عصر البلاتستوسين الأعلى ، الذى شهد العصر المطير الثانى . وإشتركت الحمولة العالقة الخشنة من المصدرالمحلى ، مع الحمولة العالقة الناعمة ، فى أرساب ، سجل بداية تكوين السهل الفيضى على ضفاف النيل . وقل إن ورود الجريان فى النيل فى العصر المطير الثانى ، سجل أو أضاف متغير جديد ، هو المتغير الهيدرولوجى .

– وفى تناغم بديع ، يتداخل فعل هذا المتغير الهيدرلوجى ، تداخلاً متوازياً ، مع فعل المتغير المناخى ، والمتغير التضاريسى ، والمتغير الهيدروجرافى ، فى هذه الحالة المستجدة إنذاك . وتمثل هذا التداخل ، فى ارساب نهرى ، جمع بين حمولة عالقة خشنة محلية ، مصدرها الروافد على منحدرات تلال البحر الأحمر ، وحمولة عالقة ناعمة منقولة ، مصدرها الروافد العظمى على الهضبة الحبشية . وقد إستمر أرساب هذه الرواسب المختلطة ، على المدى الطويل أثناء العصر المطير الثانى فى البلايستوسين الأعلى . وفى الوقت الذى شق جريان النيل الوارد من المنابع الحبشية الإستوائية فيه وحدد ملامح المجرى ، كان من شأن الحمولة العالقة الكبيرة أن شرعت فى بناء الجسور .

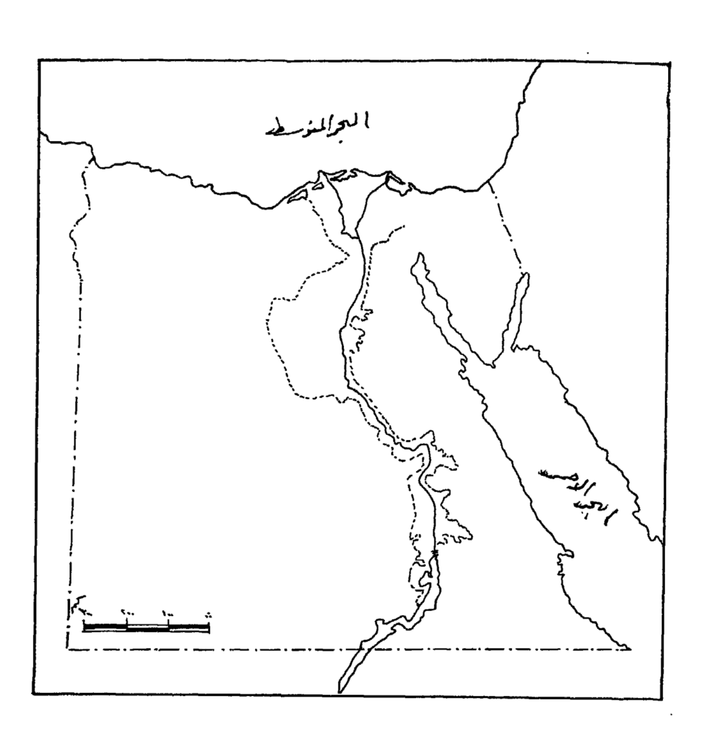
– ومع إنتهاء العصر المطير الثانى ، و قد خيم الجفاف على المسرح الجغرافى المصرى ، تحولت الروافد على منحدرات تلال البحر الأحمر إلى وديان جافة . ونادراً ما تشهد هذه الوديان الجافة سقوط المطر ، وتدفق السيل ،

فى بعض السنوات . ومع ذلك قل إنحسرت قوة فعل المتغير الهيدرولوچى ، وتواضع الايراد المائى الوارد من المنابع الحبشية . ومن ثم تبدأ مرحلة جديدة ، إنفرد فيها جريان النيل ، فى أرساب حمولته العالقة الناعمة . وكانت مشاهد سيناريو تجهيز المسرح الجغرافى على صعيد الوادى ، أسبق من مشاهد سيناريو تجهيز هذا المسرح الجغرافى على صعيد الدلتا .

– وفى ظل كل المتغيرات ، التى كانت سائدة على الساحة ، وضبط إيقاعات تـداعياتها المتنـوعة ، وتحرى مبلغ تأثيرها المبـاشر أحياناً ، وغير المباشر أحياناً أخر ، أسقر مشوار بناء السهل الفيضى فى الوادى ، رغم الإستجابة لدواعى التغير . ومن غير تحرى مشاهد سيناريو هذا البناء الرسوبى ، على ضفاف النيل فى الوادى ، تعاقبت دورات الأرساب ، ودورات النحت ، وهى تجاوب فعل أو تأثير المتغيرات ، التى كانت تتغير من مرحلة إلى مرحلة أخرى . وهكذا واصل جريان النيل فى ظل تعاقبت دورات الارساب ودورات النحت ، بناء السـهل الفيضى ، أو تجـهيـز المسرح الجغرافى المصرى ، على المدى الچيولوچى .

– هذا ، وقد شهد العصر الحجرى الحديث ، بداية أخر دورة أرساب . ومن غير متابعة المدرجات النهرية على جانبى الوادى ، وهى تعلن عن تعاقب دورات الارساب ودورات النحت ، نذكر كيف أتمت دورة الارساب فى العصر الحجرى الحديث بناء السهل الفيضى ، على الصورة الجغرافية الأنسب إنذاك لوجود حركة الحياة ومباشرة الإستقرار ، أو قل وجود مصر . ومع ذلك استمر مشوار بناء تكوين الدلتا ، وترسيم مجارى فروع النيل ، على صعيد الدلتا ، إلى العصور التاريخية . وعلى عهد البطالمة والرومان كانت سبعة فروع للنيل ، وهى تصل إلى مستوى القاعدة .

– وعلى صعيد هذا المسرح الجغرافى المصرى فى الوادى على ضفاف النيل ، والذى شهد وجود مصر العريق فى عصر ما قبل التاريخ المتأخر ، كان النيل وحده ، ومازال هو أهم معلم جغرافى ، فى إطار الصور الجغرافية . وقل كان جريان النيل والنظام المائى الرتيب من وراء بعض أهم المعالم الأخرى ، فى إطار الصورة الجغرافية . بل قل إن هذا الجريان ، كان مسئولاً عن تجهيز المسرح.



مصـــر

الجغرافى للوطن المصرى . كما كان النيل مسئولاً مرة أخرى ، عن تأمين وجود حركة الحياة وتعزيز الإستقرار ، على صعيد السهل الفيضى ، إعتبار من خط عرض أسوان ، وفى إطار الوادى وأرض الطيبة .

– هذا وقد عايشت حركة الحياة التى إستقرت وطاب عيشها ، على صعيد المسرح الجغرافى فى الودى ، مراحل تكوين ونضج الدلتا . وكانت حركة الحيـاة ، تراقب عن بعد مراحـل هذا التكوين ، تحسباً للإستيطان على صعيدها . وكانت فروع النيل على صعيد الدلتا إنذاك ، وما زات أهم معلم جغرافى ، وهى مسئولة عن تمام نضج الدلتا . ويوم أن باشر الإستقرار الحياة والإستبطان فى ربوع هذا القطاع من المسرح الجغرافى المصرى ، كانت سبعة فروع للنيل . وكانت أرض الدلتا ، تمتد من سهل الطينة فى الشرق ، إلى موقع الاسكندرية فى الغرب .

– وأصبح هذا المسرح الجغرافى المصرى ، الذى جمع بين قطاع السهل الفيضى فى الوادى الضيق ، الممتد من خط عرض أسوان إلى خط عرض القاهرة ، وقطاع الدلتا الذى يطل على البحر المتوسط ، هو الوطن المصرى . وإعتباراً من قرون كثيرة قبل التاريخ ، أصبح هذا الوطن فى حضن النيل ، هو البديل الأنسب أو الأمثل من الوطن القديم المهجور . بل قل أصبح هذا الوطن الأنسب ، هو الجدير بوجود مصر ، التى أرسى قواعد الاجداد ، بعد أن كانوا قد تأهلوا وإكتسبوا الخبرات والمهارات ، فى ربوع الوطن المهجور . وقد إعتمد الاجداد على هذا التأهيل الإقتصادى ، والإجتماعى ، الحضارى ، فى دعم وتعزيز وجود مصر الوطن ، ووجود مصر المواطن صاحب الوطن . ومن ثم سجلت الاجـيال حقهـا المطلق فى الريادة ، لكى تستحق أن توصف بأنها أم الدنيا .

– وفى نهاية المطاف ، أنظروا وتمعنوا ، كيف قضى ربكم فى كتاب عنده فوق العرش ، أن تكون مصر ، فكان النيل من أجل مصر .

الثانيـــة

صورة تتحدث عن تأهيل الناس ، إقتصاديا ، وإجتماعيا ، وحضاريا ، فى موطن بعيد شرق وغرب النيل

الثانيـــة

تأهيل الإنسان ، ودعم الإستقرار

– يكون جمع أوصال هذه الصورة الجغرافية من أعماق الماضى البعيد ، مطلوباً ، لكى تتحدث عن إستقرار وتغيرأوضاع الإنسان ، الذى تأتى فى ظل نقلة نوعية مهمة ، وغير مسبوقة . وصحيح أن هذه النقلة النوعية غير المسبوقة ، قد أفضت إلى نتائج وتداعيات إقتصادية ، وإجتماعية وحضارية . وقل أنها النقلة النوعية التى أفضت إلى رصد أقدم صفحة من تاريخ الإنسان على الأرض ، وهو الذى لم يكن يملك القدرة إنذاك على تسجيلها . بل قل أنها النقلة النوعية التى إمتلك الإنسان بموجبها ، حق تسخير ما فى الأرض لحساب حياة ، وكفلت له حق الإستعلاء .

– وصحيح أن هذه النقلة النوعية غير المسبوقة ، هى محصلة نقطة تحول حاسمة . من وضع حياتى كان متواضعاً والإنسان يهيم على وجهه بحثاً عن القوت من إنتاج الطبيعة فى المكان والزمان ، إلى وضع حياتى أفضل والإنسان قد تحرر وأمتلك القدرة على الإنتاج . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو أن السيطرة على الإنتاج ، قد إستوجب الإستقرار ، فى مكان مناسب . وقل أن هذا الإستقرار في المكان المناسب ، معناه الإرتباط بالأرض ، وإتخاذها وطناً وموطناً . بل قل أن هذا الإرتباط بالأرض ، يصبح من وراء التفانى فى حب الأرض وصولاً إلى التحلى بالإنتماء الوطنى .

– ومن أجل إستيعاب مفهوم النقلة النوعية ، ورصد تداعياتها ، وتقويم جـدواها ، ينبغى أن نتعرف جيداً على الصورة التى تتحدث عن حـياة الإنسان ، وعن أوضاعه ، قبل هذه النقلة النوعية . وأهم ملامح ومواصفات هذه الصورة ، التى تكشف النقاب عن الوضع الحياتى المتواضع ، والإنسان يهيم على وجهه ، فى أنحاء الأرض ، تتمثل فى حتمية الإعتماد الكلى على إنتاج الطبيعة فى المكان والزمان . بمعنى أن كانت يد الطبيعة ، هى التى تنتج وتوفر العرض ، وهى العليا ، وكانت يد الإنسان ، وهو الذى يستهلك ، ويلتمس الطلب ، هى السفلى . وكان من شأن الإنسان عندئذ ، وهو صاحب اليد السفلى ، أن يقبل عن طيب خاطر ، كل ما تقدمه الطبيعة وهى صاحبة اليد العليا .

– وفى ظل هذه العلاقة غير المتوازنة ، كان من شأن الطبيعة أن تسيطر على مقومات الوضع الحياتى المعاش فى المكان والزمان . وكم لعب المتغير الطبيعى بمصير الإنسان . وكم أعطت الطبيعة أحياناً بكل السخاء . وكم أعطت الطبيعة أحياناً أخرى بكل البخل والاقلال . وكان من شأن الوضع الحياتى المتواضع ، أن يقع الإنسان فى مأزق وضغوط التناقض ، بين فعل متغير طبيعى أفضى إلى الشح ونقصان العرض المناخ فى جانب ، وفعل متغير ديموجـرافى أفضى إلى اللهفة وتعاظم الطلب فى جانب آخر . وفى ظل التناقض ، كانت الضغــوط التى فرضت على الإنسان ، مغادرة المكان ، والبحث عن مكان آخر أنسب .

– وفى ظل غياب قدرة الإنسان على السيطرة على الإنتاج إنذاك ، عاش الإنسان على صعيد أى مسرح جغرافى ، فى إطار أسرة . وكان هذا الكيان الإجتماعى البسيط ، هو وحده مصدر الدفء الإجتماعى . وفى ظل اللهفة على الطلب ، والمنافسة الشرسة ، على حيازة الطلب ، غاب الإستقرار فى المكان . ومع غياب الإستقرار غابت معه كل دواعى أو مبررات التحول من التفرد فى إطار أسرة ، والإنغلاق على خصوصية الذات الاسرية إلى التوحد والترابط فى إطار مجتمع ، والإنفتاح على عمومية الذات الإجتماعية . وفى ظل غياب الإستقرار مرة ؛ وغياب مبررات ودواعى التحول الإجتمـاعى ، تواضعت مسيرة الإبداع الحضارى .

– هكذا ، كان شغل الإنسان الشاغل ، هو البحث عن القوت اليومى، الذى يغطى إحتياجات الأسرة ، ويجاوب الحاجة إلى أمن إقتصادى خاص ، والى دفء إجتماعى أسرى منغلق . وقد سار هذه الوضع الحياتى البسيط المتــواضع ، على المسرح الجغرافى ، فى كل الإنحاء التى شهدت الوفرة والسخاء ، فى أثناء العصر المطير الثانى فى البلايستوسين الأعلى . وكفل المطر إنذاك ، وفرة وتنوع فى الإنتاج النباتى الطبيعى ، ووفرة وتنوع فى الإنتاج الحيوانى الطبيعى . وقد جاوبت هذه الوفرة ، وهذا التنوع فى معطيات الإنتاج الطبيعى زيادة الطلب ، فى ظل المتغير الديمرجرافى .

– ومن غير أن نسأل عن طول المساحة الزمنية ، وكــم من الاف السنين

مرت ، عاشت التجربة الحياتية الاسرية المتواضعة ، فى عز وبحبوحة هذا الإغداق الطبيعى السائد . ثم كان التغير المناخى مع إنتهاء العصر المطير الثانى على المسرح الجغرافى بصفة عامة . وما أن تناقص كم المطر وخيم الجفاف ، حتى بدأ مشوا نقصان وإضمحلال وتدنى معدلات الإنتاج الطبيعى . وفى مواجهة ضغوط وتحديات هذا التغير المناخى ، فر من فر من الاسر ، والتمس الحياة على مسرح جغرافى أنسب فى موطن جديد ، وصمد من صمد من الاسر ، ولم يغادر هذا الموطن . وخاض من لم يغادر تجربة المواجهة الإيجابية ، لضغوط وتحديات فرضها الواقع الطبيعى على المسرح الجغرافى .

— وقد أسعف هذا الصمود ، والأخذ بزمام المواجهة الإيجابية ، الرحلة أو المشوار على مشارف النقلة النوعية المستجدة . وتمثل هذا المشوار فى مباشرة إستئناس النبات ومباشرة الزراعة ، وفى إستئناس الحيوان ومباشرة إقتنائه . وقد يسرت زيادة طفيفة فى المطر ، فى العصر الحجرى الحديث ، هذا التوجه الإنتاجى المثمر ، على المسرح الجغرافى ، الذى شهد هذا الصمود . وقل إن مباشرة الزراعة المطرية ، أدخلت التجربة الحياتية المتواضعة الصامدة ، فى بداية مشوار الإستقرار ، والتأهيل الذى أفضت إليه هذه النقلة النوعية . بل قل إن هذه النقلة النوعية ، وضعت التجربة الحياتية المتواضعة ، على درب جنى ثمرات كل التداعيات ، التى توالت إنذاك ، على المحاور الإقتصادية ، والإجتماعية ، والحضارية .

— ومباشرة الزراعة المطرية ، كانت تعنى فيما تعنى ، وضع عملية الإنتاج تحت السيطرة ، والدخول فى مباشرة التجربة الإقتصادية . وفى ظل هذه التجربة الإقتصادية ، كان فى وسع حركة الحياة ، ضبط إيقاعات العلاقة المتوازنة بين الإنتاج وتوفيرالعرض ، وإجابة الطلب . وفى ظل ضبط إيقاعات هذه العلاقة ، كان فى وسع حركة الحياة ، التحرر الجزئى من الإعتماد على معطيات الإنتاج الطبيعى . وخفف هذا التحرر من ضغوط متغيرات هذا الإنتاج الطبيعى . وقد بررت ، بل قل إستوجبت السيطرة على سبل الإنتاج الإقتصادية ، والتحرر من ضغوط متغيرات الإنتاج الطبيعى ، التوجه الحتمى إلى الإستقرار .

– ومن تحت عباءة الإستقرار ، وبعد تحول الموطن إلى وطن ، وفى ظل السيطرة على الإنتاج فى المكان والزمان ، خرجت أول لبنة وأهم لبنة ، فى بناء صرح الأمن الإقتصادى المتواضع . ومن تحت عباءة الإستقرار ، وبعد تحول الموطن إلى وطن ، وفى ظل التنعم بالأمن الإقتصادى المتواضع ، خرجت أول دعوة دعت إلى اسقاط حواجز العزلة ودواعى المنافسة والصراع بين الاسر والتحلى بروح العداء والعدوانية ، من أجل الإنتصار على الغير فى مجال جنى ثمرات الإنتاج الطبيعى . وكفل هذا الإستقرار ودعوته فى نفس الوقت بث التحلى بروح الاخاء والمصالحة والتعاون والتنعم بالسلام ، وإستشعار جدوى الامـن الإقتصادى . بل قل إستوجب تفرغ الإستقرار لمباشرة الإنتاج الإقتصادى ، وترسيخ دواعى وجدوى الأمن الإقتصادى ، حتمية التخلى عن روح العداء وإرادة الصراع ، والتحلى بروح الاخاء وإرادة التعاون .

– وأسقط هذا التخلى عن روح العداء ، والتحرر من دواعى الصراع ، والتحلى بروح الاخاء ، والإستعداد للتعاون ، حواجز العزل بين الاسر ، فى المكان والزمان. واسقاط حواجز هذا الغزل والتخلص من تداعياته ، أفضت إلى إنهاء مرحلة التفرد فى إطار أسرة واستدبار الغير ، إلى مرحلة التوحد فى إطار مجتمع والتواصل مع الغير . ومن غير تفريط فى حق التنعم الذاتى بخصوصية الاسرة ، بدأ مشوار التنعم بالإنتماء إلى المجتمع الكبير . وضم المجتمع مجموعة الأسر ، ورسخ الإحساس بالدفء الإجتماعى . ومن تحت عباءة هذا الدفء الإجتماعى ، خرجت أول لبنة ، وأهم لبنة ، فى بناء صرح الامن الإجتماعى المتواضع . وفى الوقت الذى عزز فيه الأمن الإقتصادى الامن الإجتماعى ، عزز فيه الأمن الإجتماعى الامن الإقتصادى ، فى المكان والزمان .

– ومن تحت عباءة نسيج إجتماعى ،خيمت عليه كل دواعى الأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى ، كان التوجه الحميد ، فى مشوار التعاون من أجل إنجاز العمل أى عمل ، لحساب المصلحة المشتركة العامة . وأفضى هذا التعاون مع مرورالوقت إلى ترسيخ أوصال الترابط الإجتماعى والتكامل الإقتصادى ، كما أفضى هذا التعاون مرة أخرى إلى تقسيم العمل وتوزيع تكليفاته بين قوة العمل فى المجتمع . وفى ظل تحمل الفرد المسئولية عن

الـذات ، لحساب الذات ، بدأ تحمل الفرد المسئولية عن الغير ، لحساب المجتمع ، كما سار فى نفس الوقت التحلى بالمسئولية الجماعية ، وتحرى المحافظة على التوازن الحميد بين المسئولية الفردية والمسئولية الإجتماعية . وأفضى ذلك كله إلى قوة ومتانة السدى واللحمة، فى مجال صياغة النسيج الإجتماعى للقوم .

– وفى ظل تقسيم العمل ، وتحرى حسن توزيع تكليفاته ، وتعزيز مبدأ التعاون فى إنجاز العمل المشترك لحساب المجتمع ، وضعت أول لبنات مهمة فى بنية ثقافة الحياة المتداولة ، على المحور الإقتصادى مرة ، وعلى المحور الإجتماعى مرة أخرى . وحمل المجتمع قوة العمل عن طيب خاطر فى الغالب ، مسئولية إعالة كل من ليس فى وسعه مباشرة العمل . وعززت هذه المسئولية الإجتماعية وأشاعت الدفء الإجتماعى ، وقوة أواصر الترابط الإجتماعى . وصب هذا الدفء الإجتماعى مرة ، وهذا الترابط الإجتماعى مرة أخرى ، رصيداً أضاف إضافات رسخت قواعد الامن الإجتماعى ، على مستوى القوم ، فى المكان والزمان .

– ومن تحت عباءة هذا الأمن الإجتماعى ، الذى أشاع السلام الاجتماعى ، تنامى إحساس الفرد بالدفء الإجتماعى. . وبث هذا الدفء الإجتماعى ، أو قل غرس بذرة أونواة الإعتزاز بالقوم والتحلى بالإنتماء القومى ، وإرتفع صرح هذا الإنتماء القومى ، على حب من عايشه المرء من الأهل فى إطار قومه ، أو حب من مات منهم ، وأصبح فى مرقده تحت التراب . وليس أقوى من قوم ، يقوى بنيانه الإجتماعى هذا التحلى بالإنتماء القومى السائد بين أفراده . وقد إتخذ القوم إنذاك صفة الجسد الواحد ، الذى إذا تضرر منه عضو ، تسابق كل الأعضاء إلى رفع الضرر والمعاناة عنه .

– وفى توازى حميم ، وفى تزامن بديع ، هيمن على القوم وظلل على أواضاعهم فى المكان والزمان ، الإنتماء الوطنى الذى رسخ حب الأرض ، وهى مصدر عطاء ، والإنتماء القومى الذى رسخ حب القوم ، وهم مصدر عزة . ووضع هذا الإنتماء على الوجهين الوطنى والقومى ، على عاتق الإستقرار فى المكان والزمان ، المسئولية الإقتصادية والمسئولية الإجتماعية . وقل كفلت هذه المسئولية المزدوجة حماية الامن الإقتصادى ، والمحافظة على الامن الإجتماعى .

بل قد إستوجبت فى بعض الأحوال مواجهة الشدائد والمكاره والتحديات . على قلب رجل واحد .

– وإستوجب الإستقرار الذى تحرى فلح الأرض ، ومباشرة الزراعة المطرية في المكان ، إعداد وتجهيز المسكن المناسب . وجاوب هذا المسكن الحاجة إلى المأوى على مقربة من الأرض التى كان يفلحها . كما جاوب هذا المسكن حق التنعم بالسكينة ، فى إطار ترسخ الحق فى خصوصية الاسرة ، دون تعارض مع عمومية الإنتماء إلى القوم ، أو دون عصيان وتمرد على المسئولية الإجتماعية . وفى ظل إستشعار دواعى ومبررات المسئولية الإجتماعية فى جانب ، وفى ظل التماس الدفء الإجتماعى فى جانب آخرة ، تجاورت المساكن . ومن غير ضوابط حاكمة تضبط التوزيع الجغرافى للمساكن المتجاورة ، إتخذ إقامة المساكن شكل الكتلة السكنية ، وقد تعطرت برائحة الريف .

–وقد جسدت هذه الكتلة السكنية مفهوم المستوطنة فى المكان والزمان . ولبست هذه المستوطنة فى مكانها الجغرافى لباس القرية . وقد ضمت الاسر ووثقت عرى العلاقات الإجتماعية ، ورسخت روح التحلى بالمسئولية الإجتماعية . وقل أصبحت القرية إنذاك وهى تضم القوم الذى خيمت عليه كل دواعى ومبررات السلام الإجتماعى ، من وراء الأخذ بزمام حسن التنسيق بين خصوصية حق الاسرة فى جانب، وعمومية حق القوم فى الصحبة الإجتماعية المشتركة فى جانب آخر . ومن تحت عباءة هذا التنسيق المناسب خرج وإستقر التعارف على التقاليد والقيم ، التى رسخت مفهوم حق الجار على جاره وتبعاته .

–ولحساب هذه الصحبة الإجتماعية فى المستوطنة أو القرية ، التى وثقت ورسخت وشائج العلاقات الإجتماعية إستشعر القوم الحاجة ، إلى الشخص الذى فى وسعه ضبط إيقاعات هذه العلاقات ، والمحافظة على مقومات السلام الإجتماعى ، وفض المنازعات ، وتأمين التنعم بالدفء الإجتماعى . وعندما وقع الإختيار على كبير السن من الرجال أو من النساء ، إتخذ صفة ولى الأمر . وقد أجلسوه فى مقعد السلطة ، وكان عليه بالفعل واجب الأمر ، وكان على القوم بالضرورة واجب السمع والطاعة . وغرس هذا التوجه

الإجتماعى، بذرة النظام الحاكم ، وتحرى ترسيخ قيمة الولاء لهذا النظام وحتمية الإنتفاع بجدواه . وأدرك القوم إنذاك ، أن لابديل عن النظام ، غير الفوضى ، التى تفضى إلى الطعن فى الترابط الإجتماعى ، أو فقدان الأمن الإجتماعى .

–وفى ظل حرص ولى الأمر ، على وشائج الترابط الإجتماعى ، إكتملت ملامح شخصية القوم فى المستوطنة . كما إكتملت مبررات ودواعى خصوصية المستوطنة فى مكانها الجغرافى . وعلى المسرح الجغرافى الواسع ، إنتشرت وتباعدت أكثر من مستوطنة ، لحساب الإستقرار . وهذا التكرار لا يعنى بالضرورة ، تماثل أو تطابق المستوطنات . بل قل كان لكل مستوطنة ، والقوم الذين عاشوا فيها خصوصية التفرد . وجاوب هذا التفرد ، خصوصية الموقع الجغرافى ، وخصوصية مواصفات وملامح البيئة ، التى تعايشوا معها ، فى المكان والزمان . وكان حاجز المسافة ، بين المستوطنة والمستوطنات الأخرى ، أهم الدواعى ، التى دعت إلى خصوصية كل مستوطنة . كما كان حاجز المسافة مرة أخرى ، من وراء خصوصية شخصية القوم الذى عاش فيها. وفى ظل هذه الخصوصية على صعيد كل مستوطنة ، كان شغل القوم الشاغل ، هو تأمين الحق الذاتى فى الامن الإقتصادى ، وفى الامن الإجتماعى .

– ولحساب هذا الحق الذاتى الخاص ، فى الامن الإقتصادى ، وفى الامن الإجتماعى ، توثقت العلاقة المتبادلة بينهما ، بمعنى أن أصبح الامن الإجتماعى مسئولاً عن دعم وتأمين الامن الإقتصادى ، لحساب الفرد ولحساب المجتمع . كما أصبح الامن الإقتصادى فى نفس الوقت ، مسئولاً عن دعم وتأمين الامن الإجتماعى وتعزيزه والمحافظة عليه . ولحساب هذه العلاقة المتبادلة ، تواصل وتنامى كدح قوة العمل ، فى مباشرة الزراعة المطرية ، جنباً إلى جنب ، فى كل الأنشطة الإنتاجية الأخرى . وإتخذ القوم من تحرى الامن الإقتصادى والمحافظة عليه ، ذريعة لإفشاء السلام الإجتماعى ، وتعزيز الامن الإجتماعى .

– وإعتمد هذا الكدح فى كل مجالات الأنشطة الإنتاجية ، على أساليب بدائية متواضعة . وما إمتلك هذا الكدح وهو يباشر الزراعة مثلاً ، فى يديه فأساً

أو محراثاً . ولكن إمتلك في نفس الوقت ، العـزم والإرادة والتصميم ، من أجل العناية بالنمو والإنبات . وكم تحلى هذا الكدح بالصبر والمثابرة ، حتى حانت ساعة الحصاد . وعندئذ كانت الفرحة تخيم على القوم في المستوطنة ، وهم يرددون أهازيج الفرحة والإبتهاج ، تحسباً لمواصلة مشوار الأمن الإقتصادي وتداعياته المبشرة بكل الخير . ومع مرور الوقت بين موسم حصاد ، وموسم حصاد آخر يليه ، بدأ الإهتمام بحساب الزمن . وقد إتخذ القوم الفاصل الزمني بين موسم وآخر ، مقياساً لحساب الزمن .

– ومع تكرار الزراعة المطرية من موسم إلى موسم آخر ، ومع فرض السيطرة على ما تنبت الأرض كان وضع اليد التي كانت تكدح على المساحة المزروعة . وأفضى وضع اليد إلى الحيازة ،وإثبات أو توثيق الحق في إستخدام الأرض ، وتحرى الإعتراض على من يعتدى على هذا الحق . وقل أصبحت الأحقية في هذه الحيازة هي السند الشرعي للملكية الخاصة . وإعترف القوم فيما بينهم ، وتعارفوا على تثبيت هذا الحق . وفي ظل تثبيت هذا الحق ، نشأ وتنامى حق ملكية الأرض ،على صعيد المساحات المستخدمة فيما حول المستوطنة .

– ومن إشتراكية تعميم وعمومية ، إلى ملكية تخصيص وخصوصية ، حفز إعـتراف القوم بحـق الملكية الخاصة ، التوسع الافقي في إستخدام الأرض . وساد التنافس وإنتعشت روح المنافسة إنتعاشاً ، أفضى إلى إتساع مساحات الأرض المزروعة ، وإلى زيادة الإنتاج المحصولي . وإذا كانت هذه الزيادة قد عظمت ورسخت قواعد الامن الإقتصادي ، وعززت الامن الإجتماعي في وقت واحد ، فإن هذا التـوسع الافقي في الأرض المزروعة وزيادة الإنتاج المحصولي ، قد جاوب معدلات النمو الديموجرافي على صعيد القوم ، وغطى الزيادة المستمرة في معدلات الإستهلاك والطلب .

– وفي صحبة هذا الكدح المستمر في مجال الإنتاج الزراعي ، كان التوجه إلى إستئناس الحيواني ، الذي إقترب من الناس ، وعايشهم وعايشوه في البيئة . ومن غير الإقلاع عن ممارسة الصيد ، لحساب الإستهلاك ، أفلح هذا التوجه ، في إستئناس بعض الحيوانات الصغيرة أكلة العشب . كما أفلح هذا

التوجه مرة أخرى ، فى إستئناس بعض الدواجن . وتحرى الإستقرار إقتناء هذه الحيوانات ، وخصص لها مكاناً فى داره أو فى مسكنه ، ونما دواعى الألفة ، بينهما وبين الأسرة . ووسع هذا الإقتناء مساحة الملكية الخاصة ، وفرض سيطرة الإنسان على الحيوان .

– وفى ظل هذه السيطرة على ما نتج الأرض من محاصيل زراعية ، وعلى ما تنتج الحيوانات من إنتاج حيوانى ، تنامى الطلب وتفتحت شهية الإستهلاك . وأثرى الإنتـاج الزراعى والإنتاج الحيوانى مكونات الوجبة الغذائية ، وقل إنه الاثراء الذى حسن مستوى المعيشة ،وجاوب هوى النفس البشرية ، التى لا تكف عن طلب ما هو أفضل ، أو ما هو أحسن . بل قل إنه الاثراء ، الذى حفز التوجه إلى مزيد من أنواع الحيوانات المستأنسة ، وتوسيع قاعدة حيازة الثروة الحيوانية .

– وبكل الإلحاح والاصرار ، نجح هذا التوجه مرة أخرى ، فى إستئناس الابقار . وأضافت الابقار إضافة جيدة إلى رصيد الإنتاج الحيوانى . كما نجح أيضًا فى إسـتئناس الحمار . ووسع إستئناس الابقار والحمير قاعدة الثروة الحيوانية ، وقل إنه التوسيع الذى قوى وعزز البنية الإقتصادية ودعم ورسخ الامن الإقتصادى ، وفى صحبته الأمن الإجتماعى ، وصحيح أن العمل البدائى المتواضع فى الزراعة المطرية لم يستوجب توظيف الحيوان فى خدمة الزراعة والعمل الزراعى . ولكن الصحيح أن أصبح فى وسع حركة الحياة ، تسخير الحمار أو الثور ، فى مهمة نقل المحصول من الحقل إلى مواضع تخزينه فى المستوطنة . هذا بالإضافة إلى توظيفه فى الركوب ، أو فى النقل من مكان إلى مكان آخر .

– وحيازة الحيوان وإمتلاكه ، إستوجبت إنذاك إضافة مستجدة وتوسعه فى المسكن ، وتمثلت هذه الإضافة فى الحظيرة الملحقة بالمسكن ، وعلى المساحة المناسبة لوجود الحيوان أثناء الليل . كما أضافت هذه الحيازة مرة أخرى إلى مسئولية قوة العمل ، حتمية العناية بالحيوان ، وتوفير الغذاء له ، وحمايته فى نفس الوقف من عدوان الحيوانات البرية أكلة اللحم . وكان من شأن العناية

بالحيوان ، أن إنضم صغار السن من البنين والبنات ، إلى صف قوة العمل . وقد إسندت لهم آنذاك مهمة متابعة حركة الحيوان فى مساحات الأرض ، حيث الحشائش والاعشاب . وإرتبط توسيع وتنويع قاعدة الإنتاج الزراعى والحيوانى ، بتوسيع وتنويع سبل إستخدامات الأرض ، فيما حول المستوطنة .

– ومن خلال توسيع وتنويع إستخدامات الأرض ، وتوسيع وتنويع الإنتاج الإقتصادى ، تفتحت شهية الإستهلاك . بل قل تفجرت شهوة الإستهلاك ، وجاوب الإنتاج هذه الشهوة . وأضاف الإنتاج المتنوع إضافات إستجدت إلى قائمة الطلب والتماس الإحتياجات التى أرضت وجاوبت تفتح شهية الإستهلاك . وكان ذلك كله ، من وراء إنفتاح وبداية مشوار تعامل وتبادل إقتصادى ، على مستوى المستوطنة ، فى مرحلة ، وعلى مستوى علاقات إستجدت بين المستوطنة والمستوطنات الأخرى . وأدى الحمار فى صبر دوره الوظيفى ، فى خدمة هذا التعامل الإقتصادى .

– ولحساب هذا التعامل الإقتصادى ، على كل المستويات المحلية أو الإقليمية ، إبتكرت حركة الحياة ، أول وأقدم نظام إقتصادى . وتمثل هذا النظام الإقتصادى ، فى تبادل السلعة بالسلعة . وقل هذا هو النظام الإقتصادى العينى . بل قل هذا هو النظام الإقتصادى ، الذى إخترق جدار إنغلاق القوم فى المستوطنة على الذات الخاصة ، ووضع أول لبنة فى الإنفتاح لحساب التعامل الإقتصادى ، على المستوى الاقليمى ، بين المستوطنة والمستوطنات الأخرى . وتحت مظلة هذا الإنفتاح المبكر ، وإتساع دائرة التعامل الإقتصادى ، بين العرض والطلب ، إحترف البعض مهمة آداء دور الوسيط التجارى بين الاقوام ، ونظم ونسق سبل الإلتقاء بينهما . وأصبح هذا الوسيط هو الرائد فى مجال الإنفتاح الإقتصادى بصفة خاصة ، والإنفتاح متعدد الأهداف ، بصفة عامة بين الاقوام ، وهو الأمين على موجباته .

– وفتح هذا الإنفتاح الذى إخترق جدار إنغلاق القوم على الذات ، وأسقط حاجز المسافة بين المستوطنة والمستوطنة الأخرى ، باب الإستعداد الإجتماعى لقبول الآخر ، وحسن التواصل مع الغرباء . وعبر هذا الباب

المفتوح . وفى ظل شئ مناسب من التحفظ والحذر ، تأتى التواصل الإجتماعى بين المستوطنة والمستوطنة الأخـرى ، أو قل بين القـوم والأقوام الأخرى . وفى صحبة حميمة ، جمعت بين تعـامل إقتصادى وتواصل إجتماعى ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر ، تنامى التحلى بروح الإنفتـاح . وقل تعاظم إنذاك الحرص على جنى ثمرات تداعيات هذا الإنفتاح . بل قل أفضى ذلك التنامى إلى بداية مشوار الإحتكاك الحضارى بين الاقوام ، ومباشرة الأخذ والعطاء .

– ورسخ هذا الإحتكاك الحضارى ، تحت مظلة الإنفتاح مبدأ الأخذ والعطاء ، دون سؤال يسأل عن ماذا ، ولماذا ، وكيف ، ومتى كان الأخذ ، أو سؤال فى المقابل يسأل عن ماذا ، ولماذا وكيف ، ومتى كان العطاء . ومهد هذا الأخذ والعطاء صياغة الرصيد الحضارى المشترك . وقل أنعش هذا الإحتكاك الحضارى الابداع الحضارى ، لحسـاب حركة الحياة . وأضاف هذا الابداع الحضارى إضافات مثمرة على الوجه المادى . كما أضاف الإبداع الحضارى إضافات أخرى على الوجه المعنوى . وحسنت إنجازات هذا الإبداع الحضارى مستوى معيشة الاقوام ، وفتحت لها وعليها ومضات مضيئة ومثمرة ، من التنوير .

– وصحـيح أن الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، قد أسقط حواجز الغربة ، وأخرج الأقوام من التقوقع على الذات . وصحيح مرة أخرى أن الخروج من طوق الإنغلاق ، أو من نفق العزلة المظلم ، إنتفعت بتداعياته كل الاقوام ، على المحاور الإقتصادية ، والإجتماعية ، والحضارية. وصحيح أيضاً أن هـذا الإنتفاع تأتى فى حدود مساحة الإنفتاح ، التى تحلى بها كل قوم من الأقوام . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أن هذا الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، لم يكن فى وسعه ، طمس كل ملامح وخواص ومواصفات خصوصية الشخصية الخاصة لكل قوم من الاقوام ، وهى تحيا فى مستوطناتها الخاصة . بمعنى أن مقومات الشخصية الخاصة بكل قوم ، فى المستوطنة الخاصة ، كانت هى الخيط الرفيع الفاصل بين خصوصية القوم وخصوصية الاقوام الأخرى . وقد حال هذا الفاصل ، دون التداخل الفعلى ، فى نسيج بشرى متجانس ، وجمع الاقوام فى جلباب القوم الواحد .

– وقد نشط الإنفتاح إعمال العقل ، على مستوى التدبر والتمعن

والتفكـير أحيانًا ، أو على مستـوى الالهام وتجلى شطحـات الخيال أحيانًا أخرى . وأفلح إعمال العقل ، فى تقصى الحقيقة ، أو فى إكتساب الخبرة ، أو فى إستثـمار معطيات التجربة . وأقصى ذلك كله ، إلى تنشيط ملكات الابداع الحضارى ، وإلى جنى ثمراته . وتنعم كل قوم من الاقوام ، بمعطيات هذا الابداع الحضـارى ، سـواء كان من وحى الالهام ، أو كان من حصاد التجربة . وكانت الشدة أو الموقف الصعب أو التحدى الذى إستنفر الحاجة إلى التفكير ، أو شطحات الخيال التى جاوبت هذه الحاجة ، من وراء المضى ، على درب الابداع الحضـارى ، على الوجهين المادى والمعنوى .

– ومن خلال التجارب الحياتية المتواضعة بكل المقاييس ، وهى التى كانت سائدة فى كل مستوطنة من مستوطنات الإستقرار ، تأتى إستيعاب حصاد هذا الابداع الحضارى . وتحرى الإستقرار إنذاك ، الإنتفاع بمعطيات هذا الابداع ، فى مجال تحسين أوضاعه المعيشية . وأضاف الإستقرار حصاد هذا الابداع الحضـارى إلى رصيد ثقافة الحيـاة . ومضى الإجتهاد المبدع ، على درب تطوير وتحسين ، معطيات هذا الابداع الحضارى مرة ، وعلى درب إضافة المستجدات إليه أكثر من مرة . وفى الحالتين أفلح الإنفتاح وحسن إستثمار الإحتكاك الحـضارى بين الاقـوام ، فى توسـيع وتنويع قواعد الابداع الحضارى .

– وعلى الوجه المادى ، من وجهى الابداع الحضارى المتنامى والمتجدد ، من حين إلى حين آخر ، توالت أهم الإضافات البديعة ، لحساب حياة أفضل وأنعم ، فى المكان والزمان . وتحرى الإستقرار ، فى ظل تنامى وتطور مسيرة الابداع الحضارى ، وضع وصياغة وترسيخ أصول وقواعد وأسس ثقافة الحياة لحساب الفرد مرة ، ولحساب الجماعة مرة أخرى . وعلى المسرح الجغرافى للوطن ، تعود الإستقرار ، على إستثمار حصاد الابداع الحضارى وإضافاته المتجددة ، فى مجال حسن التنعم بحلو الحياة المطمئنة ، أو مجال الصبر الجـميل على مرها . وإكتسب الإستقرار مهارات التعامل مع الشدائد والتحديات ، والإجتهاد المثابر ، فى مجال تطويعها أحيانًا ، أو فى مجال أبطال مفعولها أحيانًا أخرى .

– وحملت ثقافة الحياة الأمنة إقتصادياً ، وإجتماعياً ، وحضارياً ، على مستوى القوم ، وعلى مستوى كل الاقوام مرة أخرى ، فى أحشائها تباشير مقومات صناعة المدنية ، وأصولها المناسبة فى المكان والزمان . وشهد وقت الفراغ ، الذى كفله الأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى ، إقدام المبدعين الجاد ، على تطوير إبداعاتهم المادية .وكان لاهم لهم غير المزيد من التنعم الحياتى اليومى . وقد وجهت ثقافة الحياة الإستقرار إلى ضرورة طلب ما هو أفضل . وإستوجب هذا الطلب ، حتمية التحلى بالطموح وشحذ إرادة التغيير ، ورفض الجمود . ومن ثم كان حســن إستيعاب ومواجهة دواعى ومبررات هذا التغير المرتقب ، وحساب جدواه ، فى المكان والزمان .

– هكذا تعود الإستقرار إنذاك على قبول هذا التغيير ، وتفعيل أو تنشيط مبرراته ، سواء كان هذا التغير إلى ما هو أفضل أحياناً ، أو كان إلى ما هو أسوأ أحياناً أخرى . وقل حفلت ثقافة الحياة وأهتم رصيدها المتنامى إنذاك ، بضبط إيقاعات هذا التغير ، وحسن مسايرته والقبول به ، من خلال حسن إستيعاب معناه ومغزاه ،ورصد حسن الإنتفاع بمعطياته فى المكان والزمان . بل قل علمت ثقافة الحياة الإستقرار لماذا ، وكيف ، ومتى ينبغى حسن إستيعاب دواعى ومبررات هذا التغيير ، وحتمية القبول به وعدم الإعتراض عليه أو الاعراض عنه . ويستوى فى ذلك أن يكون التغيير فى الشكل والمظهر ، أو أن يكون هذا التغيير فى المضمون والجوهر ، أو أن يكون فيهما معاً .

– ومع تعاقب الاجيال ، ومرور الوقت ، إزداد الإهتمام بالتواصل الإجتماعى ، بين الافراد ، وبين الاسر فى إطار المستوطنة . وأصبح هذا التواصل الإجتماعى ، شريحة هامة وراسخة ، فى رصيد ثقافة الحياة . وعزز هذا التواصل الإجتماعى أهم مقومات وموجبات المحافظة على الامن الإجتماعى . ومن تحت عباءة هذا الامن الإجتماعى ، خيم السلام الإجتماعى ، وتنعم القوم بلدفء الإجتماعى ، الذى بات حقاً مستحقاً ، وهو منشود بالضرورة ، لحساب الفرد مرة ، ولحساب الاسرة مرة أخرى .

–وقد أضاف هذا الحرص على موجبات ومقومات الامن الإجتماعى ، وتحرى تداعياته ، المسئولية على عاتق ولى الأمر زعيم القوم . وأخذ ولى الأمر

على عاتقه ، ضبط إيقاعات التعامل بين الناس ، والمحافظة على العلاقات الإجتماعية . وقل كان الهدف إنذاك دعم وترسيخ دواعي ومبررات وموجبات التلاحم الإجتماعى ، فى ظل الشئ المناسب من التحلى بالإنتماء القومى . بل قل أصبح ولى الأمر مسئولاً عن إشاعة هذا السلام الإجتماعى ، على مستوى حركة الحياة ، فى الكتلة السكنية ، أو فى مساحات الأرض المستخدمة ، وهى المجال الحيوى الخاص ، فيما حول المستوطنة .

– ومع مرور الوقت ، وتعاقب الاجيال ، وتنامى الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، تفاوتت تداعيات ونتائج الإحتكاك الحضارى بين الأقوام فى المستوطنات الخاصة بكل قوم . وأضاف ذلك إضافات متباينة ، وليست متناقضة ، إلى رصيد ثقافة الحياة عند كل قوم . وقل شكل كل قوم هذه الإضافات ، فى الشكل المناسب لخصوصية الواقع الحياتى المعاش ، الذى جاوب خصوصية خواص البيئة الجغرافية الطبيعية ، فى المكان والزمان ، وغطت هذه الإضافات أوضاع الحياة اليومية المعاشة فى المستوطنة داخل الكتلة السكنية ، وأوضاع العمل اليومى أو الإنجاز العملى ، فى مجال إستخدام الأرض فى الزراعة ، أوفى مجال إقتناء الحيوان .

– وتمثلت هذه الإضافات المستجدة ، التى ناسبت خواص البيئة ، فى تحسين شكل المسكن ، وفى توسيع مساحة هذا المسكن ، فى إستخدام مادة البناء الأحسن . وتنامت الخبرة والمهارة فى قطع الاحجار وتشكيلها ، وتنوعت وإتسعت دائرة إستخدامات هذه الاحجار . كما تمثلت هذه الاضافات المستجدة أيضاً فى مجال صناعة وتشكيل بعض الادوات المتنوعة المناسبة ، لإستخدامات الحياة اليومية فى المسكن . وكان الهدف المنشود إنذاك ، هو أن تيسر هذه الاضافات حاجة الاقامة الهادئة ، وأن تلبى مطالب المعيشة الحياتية اليومية الأنسب . هذا بالإضافة إلى تحرى تأمين الحق الكامل ، فى التنعم بالدفء الاسرى ، فى المسكن الخاص ، ودون تفريط فى الدفء الإجتماعى العام فى حضن القوم ، على صعيد المستوطنة .

– وسواء إتخذت المستوطنة ، الشكل الدائرى ، أو الشكل المربع ، أو الشكل غير المنتظم ، حافظ التوسع الافقى وبناء مساكن مستجدة ، على هذا

الشكل . وكان هذه التوسع الافقى ، وإضافة مساكن جديدة ، من أجل إستيعاب النمو الديموجرافي وزيادة عدد الاسر . وأفضى تحسين شكل المسكن المتواضع ، تحسين شكل المستوطنة بصفة عامة . وقد ضم المسكن فى العادة ، مساحة مناسبة لمباشرة الحياة اليومية ، ومساحة مخصصة للنوم . كما ضم أيضاً صومعة لحساب تخزين الغلال ، وحظيرة للحيوانات . وغاب عن أى مسكن ، تجهيز المكان الخاص بقضاء الحاجة ، التى كان مجالها الأرض الفضاء على الأطراف البعيدة عن الكتلة السكنية .

– وجاوب هذا التوجه الابداعى المادى فى توازى بديع ، التوجه الابداعى المعنوى . وأفرز هذا التوجه الابداعى المعنوى ، حزمة من الاعراف والتقاليد والقيم. وقل التزم الإستقرار إنذاك بما جاء فى هذه الحزمة . بل قل تجنب الإستقرار الإعتراض عليها أو الاعراض عنها ، وهو يباشر حياته المطمئنة الامنة إقتصادياً وإجتماعياً . وحفلت ثقافة الحياة دائماً بتنامى وتأصيل هذه الحزمة من التقاليد والقيم . وكانت التجارب اليومية من وراء إضافات إلى محتوى هذه الحزمة . بمعنى أن تحرى القوم الأخذ الرشيد بدواعى وموجبات التغيير ، وإستيعاب مبررات هذا التطوير أو هذه الرضافة من حين إلى حين آخر . وكان هم القوم الاهم من أى شئ آخر ، هو تحسين أوضاع المعيشة المادية ، وتعزيز السكينة . كما تمادى الامعان فى ترسيخ حق الخصوصية الاسرية ، فى التنعم بالدفء الاسرى الخاص مرة ، وفى التنعم بالسلام الإجتماعى العام مرة أخرى .

– وفى إطار موروثات ثقافة الحياة ، الذى إستوجبت تحمل أعباء ثقيلة ، وكدح جاد لا يتوقف وعمل يدوى شاق لا يهدأ ، وإنجاز إقتصادى متواضع ، وكفاية ذاتية راضية ، لحساب حركة الحياة وإستمرار صمودها من خلال تعاقب الاجيال ، لم يكن فى وسع الابداع الحضارى ، أن يبتكر أو أن يوفر أى خدمة متواضعة من خدمات البنية التحتية ، فى المستوطنة . ولا يستثنى من ذلك ، غير إعداد سقيفة فى قلب الكتلة السكنية ، أوعلى هامش هذه الكتلة السكنية ، لحساب المصلحة العامة المشتركة . وكانت هذه السقيفة هى التى شهدت إجتماعات القوم من أجل السمر أو التشاور ، فى حضور ولى الأمر .

كما كانت تشهد أيضًا إجتماعات فض المنازعات ، أو بث روح المصالحة وتعزيز السلام الإجتماعى ، بين القوم أو العشيرة ، فى ربوع المستوطنة .

– وفى مجال تحسين الأوضاع فى ممارسات الحياة اليومية ، كان أقدام التوجه الابداعى الحضارى ، على توسيع قاعدة إستخدامات النار فى المسكن . وأصبح فى وسع حركة الحياة التعامل مع النار عن كثب وترويضها ، وتجنب اذاها ، لحساب الاغراض المنزلية المتنوعة . وتأتى ذلك الإستخدام الرشيد ، فى توازن فعلى ، بين سبل الإنتفاع بالنار على أوسع مدى فى جانب ، وسبل تحرى السيطرة عليها ، وتحرى تجنب إحتمالات التضررمنها فى جانب آخر . وكم أفلح هذا الترويض الذكى ، وكم أفلح التطوير فى مجال هذا الإستخدام . وقد تنعم الإستقرار إنذاك بإستخدام النار فى الإضاءة ، لكى يحلو السهر ، وفى مجال الطهى ، لكى يحلو الطعام ، وفى مجال صناعة الفخار لكى يحلو الوعاء .

– وليس أهم مرة أخرى ، ومن إقدام التوجه الابداعى الحضارى ، الذى التمس وكفل تنمية النقلة النوعية الحضارية ، على تحسين مستوى التحجير مرة . وعلى تحسين سبل إستخدام الاحجار مرة أخرى . وقد وظف هذا التوجه الخبرة ، وصقل المهارة ، فى قطع الاحجار ، وفى تشكيلها فى الشكل الأنسب للإستخدام . وأفضى هذا التطوير لاقدم صناعة مارسها الإنسان إلى صناعة أو صياغة أدوات من الأحجار ، وكانت صناعة الرحاية آنذاك ، هى الأهم لحساب حركة الحياة . وأصبح فى وسع حركة الحياة طحن الغلال ، التى تعود على إنتاجها ، فى المكان والزمان . وإتخذ القوم من هذا الطحين ، المادة الخام لصناعة الخبز . وقل أسعفت المهارة فى اشعال النار ، وفى السيطرة عليها ، صناعة الخبز اليومى ، وتغطية إحتياجات القوت اليومى ، وتحسين مستوى الوجه الغذائية اليومية بصفة عامة ، وتحسين مستوى المعيشة بصفة خاصة .

– هذا ، وفى الوقت الذى جاوب فيه الإبداع الحضارى المتجدد ، إرادة ثقافة الحياة ، فأضاف وجدد وتحرى تحسين أوضاع سيناريوهات الحياة اليومية المعاشة فى إطار المسكن الخاص ، أو فى إطار سبل التعايش الإجتماعى فى المستوطنة ، أو فى إطار الإستهلاك وتغطية إحتياجات شهيته المنفتحة ، لم يكن

فى وسع هذا الإبداع الحضارى ، أن يجدد ، أو أن يضيف ، أو أن يبتكر شيئًا جديداً ، فى مجال تطوير أو تغيير سيناريوهات الزراعة المطرية ، أو سيناريوهات إقتناء الحيوان . بمعنى أن سار الجمود فى مباشرة الزراعة المطرية بالاسلوب التقليدى الذى لم يتغير . بل قل فى اطار التوسع الافقى ، وإضافة مساحات جديدة إلى الأرض المزروعة ، ظل السيناريو يتكرر من جيل إلى جيل آخر دون تغيير . ولم يهتم هذا الايداع الحضارى ولم يشغله أبداً تحرير الزراعة المطرية ، من أسـر الأوضاع البدائية المتواضعة ، أو من أساليب الإنجاز البدائى التقليدى الجامد .

– وقل لماذا التفكير فى هذا التحرر ، فى الوقت الذى كان فيه حصاد الزراعة المطرية البدائية المتواضعة ، إضافة إلى معطيات الإنتاج الحيوانى الأكثر تواضعاً ، من وراء كفاية ذاتية مشبعة ، رضى بها الإستقرار . وعزز هذا الرضا مواصلة التعامل مع موارد الإنتاج الطبيعى ، أو من أجل الصيد ، لتأمين هذه الكفاية الذاتية . وسد هذا التعامل مع الإنتاج الطبيعى الفجوة ، بين حصاد الإنتاج الإقتصادى المتواضع فى جانب ، وشهية الإستهلاك المنفتحة فى طلب المزيد فى جانب آخر . وغطى هذه الفجوة أيضًا ، التعامل الإقتصادى ، وحركة تبادل السلع بين الأقوام . وتذكر فى هذا المجال كيف كان تبادل السلع ودور الوسيط الذى قام بهذه المهمة ، أسبق من التفكير فى إقـامة السوق ، لكى يمثل المكان الذى يشهد اللقاء بين العرض والطلب .

– ولحساب ثقافة الحياة ، وفى رصيدها المتوارث ، كان تنظيم وتعظيم قيمة العمل والكدح المتواصل . وقد تأتى فى إطار توزيع تكليفات العمل ، الكدح دون ملل فى ،

أ – حقل الإنتاج الزراعى ، فى أنحاء المساحة المزروعة ، من أجل إنتاج الغذاء .

ب – حقل الإنتاج الحيوانى ، فى إنحاء المراعى ، من أجل إضافة حسنت مستوى الغذاء

جـ- حقل الإنتاج الطبيعى ، على أوسع مدى ، من أجل إضافة أخرى حسنت مستوى الغذاء .

د- حقل التعامل الإقتصادى من خلال الإنفتاح ، من أجل تبادل السلع وتبادل المنافع بين العرض والطلب .

-ولحساب ثقافة الحياة ، وفى صلب رصيدها المتوارث ، تأتى الإهتمام بطلب المعرفة . وفتح هذا الطلب باب التنوير أكثر من أى شئ آخر . وتمثل الهدف المنشود ، فى معرفة بالطبيعة والواقع الطبيعى فى المكان ، وهى التى كان على القوم أن يعايشها ، ويستشعر خواصها ، ويلاحظ تداعياتها . وقد استوجب طلب هذه المعرفة التطلع والتمعن فى ما حوله على محورين . وعلى المحور الأول ، كان التوجه إلى معرفة مساحات الأرض من حوله . وعلى المحور الثانى ، كان التوجه إلى أعلى ومراقبة السماء ، ومتابعة الإجرام السماوية . وكم لاحقت العيون المنظور الجغرافى على صعيد الأرض ، فى ضوء النهار ورصد خواصه . وكم لاحقت العيون المنظور الجغرافى على صعيد السماء ، فى ظلام الليل ، ورصد أجرامه .

- من خلال هذه المطالعة والتماس المعرفة ، ومن خلال التمعن فى المنظور الجغرافى الطبيعى على الأرض ، أو المنظورالجغرافى الطبيعى فى السماء ، كان إستشعار التغير ، دون تفكير فى دواعى أو موجبات هذا التغيير . ورسخ هذا الإستشعار فكرة التغير ، والإستعداد لقبول تداعيات هذا التغير ، وحتمية التعامل معه سلبًا وإيجابًا . كما كان إستشعار قوة فعل الطبيعة ، التى رصد متغيراتها . وقد تمعن الإستقرار إنذاك فى كنه وماهية هذه القوة . كما تمعن فى تداعيات ومتغيرات هذه القوة ، الفاعلة على صعيد الأرض مرة ، وعلى صعيد السماء مرة أخرى ، وكان من الطبيعى أن يستوعب هذه القوة ، وأن يقدر ماوراء هذه القوة . وقد تملكه أمر إحترام هذه القوة . بل قل تمادى إحترامه إلى تقدير ما هو غائب عن وعيه ، فيما وراء قوة فعل القوة .

- وأفضى التطلع على الأرض ، ومتابعة المنظور الجغرافى على أوسع مدى ، من وراء رؤية النيل عن بعد . وقد تابع بالضرورة جريان المياه الذى لا

يكف ولايتوقف . كما تابع علو وإرتفاع المنسوب ، وإنخفاض المنسوب ، ومن حول النيل وعلى ضفافه ، رصد السهل الفيضى من بعيد . وشاهد النمو النباتى الطبيعى ، كما شاهد الوجود الحيوانى على هذا الصعيد . ومن غير أن يدرى شيئاً عن هذا الجريان الرتيب ، أو أن يسأل عن مصدر هذا التدفق الذى لا يتوقف ، كان تقديره لفعل الطبيعة . بل عاشت هذه الرؤية عن بعد فى ذاكرته . وما غاب عنه أن يلجأ فى الوقت المناسب إلى السهل الفيضى ، ويقترب من النيل ، يوم أن تعذرت فرص الوجود والحياة المطمئنة ، فى الوطن المهجور .

– وكان التطلع إلى السماء ، ومتابعة أوضاع الاجرام السماوية وحركتها ، وهى تغيب وتظهر ، ومتابعة المنظور الجغرافى السماوى ومواصفاته والسماء صافية أحياناً ، ومواصفاته والسماء ملبدة بالغيوم أحياناً أخرى ، من وراء تقدير قوة الفعل التى تفعل الشئ تارة ، وتفعل ضده تارة أخرى . ومن وراء الحجاب الكثيف التى كانت القوة تتستر خلفه – وهى تسوق السحاب ، أو وهى التى تنزل المطر ، نشأ وتغلغل فى القلوب إحترام وتقدير الغائب المجهول . وبدأ عندئذ المشوار الذى وثق العلاقة ، بين غائب مجهول بيده القوة والقدرة على الفعل فى جانب ، وحاضر معلن مستسلم لتداعيات هذه القوة وفعلها ومتغيراتها فى جانب آخر . ومن تحت عباءة إستشعار هذه العلاقة ، ولدت حاجة حركة الحياة إلى التقرب إلى هذا الغائب المجهول ، والتماس قوة فعله الذى يترفق بالحياة ، فى المكان والزمان .

– وبموجب إسقاط من إحترام وتقدير الغائب المجهول ، وهو قادر بالقوة ، تأتى إحترام وتقدير الحاضر المعروف ، وهو قادر بالفعل . واستوجب هذا الاحترام ، إعلاء مكانة ولى الأمر ، وفى يده سلطة الفعل ، وإصدار الأمر . ومن ثم إستشعر القوم فى المستوطنة مسئولية ولى الأمر عن الرعية . وقد القى الإستقرار على كاهل ولى الأمر إنذاك المسئولية بشكل أو بآخر ، عن ؛

أ– ترسيخ ودعم وتعزيز دواعى ومبررات الامن الإقتصادى ، الذى يجاوب الحاجة إلى الطعام ، وبضبط إيقاعات متغيرات العلاقة الحتمية، بين الإنتاج والإستهلاك ، أو بين العرض والطلب .

ب– ترسيخ ودعم وتعزيز دواعى ومبررات الأمن الإجتماعى ، الذى

يجاوب الحاجة الملحة إلى الدفء الإجتماعى ، ويؤمن فى نفس الوقت السلام الإجتماعى والمحافظة عليه .

– وسواء قفز من أمتلك القوة ، ودلل على إمتلاكها ، حتى نال إحترام وتقدير القوم فى المستوطنة ، وتربع على كرسى ولى الأمر وباشر الحكم ، أو وقع إختبار القوم على الشخص القوى ، الذى إكتسب الإحترام والتقدير فى المستوطنة ، فأجلسوه بكامل الرضا على كرسى ولى الأمر ، وعهدوا إليه بمباشرة مهامه ، فقد كانت القوة ، هى السند الشرعى لولاية الأمر وليس غير القوة . وأصبح ولى الأمر ، وهو يباشر دوره الوظيفى ، مطالبًا بوضع القوة التى يتمتع بها فى خدمة القوم . وقد أمسك ولى الأمر باليد القوية عصا السلطة . وأصبح له حق الأمر والنهى ، وعلى القوم فى المقابل واجب السمع والطاعة . وفى مقابل أداء هذه الخدمة لحساب القوم فى إطار المستوطنة ، إستحق ولى الأمر حق السيادة عليهم .

– ومن تحت عباءة سيادة ولى الأمر ، وكبير القوم فى المستوطنة ، تأتت سيادة كل القوم المطلقة على الأرض . وكان على ولى الأمر وهو خادم القوم ، وهو سيده فى نفس الوقت ، مسئولية ، أن يراعى ويحافظ عى مقومات هذه السيادة . وقد عززت هذه السيادة أصول وقواعد ومقومات الأمن الإقتصادى مرة ، ودعمت دواعى ومبررات الأمن الإجتماعى مرة أخرى ، لحساب كل القوم وسيادتهم فى المكان والزمان . وهكذا كان ولى الأمر وعصا السلطة فى قبضته ، وهو الرجل أحيانًا أو وهو المرأة أحيانًا أخرى ، مسئولاً كل المسئولية ، عن ضبط إيقاعات حركة الحياة ، على كل المحاور داخل الكتلة السكينة أو خارجها . وكان مفارقة الحياة أو قل الموت هو وحده الذى كان من شأنه انهاء دور ولى الأمر الأمر الوظيفى . وهناك بالضرورة ، ولى الأمر الذى كان يخلفه .

– وصحيح أن إقامة هذا النظام الحاكم البسيط المتواضع ، وتسليم مقاليد السلطة لولى الأمر المسئول القوى ، على صعيد المستوطنة ومجالها الحيوى ، قد رسخ بعداً جوهرياً من أبعاد النقلة النوعية فى تاريخ حياة الإنسان .

– وصحيح أيضاً أن وظيفة ولى الأمر المسئول عن الأمن والنظام فى أبسط صورة ، قد جاوب إرادة القوم فى المستوطنة ، وأضاف شيئًا مهمًا ، إلى رصيد

موروثات ثقافة الحياة ، وعزز سيادة القوم فى المكان والزمان .

– وصحيح مرة أخرى ، أن آداء وظيفة ولى الأمر ومن يعاونه بموضوعية وجدية وأمانة ، قد عزز ورسخ سيادة القوم ، على صعيد مساحة من الارض ، هى الوطن على المسرح الجغرافى ، فى المكان والزمان .

– ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو أن الجمع بين الأرض وهى الوطن العزيز ، والناس وهم أصحاب السيادة وحق المواطنة ، تحت مظلة سيادة ولى الأمر ، وحكمه البسيط المتواضع فى المكان والزمان ، هو الذى لقن حركة الحياة ، أول درس عن مفهوم الدولة ومقوماتها .

– هكذا ، ينبغى أن نفطن جيداً ، أو أن تستوعب فى نهاية المطاف ، كيف كانت هذه التوليفة على صعيد المستوطنة فى مكانها الجغرافى ، والتى أعلن عنها وجود ولى الأمر حاكم وصاحب سلطة ، من وراء نموذج متواضع لدولة غير مكتملة النضج (١). وكانت عصا سلطة الحاكم ، التى أمسك بها ولى الأمر ، وكأنها عصا المايسترو الذى تحرى بالفعل تنسيق وضبط وتنظيم ، إنسياب إيقاعات النغم ، فى معزوفة حركة حياة الإستقرار ، فى المستوطنة ومجالها الحيوى . ومن ثم إكتسب هذا الوضع شرعيته وحق الإعتراف الملزم به .

– كما ينبغى أن ندرك جيداً أو أن تستوعب فى نهاية المطاف ، كيف تكرر سناريو هذا النموذج البسيط المتواضع ، على صعيد كل مستوطنة من المستوطنات ، التى إحتوت الإستقرار ووجود الاقوام ، على أوسع مدى فى أنحاء المسرح الجغرافى الواسع . وتكرار هذا النموذج ، وتوالى مشاهد هذا السيناريو لا

---

(١) قيام نظام الحكم على صعيد الوطن ، فى أى شكل من الأشكال ، هو الذى يعلن عن مولد الدولة ، ويجسد وجودها السياسى . ويتحمل نظام الحكم فى الدولة الناضجة المسئولية على وجهين . وتكون المسئولية على الوجه الأول مسئولية سياسية ، تؤمن سيادة الشعب على الأرض وطناً عزيزاً . وتتحرى فى نفس الوقت إعتراف مجتمع الدول بهذه السيادة . وتكون المسئولية على الوجه الآخر ، مسئولية مدنية فى خدمة الشعب . وتتحرى فى نفس الوقت أن تضبط إيقاعات حركة الحياة اليومية ، وأن تقدم الخدمات للشعب ، سواء كانت مجانية أو مدفوعة الأجر . وعلى كل وجه من هذين الوجهين جهاز حكومى خاص تنفيذى ، يتحمل تبعات العمل لحساب الوطن والمواطن .

يعنى بالضرورة التماثل . وقل إنه يعنى التشابه فقط ودون تزامن . ذلك أن خواص البيئة فى كل مستوطنة ، وخصوصية أوضاع الإستقرار الحياتية فيها ، كانت بالضرورة ، من وراء خصوصية كل توليفة ، جمعت بين الوطن والمواطن تحت لواء ولى الأمر ، فى المكان والزمان .

– وآداء ولى الأمـر دورة وإنجاز مسئوليته ، لم يكن من خلال جهاز متفرغ ، ضم الاعوان ، الذى تسند إليهم مهاماً معينة . وقل كان آراء ولى الأمر ، وهو وحده متفرداً ، حسب الحاجة . بل قل لا مجلس للحكم، ولا اعوان متفرغين . وبصرف عن المكانة وحق ولى الأمر فى الحكم ، كان عليه أن يعمل ، كما يعمل الآخرون . بمعنى أن كان شريكاً لقوة العمل ، وهو لا يتمادى فى الإستعلاء على أنداده . وكان من شأنه أن يقدم النصيحة أحياناً ، أو أن يأمر وينــهى أحياناً أخرى ، من خلال الخبرة والدروس المستفادة من التجارب الحياتية .

– ومشاركة ولى الأمر قوة العمل ، ومباشرة الحياة العادية المتواضعة ، ما أنقصت من مكانه ولى الأمر ، أو من إحترام القوم له ، وتقديره . وكان له الحق دائماً فى أن يشاور النخبة أحياناً ، أو ينيب عنه أحداً لإنجاز تكليف معين من التكليفات . ومن غير أبهة وطقوس ومراسم تعلى مقامه الكبير ، وتعظم مكانته فى القوم . ومن غير حاشية أو بطانة تحبط به وتعظمه ، كان ولى الأمر فى مجلسه حاكماً وحاسماً له كل السمع والطاعة . وقد جاوبت أحكام ولى الأمر دائماً ، حاجة القوم وخصوصية أوضاعهم فى وطنهم الخاص .

هذا ، وقد جاوبت هذه الخصوصية فى كل توليفة جمعت بين وطن ، وقوم ، وولى أمر ، وإتخذت شكل الدولة فى المكان والزمان ، الخصوصية التى كان قد تمتع بها كل قوم من الأقوام ، فى مستوطنه الخاصة . ومع ذلك ما كان من شأن هذه الخصوصية والحرص عليها ، أن أفضت أبداً إلى الإنغلاق على الذات ، والتقوقع ، وإستدبار الاخر . بل تقـنن الإنفـتاح المشـروع ، وظلت قنوات التعامل الإقتصادى ، ومجالات التواصل الإجتماعى ، وفرص الإحتكاك الحضارى مفتوحة ومتاحة ، تحت سمع ولى الأمر وبصره ، فى كل مستوطنة .

– وكان هذا الإنفتاح المقنن والمشروع بين الأقوام فى مستوطناتها ، وكان إعتراف وإستعداد حقيقى لقبول الآخر . وتلك بالقطع أقصى ما وصلت إليه تداعيات النقلة النوعية ، التى بدأت فى الأصل بإنتاج الغذاء ، والتحرر الجزئى على أقل تقدير ، من سطوة الإنتاج الطبيعى ومتغيراته ، ومباشرة الإستقرار فى صحبة توليفة إجتماعية تجانست مع مرور الوقت . وأصبح النظام الحاكم الذى تمثل فى ولى الأمر ، الرجل أحيانًا أو المرأة أحيانًا أخرى ، فى مستوطنة خاصة له خصوصية ، وهو مسئول مرتين ،

– **مرة أولى** عن تأمين الفرد وحق الفرد ، وتأمين الجماعة وحق الجماعة ، فى الأمن الإقتصادى ، وفى الأمن الإجتماعى ، على مستوى المستوطنة .

– **مرة ثانية** عن تأمين حسن التعامل وحسن التواصل ، وحسن علاقات الأخذ والعطاء ، وحسن الجوار بين القوم فى المستوطنة ، وسائر الاقوام الأخرى فى مستوطناتها .

– وعلى الوجه المعنوى من وجهى الابداع الحضارى ، والتوجه السديد ، لحساب ثقافة الحياة وتنمية الرصيد ، تحرى هذا الإبداع على صعيد المسرح الجغرافى الخاص ، لكل قوم من الأقوام المتغرقة والمستقرة فى مستوطناتها فى المكان والزمان ، وضع وصياغة مفردات اللغة ومسميات الأشياء التى تعارف الناس عليها . وكانت هذه المفردات اللغوية والمسميات ، وسيلة للتخاطب بين الأفراد ، ومباشرة التعبير والكلام ، وإجراء الحوار . وكانت هذه المفردات والمسميات ، من أجل توضيح المعانى وبيان المفاهيم ومدلولاتها ، لحساب الفهم المشترك العام ، أو لحساب الفهم الفردى الخاص . وقل لا شئ أبداً كان أهم من وحدة اللغة ، وهى من وراء توثيق عرى التوليفة الإجتماعية . بل قل أن وحدة اللغة كانت هى المدخل الصحيح للتجانس الإجتماعى على أقل تقدير .

– وإبتكار مفردات اللغة ، وصياغة المسميات ، إستوجب الإتفاق والقبول بها . وأشاع هذا الإتفاق حق إستخدام هذه المفردات والتخاطب ، وآداء دورها الوظيفى المناسب ، من أجل الفهم المشترك . وهذا الإبتكار الذى فتح أبواب الفهم المشترك ، كان لا يعنى أبداً إبتكار حروف الكلام ، ولا يعنى ترتيب هذه الحروف فى الكلمة . بل قل كان هذا الإبتكار مجرد تعارف على مدلول

الكلمة المنطوق ، وعلى كيفية إستخدامها للتعبير . ومع مرور الوقت ، تنامى رصيد المفردات والمسميات ، وتنامى مباشرة الحوار . وكان هذا التنامى حافزاً مهماً ، لحساب المزيد من التجانس الإجتماعى .

– وفى إطار تداول الكلمات وترسيخ المدلول ، وفى إطار مباشرة الكلام وتوضيح المفهوم ، لم يكن فى وسع هذا الإبداع الحضارى ، صياغة رسم أو شكل معين للتعبير عن كل حرف من حروف هذه المفردات اللغوية . ومن ثم لم يكن فى وسع هذا الإبداع ، مباشرة تدوين أو كتابة هذه المفردات اللغوية والمسميات . بمعنى أن وقف هذا الإبداع عند حد لا يتجاوز إنجاز لغة التخاطب والكلام ، التى يسرت عرى التفاهم ، ووثقت أواصر التواصل الإجتماعى بين أفراد القوم ، وهم يباشرون أنشطتهم ، أو وهم يتفاهمون ، أو وهم يتسامرون . وقل أن غياب الحاجة إلى مباشرة التدوين والكتابة ، هى التى حرمت الابداع الحضارى من التفكير فى رسم حروف الكلام .

– وفى إطار التعامل الإقتصادى ، ومن خلال التواصل الإجتماعى ، ومن أجل إستثمـــار الإحتكاك الحضارى ، بين الأقوام فى المستوطنات المتباعدة ، تنامى الأخذ والعطاء . وجاوب تبادل المنافع إقتصادياً ، وإجتماعياً ، وحضارياً ، الإنفتاح وحتمية دواعى ومبررات التحلى به . كما تنامى الإستعداد لقبول الآخر ، والتفاهم معه وعدم إستدباره والاعراض عنه . وفى ظل هذا الإنفتاح بين الأقوام ، والإستعداد لقبول الآخر ، ودون إنتهاك خصوصية كل قوم ، والحرص على عدم التفريط فيها ، تنامى الإحتكاك الحضارى الثقافى . ومع مرور الوقت وتعاقب الاجيال ، وتفتح قنوات التفاهم بين الأقوام ، أفضى الإحتكاك الثقافى ، إلى تعظيم جدوى الحوار من أجل مشوار الأخذ والعطاء دون حرج أو تحفظ مرة ، وإلى تنشيط دواعى ومبررات الإتفاق على بعض مفردات اللغة ومدلولاتها لحساب هذا الحوار مرة أخرى . وأسقط هذا الإتفاق بعض وليس كل حواجز العزلة بين الأقوام ، ورسخ التحلى بالإنفتاح ووسع قنواته إلى حد كبير .

– وتوحد بعض وليس كل مفردات لغة الخطاب والمسميات ، على مستوى الاقوام ، وتشابه بعضها الآخر فى النطق دون مساس ، أو إنتهاك أو

تفريط فى خصوصية كل قوم فى مستوطنة ، عظم ونشط أوجه التعامل الإقتصادى بصفة خاصة بين العرض والطلب . كما وسع فرص عمل من تصدى لخدمة العلاقة بين العرض والطلب . وفى غياب المعرفة بالسوق وإختبار الموقع المناسب له ، وفى تنامى فرص التسويق ، رسخ التعامل هذا التوحد اللغوى . وجاوب ذلك بالضرورة إتساع دائرة النظام الإقتصادى العينى ، لحساب تفتح شهية الإستهلاك أحياناً ، أو لحساب تفجر شهرة الإستهلاك أحياناً أخرى .

– وتوحد بعض وليس كل مفردات لغة الكلام والحوار والمسميات ، على مستوى الأقوام ، وتشابه بعضها الآخر فى النطق دون تجاوز الخيط الرفيع الفاصل بين خصوصية القوم ، وخصوصية الأقوام الأخرى ، عظم ونشط ووسع دوائر التواصل الإجتماعى فيما بين الأقوام . وتمثل ذلك فى التزاوج والإختلاط المتبادل ، والترابط والمصاهرة الإجتماعية . وبانت عندئذ مؤشرات وإرهاصات ، وكان توجه الأقوام عن طيب خاطر إلى شئ من التجانس اللغوى . وقل أفرز هذا التوحد اللغوى أجيالاً كانت أكثر إستعداداً لفهم الآخر ، والقبول به . بل قل أفرز هذا التوحد اللغوى الجزئى ، بين الأقوام ، أهم معطيات ثقافة التنوير ، التى أصبحت آنذاك شريحة مهمة من شرائح ثقافة الحياة .

– وقد أفضت رسالة هذا التنوير المشترك المناسب لهذا العصر ، وإنتشرت على أوسع مدى ، إلى دعم وتوسيع وتعزيز قاعدة ثقافة الحياة . كما أفضت مرة أخرى إلى تعميق دائرة التفاهم المشترك العام بين الأقوام . وإستوجبت موضوعية رسالة التنوير إنذاك وضع ، أو قل صياغة أهم لبنة فى صلب بناء إجتماعى متنور . وبموجب وضع هذه اللبنة فى مكانها الصحيح ، بدأ مشوار التجانس بداية هادئة ومتأنية . وكان هذا الهدوء والتأنى حريصاً على تجنب إختراق أو إسقاط موجبات الخصوصية للذات الخاصة لكل قوم من الأقوام ، على صعيد المسرح الجغرافى الخاص به ، فى المكان والزمان .

–وفى ظل توحد بعض مفردات لغة الخطاب ، وليس كلها مرة ، وفى ظل إختلاف وتباين منطوق هذه المفردات مرة أخرى ، إشتركت الأقوام من غير قصد فى الغالب ، وفى تناغم عجيب ، وهى تباشر سرد الحكاوى أو وهى

تتحرى صياغة وتداول الاساطير ، أو وهى تجتر الغرائب والتخاريف . وكم عبر ذلك السرد عن شطحات الخيال الخصب . وجسدها وكأنها واقع . وكم تحـدث ذلك الحكى من العجائب والغرائب . وكأنها حقيقة . وكم تمادى الكلام فى عرض الغيبيات ، وكأنها حاضرة . ولعبت مجالس السـمر دوراً ، فى هـذا الحديث ، وبشرت بإشتراك الأقوام فيه من غير تحفظ ، أو من غير حرج .

– ومن تحت عبـاءة هذا كله ، خرج وتنامى هذا الابداع الثقافى للأقـوام . بل قل شاع الأخذ بمعطياته ، وصار ترديده وإستحسان الإستماع إليه . وأصـبح فى وسع هذا الإبداع الثقافى ، وهو أهم مصادر التنوير صياغة أهم القيم ، وتأصيل قواعد الإعراف ، وترسيخ التقاليد ، التى قبل بها كل قوم على إنفراد ، وإرتضتها وعملت بموجبها كل الأقوام . وسجل ذلك التوجه وهو يتنامى وتستقر قواعده مع تعاقب الاجيال ، تحت مظلة الابداع الثقافى وإتساع طاقات التنوير ، بداية متواضعة ومتأنية ولكنها جادة فى نفس الوقت ، فى مجـال توسـيع دائرة الإنتمـاء القومى من المستوى الخاص على صعيد القوم ، إلى المستوى العام على صعيد مجموعة الأقوام .

– ومن تحت عباءة النهج السائد المشترك بين الأقوام ، فى مجال التعود على تداول الحديث عن كل الغرائب والعجائب ، وعن شطحات الخيال الخصب مرة ، وعن التمعن فى كنه وماهية الغيبات مرة أخرى ، توحد إستشعار سائر الأقوام ، بقوة فعل الغائب المجهول . وجسد هذا الإستشعار معنى ومغزى الاعجاب بهذا الغائب المجهول ، وكيف يتمتع بالقدرة المطلقة على الفعـل . وقل أطلق هذا الإستشعار المشترك بين الأقوام ، العنان للتمعن والتدبر ، والتفكير العميق فى كنه قدرات هذا الغائب المجهول . بل قل بشر هذا التفكير فى مرحلة ، ثم أتاح بعد ذلك فى مرحلة أخرى ، فرص إستيعاب مفهوم الالوهية .

– وفى صفحة من صفحات ثقافة الحياة ورصيدها المتنامى ، كانت هذه البداية المبكرة والمتواضعة ، فى التفكير فى قوة الغائب معنوياً ، وفى عجيب

فعله الحاضر مادياً . وإكتسب هذا الغائب بموجب هذا التفكير ، كل التقدير الذى بنى على مبدأ إحترام القوة ، وحتمية الإعجاب بها ، والخضوع لها . ومع مرور الوقت والتمادى فى الإحترام والاعجاب ، كان التحول فى مرتبة التقدير ، إلى مرتبة التقديس . وإستوجب إحترام وتقدير قوة فعل هذا الغائب فى مرحلة ، وتقديس فعل هذا الغائب فى مرحلة أخرى ، أكثر من وقفة تأمل وتدبر وتفكير . وأفضى ذلك التفكير الفردى أحياناً ، والجماعى أحياناً أخرى ، إلى عجز فعلى فى إستيعاب كنه هذا الغائب ، الذى إستحق التقدير .

– ومن تحت عباءة هذا العجز المطلق ، كان فقدان القدرة على التجريد ، الذى تعذر على العقل الفردى أو الجماعى القبول به أو إستيعابه . ومن ثم استوجب الأمر التحول إلى التجسيد ، الذى أباح وحقق فرص الإحساس به عن كثب . وجاوب هذا التجسيد ، الرغبة الملحة ، فى مباشرة التقرب إليه، وطلب العون المنشود منه . وساء الإعتقاد الجماعى إنذاك فى جدوى هذا التجسيد ، الذى أنهى اللهفة على معرفة المجهول الغائب عن الأعين ، أو الذى إستحق التقديس .

– وفى إطار وضع أول لبنة فى صياغة ثقافة الإعتقاد ، إمتلك كل قوم من الأقوام ، حق الإختيار الخاص ، فى شأن تصور ذلك التجسيد للغائب . وتمثل هذا التجسيد المادى ، فى الصورة الذهنية للاله الغائب عن الابصار ، لكى تتخذ الشكل المادى المعين ، الذى يقع عليه الإختبار . ومن صلب توليفة الواقع الطبيعى ، على صعيد المسرح الجغرافى الذى إحتوى كل قوم ، تأتى الالهام أو الإيحاء ، الذى بصر هذا الإختبار . وبصرف النظر عن طبيعة هذا الشكل المادى ، وبصرف النظر عن رصد دواعى ومبررات ، هذا الإختبار ، كان التوجه الفردى والجماعى توجها حتمياً إلى تقديس الوثن . وساد إنذاك بين القوم الإعتقاد فى هذا الوثن . ونال الحق كل الحق فى التقدير والتقديس .

– هكذا أصبح فى وسع كل قوم من الأقوام ، مباشرة العلاقة بين العابد والمعبود . وإكتسب القوم الفرد أو الجماعة الاقرار بمفهوم العبودية . وفى إطار هذه العبودية ، تأتى حق التقرب إلى الاله الذى جسده الشكل المادى للوثن . وكم وقف من وقف أمام هذا الوثق ، وباشر طقوس الإبتهال ، وناشد الاله

التماس الرضا. وكم توسل إليه وقدم القرابين ، فى صحبة الثناء عليه . ومن صفوف القوم ، ظهر من تولى مهنة الكاهن . الذى أصبح مسئولاً عن الوثن . ونال هذا الكاهن إحترام القوم ، وإكتسب المهابة .

– ومع مرور الوقت ، وتعاقب الاجيال ، والتمادى فى التقرب للوثن ، تغلغلت بذور هذا الإعتقاد ، فى نفوس الأقوام . وتحرى كل قوم مباشرة الطقوس التى إبتدعوها . وتحرى بعض المبدعين صناعة الوثن ، ثم خروا له ساجدين . وأصبحت ثقافة الإعتقاد شريحة هامة من شرائح ثقافة الحياة . وتداخل هذا الإعتقاد تداخلاً مباشراً . فى تكامل بناء شخصية القوم مرة ، وفى تكامل بناء شخصية الفرد مرة أخرى . ورفع هذا الإعتقاد مكانة الكاهن ، حتى أصبحت لا تقل عن مكانة ولى الأمر .

– ومن تحت عباءة الإنبهار أحياناً ، أو الإعجاب أحياناً أخرى ، بقوة فعل الاله الغائب ، وهو من وراء كل الظاهرات الطبيعية المتنوعة التى واجهت حركة الحياة ، ولد الإعتقاد فى الاله أو الالهة التى جاوبت هذا الإنبهار فى المكان والزمان . ومن ثم تعددت فى تصورهم الالهة . وكان فى إعتقادهم الراسخ ، أن لكل إله شأن وخصوصية وقوة الفعل ، التى كانت تشد الإنتباه وتبهرهم .

– وفقدان القدرة إنذاك على التجريد المطلق للإله ، والتوجه من غير وعى إلى التجسيد ، أفضى فى نهاية المطاف إلى تعدد الالهة . وإستوجب تعدد الالهة الذى أوحى إليه تنوع الظاهرات الطبيعية ، إلى تعدد الأوثان . وكان كل وثن من هذه الأوثان ، يجسد الإله الذى وثقوا صلته بظاهرة طبيعية معينة ، على المسرح الجغرافى . وكانوا يتقربون إليه ، ويخرون له سجدا . وغاب عن القوم والعقل الجماعى ، وما خطر على فكرهم أبداً ، توحد الإلهة فى إله واحد ، وما كان فى وسعهم أبداً إستيعاب التجريد ، والأعراض أو الإقلاع عن التجسيد .

– وفى مقابل ثقافة الحياة ، التى صورت وأثرت أوضاع الوجود الحياتى المتواضع المعاش ، والتى بصرت ورشدت ونمت مع مرور الوقت وتعاقب الاجيال مسيرة وآداء الأنشطة الإقتصادية والإجتماعية والحضارية ، والتى أفرزت وتبنت ثقافة الإعتقاد ، وغرست بذرة التدين فى القوم ، على صعيد المسرح

الجغرافى الخاص بكل مستوطنة ، تأتت وتراكمت طقوس ورصيد موروثات ثقافة الموت . وقد جاوبت ثقافة الموت ، مراسم الحزن ولوعة الفراق والأسى على من قضى من الأهل نحبه ، وغاب عن القوم ، وإنتهى أجله . كما جاوبت ثقافة الموت مرة أخرى ، التمعن والتفكير فى كنه الموت ، وفى مصير الميت ، وكيف قبر فى التراب ، وغاب عن الساحة .

– و إذا كان القوم قد إستوعبوا جيداً ، كيف كان الميلاد وخروج الولد من الوالدة ، وتحرى مباشرة طقوس الفرحة بالوليد ، وهو إضافة إعتزوا بها ، أصبح من الطبيعى تحرى وإستيعاب ، كيف كان الموت ، وغياب الميت عن ذويه ، وتحرى مباشرة الحزن على الميت ، وهو خصم موجع ألم بهم . وتحرى القوم بالضرورة صياغة الطقوس ، التى أرست قواعد وتقاليد تشييع الميت ، وهو مغادراً الحياة معهم . كما تحرى القوم مرة أخرى صياغة طقوس وتقاليد وقواعد دفن الميت فى قبره . كما تبنى القوم صياغة مراسم الحزن ، وكيفية التعبير عن هذا الحزن ، ومراسم العزاء والمواساة لأهله وبين بنى جلدته .

– ومع غياب من مات وإنتهى أجله ، بعد أن سار المشوار على درب الحياة الدنيا ، خروجاً من رحم الأم ودخولاً فى رحم الأرض وقبره ، ردد الاحياء من القوم فيما بينهم السؤال الذى سأل عن مصير الميت . وأسئلة كثيرة ترددت وهى تسأل لماذا ، وكيف ، وإلى أين رحلة توجه الميت إلى عالم الغيب . وقد سيطر على كل من فكر وتمعن ، وكل من سأل وإلتمس الإجابة ، فكرة أن الوليد الذى يـولد ، وخــرج من رحم الأم ، لا يتأتى من عدم ، أو لا يكــون من عدم . وقال قائلهم أنه موجود من موجود ، ونفى بشدة فكرة العدم .

– وهكذا سيطر على فكر من إستفسر عن مصير الميت الإعتقاد فى أن الإنسان الذى يموت ، وأدخلوه فى رحم الأرض ، لا ينتهى إلى عدم . وأصبح فى إعتقادهم أن الموت ، هو جسر عبور من وجود ظاهر وملموس إلى وجود آخر غير ظاهر . بمعنى أن سار الإعتقاد فى رفض فكرة العدم بشكل قاطع . ومن ثم كان الإقتناع أو قل الإيمان بالخلود ، وهو الذى يعنى إنتقال من وجود كان فى الدنيا ، إلى وجود آخر يكون فى العالم الآخر .

– ومن تحت عباءة الإيمان بالخلود ، ورفض فكرة العدم ، ولدت فكرة

إنتقال الميت الذى إنتهى مشوار حياته من الوجود الحاضر فى الحياة الدنيا ، إلى مشوار حياته فى الوجود الغائب فى الحياة الأخرى . وخففت هذه الفكرة عن الناس الخوف من الموت ، وعن الأحياء لوعة الحزن على الميت . وسار إنذاك التصور الذى تحدث عن خروج الميت من رحم الأرض الذى قبر فيه وإحتواه ، لكى يعيش ويباشر مشوار حياته الأخرى ، فى المكان الآخر المجهول . وبين الحاضر المعروف ، والغائب المجهول ، غابت عن فكر القوم . فكرة العدم . ومن ثم سيطرت عليهم فكرة ديمومة الحياة فى صورتين ، مرة فى حضن الطبيعة على صعيد الأرض ، ومرة أخرى ، فى حضن ما وراء الطبيعة ، فى أرض غير الأرض ، أو فى مكان غير المكان .

– وفى ظل رفض فكرة العدم ، رسخ فى إعتقادهم أن الموت لا ينبغى أن يفضى إلى هذا العدم . وقل كان مشوار الحياة المعلنة والمحسوسة فى الدنيا إلى أجل مسمى ، يفضى فى نهاية المطاف ، إلى بداية مشوار حياة أخرى . وغاب عنهم بالطبع ، فكرة البعث والنشور . وما كان فى وسعهم أبداً إستيعاب فاصل زمنى ، بين خروج الروح من الجسد لكى يكون الموت ، وعودة الروح مرة أخرى إلى الجسد ، لكى يكون البعث . وغاب عنهم بالفعل ، علاقة هذا البعث بالحساب ، والتنعم بالثواب ، أو الشقاء بالعقاب .

– وصحيح أن المشوار فى الأخرة أو فى دنيا غير الدنيا ، أو فى مكان غير المكان ، كان مشواراً غامضاً ومجهولاً . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا المشوار قد دلل أو برهن على رؤيتهم لمعنى الخلود وديمومة الحياة ، فى صورتين . كانت أحداهما فى الدنيا ، والثانية فى الأخرة . وقد استحق الميت فى تصورهم إنذاك ، وهو الذى غاب عن الأهل ، وفارق الديار ، ودخل فى إطار المجهول الغامض ، تقدير وإحترام الأحياء من الأهل بصفة خاصة ، ومن جموع القوم بصفة عامة . ذلك أن غيابه كان معناه التحاقه بالاله المجهول الغائب .

– ولأن غياب الإنسان عن الحياة الدنيا ، بموجب الموت وإنتهاء الاجل ، كان لا يعنى فى تصور القوم أو فى تقديرهم أبداً التوجه الحتمى إلى العدم ، فقد سار الإعتقاد الراسخ والإيمان بالغيب ، وهو موقع الحياة الأخرى ، كما تنامى الإعتقاد أيضاً فى الخلود ، وهو الضد المقابل للعدم ، فلا وجود من

عدم ، ولا موجود ينتهي إلى العدم . بمعنى أن الإنسان ، وهو الذى لا يتأتى من عدم ، يوجد لكي يبقى حيًا على وجهين متكاملين ، يتمم أحدهما الآخر . وعلى الوجه الأول الظاهر المعلن عن وجود الإنسان ، يعيش ويكدح على الأرض كدحا ، ويجنى ثمرات هذا الكدح . وعلى الوجه الآخر الغامض المجهول عن كنه وجود ومصير الإنسان يحيا ويكدح الكدح المناسب للحياة الاخرة .

—وفى ظل غياب مفهوم البعث بعد الموت وساعة النشور ، لم يكن من شأن ثقافة الموت أن تدرك؛ شيئًا جازمًا ، أو أن تستوعب منطقًا معقولاً ، تحدث عن وقفة المرء الذى بعث ، خاشعًا بين يدى الاله . كما لم يكن ثمة إدراك أو إستيعاب لمفهوم الحساب . بمعنى أن غاب عن رصيد موروثات ثقافة الموت ، أن تجئ الساعة التي يحاسب فيها المرء عن عمله في الحياة الدنيا ، أو عن إنحياز إلى جانب الخير أحيانًا ، أو إلى جانب الشر أحيانًا أخرى . بل كان لا تمييز بين وقوف فى جانب الحق ، أو وقوف فى جانب الباطل . وكان القوم آنذاك ، قد إفتقدوا القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب ، وغابت عن تفكيرهم حتمية العلاقة بين حق الإختيار المطلق وهو عابد ، وواجب المسئولية الملزمة أمام المعبود .

– وما كان فى وسع موروثات ثقافة الموت إنذاك ، أن تستوعب أو أن تجسد التصور ، الذى يتحدث عن مصير الميت الذى لقى حتفه . كما لم يكن فى وسع ثقافة الموت أن تكفل إستيعاب ، كيف ينال من مات آجر الإحسان فى الدنيا ، وهو فى نعيم مقيم ، وكيف يستحق من مات جزاء الخطأ ، وهو فى جحيم السعير . ومن ثم غابت عن ثقافة الموت ، وهى التى وثقت الصلة بين الحياة الأولى فى الدنيا ، والحياة الأخرى فى الأخرة ، القدرة على التميز الحتمى بين الجنة ، وهى لحساب أهل الثواب فى جانب ، والنار ، وهى لحساب أهل العقاب فى جانب آخر . وجاوب غياب الجنة ، وغياب النار ، غياب الحساب ، والحكم الحق على سلوك وأعمال المرء ، وعلاقاته مع الغير .

– هكذا كان القبول الحتمى بالموت ، وغياب من قضى نحبه ، وإنتهى أجله ورقد فى قبره ، تمثل نقله مكانيه . ووثقت ثقافة الموت معنى هذه النقلة

المكانية ، دون تفكير فى كنه هذا الإنتقال ، من مكان إلى مكان آخر . كما سوت ثقافة الموت ولم تميز أبداً ، بين موت طبيعى بسبب أو بآخر فى جانب ، أو موت غير طبيعى بسبب أو بآخر . وكان الموت فى تقدير الاحياء من القوم ، هو الموت ، ولا حيلة فى تحديد موعد النقلة المكانية . وما تردد بين القوم ، لماذا وكيف مات من قضى نحبه . وهذا هو معنى الإستسلام المطلق للموت ، والقبول بهذه النقلة المكانية ، رغم لوعة الحزن ، ولوعة الاسى .

– وتوجهات ثقافة الموت إنذاك ، تمثلت فى وضع وصياغة وتعارف على مباشرة تقاليد وطقوس تشييع الميت ، وطقوس دفن الميت فى مرقده الأخير . وتحرت هذه الطقوس كيفية نقل جسد الميت من مستوطنه الأحياء إلى مستوطنة الأموات (الجبانة) . وإستجابة لدواعى ومبررات حتمية هذه النقلة المكانية ، التى غاب عنها التدبر فى كنه التغير من صورة الوجود فى الدنيا ، إلى صورة الوجود فى الاخرة ، كان التدقيق ، فى إختيار موقع الجبانة ، كما كان التدقيق والعناية بتجهيز المدفن الخاص ، الذى إحتوى الميت .

– وتحرت طقوس دفن الميت ، وضعه فى القبر الخاص ، فى وضع مماثل إلى حـد كبير ، لوضع الجنين ، وهو رحم أمه . وفى ظل إستشعار فكرة الخلود ، وإستبعاد فكرة أن يبلى الجسد ، وضع بعض المتاع فى صحبة الميت فى قبـره . وكان الميت عندئذ ، وكأنه على سفر من رحم الأرض الذى إحتواه ، على المسرح الجغرافى للمستوطنة ، إلى المسرح الجغرافى الآخر، ومباشرة مشوار حياته من جديد . وفى توازى حميد ، وتوازن بديع وكلاهما حتمى ، نمت هذه الفلسفات والطقوس والتقاليد المتعارف عليها بين القوم ، الإنتماء الوطنى والتفانى فى حب الأرض ، والإنتماء القومى والتفانى فى حب الأهل .

– وتحت مظلة التواصل المجتمعى ، الذى كان لا ينقطع أبداً ، بين أجيال الأحياء وأجيال الأموات من القوم ، بدأت تباشير وارهاصات فلسفات بسيطة ومتواضعة ، تمحورت حول نظام التوريث . وكان الهدف ، هو كيفية نقل الملكية من الميت إلى الحى . كما تحرى هذا النظام تحديد صاحب الحق الذى تنتقل إليه هذه الملكية ، فى إطار العلاقة الاسرية ، أو بموجب إنتساب الحى إلى الميت . وإتخذ هذا النظام سبيلاً لتواصل منطقى ، بين جيل حى يرزق حقت

له التركة ، وجيل غيبة المـوت عـن ما يملك على الساحة ، فى المكان والزمان .

– وفى مقابل ثقافة الحياة ، التى علمت الإنسان ، كيف كان إختيار المساحة المناسبة فى المكان المناسب من إقامة مستوطنة إحتوت الأحياء من القوم ، على المسرح الجغرافى المتاح ، تحرت ثقافة الموت إنذاك توجيه إختيار المساحة المناسبة ، فى المكان المناسب ، من أجل إقامة الجبانة (مستوطنة الأموات) لحساب القوم على نفس المسرح الجغرافى . وتحرى هذا الإختيار تنسيق العلاقة بين مستوطنة الاحياء مقر الإقامة المؤقتة ، ومستوطنة الأموات (الجبانة) مقر الإقامة من أجل مشوار الحياة الأخرى الأبدية . وفى توازى حقيقى ، كانت العناية بالجبانة لا تقل أبداً عن العناية بالمستوطنة ، ووجود الكتلة السكنية فيها . وعلى صعيد المساحة التى وقع عليها الإختيار لحساب الجبانة ، تأتى تجهيز المقابر ، تجهيزاً مناسباً لابدية الحياة الأخرى ، فى العالم الآخر .

– وصحيح أن ثقافة الحياة ، كانت تعتنى بوجود حركة الحياة وإستقرار أوضاعها فى الكتلة السكنية على صعيد المستوطنة . وكانت تتحدث عن مباشرة الأنشطة الحياتية اليومية ، على المحاور الإقتصادية والإجتماعية .كما كانت تتحرى سبل ومسارات السلوك الفردى ، وسبل ومسارات السلوك الجماعى ، فى إطار إهتمام جاد بإشاعة السلام الإجتماعى .

– وصحيح أيضاً أن ثقافة الموت ، كانت تتحرى معنى ومغزى غياب الموت دون تمادى فى إستيعاب كنه الموت . كما كانت تتحرى حتمية إسقاطهم من زمرة الاحياء من القوم ، دون إنكار للإنتساب وعلاقة الحى بالميت . هذا بالإضافة إلى تكوين الإهتمام بمباشرة تقاليد وطقوس تشييع الجنازة ودفن الميت وتغطية مراسم الحزن وكيفية المشاركة فى العزاء .

– ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو أن كانت ثمة علاقة حتمية ، بين موروثات وتقاليد ومعالم ثقافة الحياة ، وهى مفعمة بالنشاط والحيوية والعطاء فى جانب ، وموروثات وتقاليد وتعاليم ثقافة الموت ، وهى مفعمة بالامل وحسن التوقع فى أنشطة الحياة فى العالم الاخر ، فى جانب آخر .

– وقد تأسست ، بل قل توثقت هذه العلاقة المتوازنة ، بين ثقافة الحياة ،

وثقافة الموت ، على أساس متين . وتمثل هذا الأساس فى إيمان مطلق بأن لا حياة من غير موت ، وأن لا موت من غير حياة . وهذا هو الأساس الذى إرتكز عليه ، تصور ؛

أ- إن وجود الإنسان لا يتأتى من فراغ ، لأنه وجود من موجود ، ولا ينتهى من غير غاية ، لأنه يعيش الابدية فى العالم الاخر .

ب- أن الحياة وجود ونشاط وعمل على المسرح الجغرافى في الدنيا ، وأن الموت وجود آخر ونشاط على المسرح الجغرافى الآخر فى العالم الآخر .

- وكانت هذه العلاقة الحميمة ، بين موروثات وتقاليد وتعاليم ثقافة الحياة ورصيدها المتراكم ، وموروثات وتقاليد وتعاليم ثقافة الموت ورصيدها المتنامي ، علاقة موصولة ، وكأنها حبات عقد في خيط واحد . وربطت هذه العلاقة بين حياة وموت فتح باب الولوج أو الإنتقال إلى عالم الحياة الأخرى . وأصبح الموت ومفارقة الروح الجسد ، فى تقديرهم ، وكان جسر عبور وحيد ، من حياة دنيا عاشوها إلى حياة أخرى سوف يعيشونها . ومن تحت عباءة هذه العلاقة ، ولحسابها فى وقت واحد تحرى القوم ،

أ- وضع أسس وقواعد وتقاليد نظام التوريث ، وكيفية إنتقال التركة من الميت إلى الحى . كما تحرى هذا النظام ، تحديد مبلغ إستحقاق صاحب الحق فى إنتقال التركة إليه .

ب- وضع أسس وقواعد وتقاليد نظام الإنتساب ، وكيفية إنتساب الحى إلى الميت . كما تحرى هذا النظام سبل المحافظة على هذا الإنتساب ومبررات الإعتزاز به .

- وهكذا أفضى نظام التوريث ونظام الإنتساب ، إلى توثيق العلاقة وترسيخ التواصل المجتمعى ، بين ثقافة الحياة على وجه ، وثقافة الموت على الوجه الآخر . وفى ظل هذه العلاقة والتواصل ، تأتى إستشعار غياب من مات وقضى نحبه ، وتمدد فى قبره . وكان بموجب النقلة المكانية ، قد التحق بالغائب المجهول فى عالم الحياة الأخرى . وساد عندئذ تصور هذا الغائب بموجب الموت ، وهو يعايش الغائب المجهول الأعظم ويتنعم بصحبته ، ويضيف قوة إلى

قوته ، جدير بأن يكون الفخر بالإنتساب إليه . ومن ثم قل أصبح من مات فى حدس القوم ، وكأن شريك للغائب الاعظم ، بموجب هذه الصحبة .

– وبناء على مفهوم هذه الصحبة ، تلاحم فى إعتقاد القوم ، وهم على يقين ، توقير الميت الذى غاب والإشادة به ، بتوقير الغائب المجهول الذى التحق به الميت . ويطلق هذا التوقير والتقدير العنان لتفكير تنامى مع مرور الوقت فى مجال تحرى كنه وماهية ذلك الغائب المجهول ، الذى إستشعر القوم قوة فعله دون أن يتسنى لهم معاينته . ويدعم هذا التأمل ، وهذا التفكير ، التحول الفعلى من مرتبة التقدير والتوقير إلى مرحلة التقديس والعبادة . وأودع هذا التقديس ، فى قلوب القوم بذرة الإيمان .

– وفى تواصل حميد ، باتت موروثات وتقاليد ثقافة الحياة ، وثقافة الموت وثقافة الإعتقاد ، فى حزمة واحدة . وكفلت هذه الحزمة ، إشاعة التنوير على صعيد كل قوم من الأقوام . وفتح هذا التنوير باب الإقتناع بعلاقة خاصة ، بين ربوبية الاله الغائب والذى يعبر عنه الوثن فى جانب ، وربوبية ولى الأمر الذى كان فى يديه سلطة الحكم فى جانب آخر . وأصبح ولى الأمر فى تقدير القوم إنذاك ، هو إبن الاله أحياناً . وفى أحيان أخرى أصبح ولى الأمر الحاكم هو الاله بعينه . ومن ثم تحول وضع ولى الأمر الحاكم ، وإرتفع من مستوى التقدير إلى مستوى التقديس المطلق .

– وبعد ، هذه هى صورة حركة الحياة السائدة ، فى عصر ما قبل التاريخ ، على صعيد الوطن المصرى المهجور . وتتحدث هذه الصورة عن الأوضاع والأنشطة والتوجهات ، وكيف تأتت صياغة موروثات ثقافة الحياة ، وثقافة الموت ، وثقافة الإعتقاد ، على صعيد المسرح الجغرافىٰ لكل مستوطنة من المستوطنات . ولكى تتكامل عناصر هذا السيناريو ، ومشاهدة ، ينبغى أن ندرك ما يلى :

أولاً – كيف نأتى الإستقرار فى صحبة الزراعة المطرية ، لكى يخوض تجربة النقلة النوعية وتداعياتها إقتصادياً ، وإجتماعياً ، وحضارياً . وكانت المستوطنة التى إحتوت الإستقرار ، فى المكان الجغرافى المناسب على هامش مساحات الأرض المزروعة . وكانت جبانة الموتى على هامش المستوطنة .

ثانيًا – كيف إنتشر هذا الإستقرار على أوسع مدى ، وعاش فى مستوطنات متناثرة . وكانت مساحات الفصل بين هذه المستوطنات المتعددة ، التى إحتوت الإستقرار، من وراء خصوصية فرضتها خواص البيئة ، وقدرات وتوجهات كل قوم فى مستوطنته الخاصة .

ثالثًا – كيف أقدم الإستقرار على إستئناس الحيوان . وقد وقع إختيار على بعض الأنواع وتحرى اقتنائها . ومن ثم وسع الإستقرار قاعدة الإنتاج الإقتصادى ، توسيعًا أفضى إلى تحسين مستوى المعيشة .

رابعًا – كيف بدأ الإنفتاح لكى يتأتى التعامل الإقتصادى ، والتواصل الإجتماعى ، والإحتكاك الحضارى ، بين الأقوام فى مستوطناتها المتباعدة . وقد تأتى ذلك كله ، دون مساس بالخيط الرفيع الذى كان فاصلاً بين خصوصيات الأقوام فى مستوطناتهم .

خامسًا – كيف أفضى التماس الأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى ، إلى وضع ولى الأمر على مقعد السلطة فى كل مستوطنة . ومن ثم إتخذ هذا الكيان شكل الدولة المتواضعة ، وهو الذى جمع بين الأرض وهى الوطن والقوم وهم المواطنين ، وولى الأمر وهو الحاكم .

– وهكذا ، ينبغى أن ندرك ، كيف لم يكن فى وسع الإستقرار المتفرق فى عدد من المستوطنات ،جمع الناس فى توليفة أو فى نسيج القوم الواحد . ومن ثم كانت أقوام متعددة ، فى مستوطنات متباعدة . وبصرف النظر عن مبلغ التشابه فى الأوضاع الحياتية المعاشة ، فى كل مستوطنة خاصة ، إقتصاديًا ، وإجتماعيًا ، وحضاريًا ، تمتع كل قوم من هذه الأقوام ، بشئ كثير ومناسب ، من دواعى الخصوصية ، فى المكان والزمان ، وقد تمحورت هذه الخصوصية التى حافظ عليها كل قوم من الأقوام ، رغم التحلى بالإنفتاح ، حول ، توجهات ونمو الأنشطة الإقتصادية مرة ، وحول توجهات ونمو التركيبة الإجتماعية مرة أخرى . وأفضت هذه الخصوصية بالضرورة ، إلى تفرد حقيقى ، فى مقومات الهوية ، أو فى مقومات الذات الخاصة .

– وفى ظل هذه الخصوصية والتفرد ، التى تمتع به الإستقرار فى أى مستوطنة فى مكانها الجغرافى ، بدأ مشوار التجانس ، فى بنية البناء البشرى

لكل قوم من الأقوام ، على صعيد المسرح الجغرافى للمستوطنة الخاصة فى المكان والزمان . وكان التعايش والإختلاط بين الاسر ، من وراء هذا التجانس مع مرور الوقت . وقد أفرز هذا التجانس الاعراف ، والتقاليد ، والقيم والضوابط ، التى وثقت ورسخت وباركت هذا التجانس وتداعياته ، على مستوى القوم . وإتخذ القوم بموجب هذا التجانس فى كل مستوطنة ، شكل العائلة الكبيرة أحياناً ، أو قل شكل القبيلة أحياناً أخرى . بل قل بموجب هذا التجانس ، وتحت مظلة الخصوصية الديموجرافية والخصوصية والإقتصادية ، والخصوصية الإجتماعية ، والخصوصية الحضارية ، جمع هذا الشكل المتجانس الشمل المجتمعى ، وألف بين قلوبهم .

– وفى ظل هذه الخصوصية ، والتفرد على كل المحاور الذى تمتع به الإستقرار فى المستوطنة الخاصة ، بدأ مشوار حب الأرض ، التى تنتج وتغطى الإحتياجات الضرورية ، والتى تضم أجساد الاباء والاجداد . ووضع هذا الحب بذرة الإنتماء الوطنى فى وجدان القوم . وفى ظل التجانس الذى صار لباساً للإستقرار فى المستوطنة الخاصة ، بدأ أيضاً مشوار التحلى بحب الاهل . وعزز هذا التحلى بحب الاهل ، الترابط الإجتماعى ، وبث الدفء الإجتماعى فى أوصال القوم . بل قل وضع هذا الحب بذرة الإنتماء القومى . وفى توازى صريح ، وتوازن بديع ، وتنسيق مناسب ،جمع بين دواعى الإنتماء الوطنى وتداعياته ، ودواعى الإنتماء القومى وتداعياته ، تعايش القوم ، فى صحبة خيمت عليها كل تداعيات السلام الإجتماعى . ونمت هذه المعايشة كل دواعى تجانس لبنات البناء البشرى للقوم . ولا يكاد يفضى هذا التجانس المتنامى إلى شئ ، أهم من ترسيخ الإنتماء الوطنى والإنتماء القومى ، وتأمين المتوازن بينهما .

– وما كان فى وسع أى قوم من الأقوام ، أن يخلع عنه لباس هذه الخصيوصية ، وهى التى كانت تحيا فى موطنها ، والتى كانت تتمتع بالدفء الإجتماعى الخاص ، إلا إذا تداعت أو إنهارت دواعى الإنغلاق ، وتفتحت قنوات الإنفتاح ، وإستشعر الأقوام جدواه . والإنفتاح الذى كان لا يتعارض من التحلى بالإنتماء الوطنى وخصوصيته ، أو مع الإنتماء القومى وخصيوصيته ،

معناه بالضرورة ، أن وجه القوم النظر بعيداً ، لكى يطل على غيره من الأقوام الأخرى . وبموجب هذا التوجه إنفتح باب الإنفتاح ، وخرجت الأقوام من التقوقع . ومن ثم بدأ الإستعداد لقبول الآخر ، وفتح قنوات الإتصال به ، ومباشرة التعامل معه لحساب المصالح المتبادلة .

– والإستعداد لقبول الآخر ، وإسقاط حواجز العزلة ، والتحرر من التقوقع ، كان معناه إنذاك ، إنفتاحاً . وبرر هذا الإنفتاح التعامل الإقتصادى وتبادل المنافع ، والتواصل الإجتماعى وتبادل الزيجات ، والإحتكاك الحضارى ، وتبادل الاخذ والعطاء . وفى ظل إستشعار جدوى ذلك كله ، تمادى المضى على دروب الإنفتاح ، وأتسعت دائرة التعارف بين الأقوام . وفى ظل توازن موضوعى حميد ، بين دواعى الخصوصية والحرض على الذات القومية والهوية فى جانب ، ودواعى الإنفتاح ، ودواعى الإنفتاح البرئ والحرص على جنى ثمرات معطياته إقتصادياً وإجتماعياً وحضارياً فى جانب آخر ، فأتى افراز إرهاصات مبشرة ، أوحت بالمعنى الهادئ والمتحفظ على درب التجانس على مستوى الأقوام .

– وفى نهاية المطاف ، يكون الإجتهاد الجغرافى الذى يتحرى عرض هذه الصورة الجغرافية ، على يقين ثابت بأن إرادة اللّه الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، كانت من وراء كل الالهامات التى صاغت كل مشهد من مشاهد سيناريو هذه التجارب الحياتية المعاشة فى عصر ما قبل التاريخ . وقل تلك هى البداية التى كانت تؤهل الإنسان وتكسبه الخبرة ، فى وطن مناسب إنذاك ، بعيداً عن الوطن المصرى ، على صعيد المسرح الجغرافى للسهل الفيضى . بل قل أن الدروس المستفادة ، من رصد أوضاع الإستقرار السائد فى المستوطنات المتعددة ، على صعيد الوطن المهجور ، كانت ذات جدوى على كل المحاور ، فى مجال تأهيل وتنوير ، من سيخرج من أصلابهم شعب مصر .

– وكانت التجارب الحياتية ، فى الوطن القديم المهجور ، قد زدوت البناء البشرى لكل قوم من الأقوام فى مستوطناتها الخاصة ، على المسرح الجغرافى الخاص ، وهم جذور شعب مصر ، الذى إكتمل تجانس لبناته فيما بعد ، على صعيد السهل الفيضى حول النيل ، واكسبته خبرات ومهارات . وتمثلت هذه

المكتسبات على المحاور الإقتصادية ، والإجتماعية ، والحضارية ، وهى حصاد بعض القرون ، فى الوطن المهجور البعيد عن النيل فى ،

١- مكتسبات إقتصادية :

– وقد تمثلت فى مباشرة الإنتاج ، من أجل تغطية الإحتياجات ، والإستجابة للطلب اليومى . وأصبح فى وسع حركة الحياة ، أن تضبط إيقاعات العلاقة الحميمة والحتمية ، بين الإنتاج وهو مسئولية قوة العمل فى جانب ، والإستهلاك ، وهو حق الكل بلا إستثناء فى جانب آخر . هذا بالإضافة ، إلى أقدام على تعامل إقتصادى بين الأقوام فى المستوطنات المتباعدة . وقد أبدع الإستقرار وأحسن توظيف النظام الإقتصادى العينى . وحكم هذا النظام الإقتصادى ، العلاقة بين العرض والطلب . بل قل إنه النظام الذى كفل تبادل السلعة فى مقابل السلعة الأخرى . ولحساب هذا التعامل الإقتصادى ، وفى ظل هذا النظام الإقتصادى ، إمتهن الوسيط مهنة التاجر الذى رسخ روح ومنطق مشوار الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر .

٢- مكتسبات إجتماعية :

– وقد تمثلت فى جمع شمل الاسر وصياغة توليفة ، أو منظومة المجتمع المركبة ، وتأمين حق الصحبة فى القوم . وكفلت هذه الصحبة فى المستوطنة ، فرص التنعم بالدفء الإجتماعى . وأصبح من شأن حركة الحياة أن تقسم أو توزع العمل وتكليفاته على قوة العمل . وتحلت قوة العمل من الرجال والنساء ، والاولاد من أجل التعاون فى الانجاز ، فى مواجهة أعباء الحياة . ووظفت حركة الحياة ، هذا التعاون توظيفاً حسناً قوى نسيج الترابط الإجتماعى ، وعظم دواعى التكامل الإجتماعى . وأشاع الدفء والسلام الإجتماعى مشوار تجانس البناء البشرى على صعيد القوم ، مع مرور الوقت .

٣- مكتسبات حضارية :

وقد تمثلت فى إنطلاق مشوار الابداع الحضارى على الوجهين المادى والمعنوى ، ومباشرة الإبتكار والإضافة والتجديد . وأصبح فى وسع الإستقرار عندئذ ، أن تنتفع بهذا الإبداعات الحضارية الجديدة أحيانًا ، أو الإبداعات

الحضارية المتطورة والمتجددة أحياناً أخرى . وسواء كان حصاد هذا الإبداع الحضارى ، من إبتكار الفرد ، أو من إبتكار الجماعة ، فقد إنتفع به الجميع . وكان هذا الإنتفاع على المستوى المادى ، أو على المستوى المعنوى ، من وراء تحسين أوضاع حركة الحياة ، وتحرى السلوك الإيجابى الرشيد ، فى مواجهة التحديات والمواقف الصعبة . كما أفرز هذا الإنتفاع المشترك من خلال الاخذ والعطاء ، وترسيخ الإنفتاح والإستعداد القبول الآخر ، دواعى ومبررات تنشيط التجانس ، على مستوى القوم فى مرحلة ، وعلى مستوى الاقوام فى المرحلة التالية ، فى الوطن الجديد .

– وبعد ، هذا ما كان من أمر تأهيل الإنسان الذى خاض تجربة النقلة النوعية ، على صعيد المسرح الجغرافى البعيد عن النيل ، فى عصر ما قبل التاريخ بزمن طويل . وعند التحرك والمغادرة الجبرية ، ونزوح الإستقرار عن الوطن المهجور فى المكان والزمان ، كان هذا الرصيد من المكتسبات ، فى جعبة كل قوم من هذه الأقوام . وكان هذا النزوج العظم إلى أرض مصر ، الوطن على صعيد المسرح الجغرافى الأنسب ، فى ربوع السهل الفيضى ، على ضفاف النيل نزوجاً إضطرارياً . وقد فرضت ضغوطاً وتحديات صعبة ، كان لا قبل للإستقرار بإستبعابها وتطويعها ، أو أبطال مفعولها الخطير .

– وغياب جذور شعب مصر ، عن مستوطناتهم المبعثرة ، فى إنحاء المسرح الجغرافى الواسع للوطن القديم المهجور ، أنهى صفحة طويلة من تاريخ مصر فيما قبل التاريخ . وكان من الطبيعى أن تبدأ صفحة جديدة عن وجود مصر ، فى وضع جديد ، إستجد على ضفاف النيل فى عصر ما قبل التاريخ . وهذا معناه أن تاريخ مصر ومشوار حضارة مصر ، وتألق الواقع الحياتى المستجد على ضفاف النيل ، خرج بالفعل من تحت عباءة الاستقرار ، الذى عاش الخصوصية والتشردم فى الوطن المهجور . وهكذا قل لم ينشأ وجود مصر ، على السهل الفيضى من فراغ أبداً . بل قل كيف تكون هذه المنشأة من فراغ ، وهذا الإستقرار هو الذى كان قد تأهل وإمتلأت جعبته بالخبرات والمهارات والمكتسبات .

– ويؤكد الإجتهاد الجغرافى على أهمية رصيد الإستقرار النازح من هذه

المكتسبات ، وهو رصيد فى جعنة الأقوام التى غادرت الوطن المهجور . وكان هذا الرصيد ، من وراء دعم وتعزيز مشوار الإستقرار على ضفاف اللنيل ، والسيطرة الرشيدة ، على أهم مقومات الحياة المستجدة . وكان هذا الرصيد من الخبرات والمكتسبات ، من دواعى هجر التشرذم وفرقة الأقوام ، ومن وراء الاقدام الرشيد على التداخل فى توليفة نسيج بشرى . وقد هيمن التجانس عندئذ على هذه التوليفة ، وتكوين شعب مصر العريق ، فى المكان الجغرافى ، على ضفاف النيل .

– وإذا كان جريان النيل قد أرسب وسوى وجهز المسرح الجغرافى المصرى ، فإن النزوح العظيم ، هو الذى وضع أقدام شعب مصر على صعيد هذا المسرح الجغرافى ، فى الوادى الضيق ، لكى يبدأ وجود مصر الوطن ، ووجود مصر المواطن . وفى وسع الإجتهاد الجغرافى ، أن يتعقب دواعى ومبررات هذا النزوج العظيم الذى أعلن إنذاك عن وجود مصر الوطن والمواطن ، قبل أن تكون مصرالدولة . ومنذ قيام دولة مصر ، وهى تحتل مكانها الجغرافى ، وتتمتع بمكانتها الراسخة ، على الساحة الاقليمية ، وعلى الساحة العالمية .

الثالثة

صورة تتحدث عن تحريك الاستيطان المستقر ، ونزوح وإنتقال إجبارى من وطن قديم مهجور، إلى وطن جديد معمور . شهد بداية وجود مصر

الثالثة

النزوح العظيم ووجود مصر

– بعد أن تأتى تسخير الطبيعة ، على المدى الچيولوچى الطويل ، لكى يكون النيل ، ولكى يصل جريان النيل إلى مصر في إتجاه الشمال ، تولى هذا الجريان إعداد وتجهيز المسرح الجغرافى ، تجهيزاً مناسباً ، لوجود مصر .

وبعد أن تأتى الالهام العظيم ، وتفتحت أبواب التنور والمعرفة ، لكى يعلم الإنسان ويتعلم ما لم يكن يعلم ، إكتسب الإستقرار الخبرة والمهارات .

وفى إطار نقلة نوعية ، هى الأقدم ، توالت تداعيات إقتصادية ، وإجتماعية ، وحضارية ، على المسرح الجغرافى البعيد عن النيل ، وأهلت الإستقرار التأهيل المناسب .

وبعد ذلك كله ، حان الوقت الذى تأتى فيه تسخير الطبيعة مرة أخرى ، فتولت إنجاز مشاهد السيناريو ، الذى سجل نزوح الإستقرار ومغادرة الوطن المهجور ، والنزول إلى السهل الفيضى على ضفاف النيل . ومن ثم كانت نقطة البداية فى مشوار وجود مصر فى مكانها الجغرافى .

– وإستوجب هذا الأمر ، نقلة مكانية ، إنتقل بموجبها الإستقرار ، أو قل الأقوام من مستوطناتها على صعيد أرض الوطن المهجور ، إلى أرض الوطن الذى شهد وجود مصر ، فى الوادى على ضفاف النيل . وما كان من شأن هذه الأقوام ، التى كانت قد إستثمرت النقلة النواعية وتداعياتها ، ورسخت إستقرارها فى مستوطناتها ، أن تنتقل من الوطن المهجور ، إلى الوطن الأنسب الجديد ، بكامل إختيارها . وقل تعرضت هذه الاقوام من حيث لا ندرى ، لضغوط صعبة ، فرضتها تحديات مستعصية . بل قل كان لا قبل للأقوام إنذاك بالتعامل مع هذه التحديات وتطويعها ، أو بالقدرة على أبطال مفعولها . وتحت وطأة هذه الضغوط ، التى هددت حركة الحياة فى وجودها ، كان النزوح العظيم ، وكانت النقلة المكانية .

– وسبحان من خلق فسوى ، وقدر فهدى ، الذى سخر الطبيعة ، لكى

تكون من وراء الضغوط ، التى إستوجبت النقلة المكانية ، إلى المكان المناسب ، فى الوقت المناسب . وقد إتخذت الطبيعة ، من قوة فعل التغير المناخى ، الذى أحل الجفاف ، حتى غاب المطر ، الذى كان قد كفل الزراعة المطرية . وأمتلك الجفاف وغياب المطر ، قوة فعل عامل الطرد من المكان فى الوطن المهجور . وقد أجبر عامل الطرد الاقوام على النزوح ، ومغادرة الوطن المهجور . وإتخذت الطبيعة على الجانب الآخر ، من جريان النيل العظيم والرتيب ، قوة فعل عامل الجذب إلى المكان الجديد . وقد أغرى الاقوام بالإقتراب من النيل ، والوقوع فى أسره . وما كان هذا النزوح علامة على التفريط فى الوطن أبداً . بل قل إنه التوجه الموفق للفرار من التحدى المناخى ، ومباشرة الإستقرار الآمن ، فى صحبة الجريان فى النيل .

– ورغم كل المهارة الجغرافية . فى تعقب هذه المشاهد ، وفى صياغة ذلك السيناريو ، الذى تتحدث فصوله ومشاهده الرتيبة والمتعاقبة عن تكوين النيل ، وعن الجريان فى النيل ، وعن إعداد وتجهيز المسرح الجغرافى المناسب ، على صعيد الفيضى ، لكى تكون أرض مصر الوطن العريق ، فى المكان الجغرافى الحاكم ، والكاشف عن عبقرية المكان .

– ورغم كل المهارة الجغرافية ، فى تعقب المشاهد ، وفى صياغة ذلك السيناريو الذى تتحدث فصوله ومشاهده الرتيبة المتعاقبة ، عن إنفتاح باب المعرفة والتنوير ، وعن تأهيل الإنسان ، وعن إكتساب الخبرات والمهارات ، لكى يصبح فى الوقت المناسب هو المواطن الذى يحيا على المسرح الجغرافى المصرى ، على صعيد السهل الفيضى على ضفاف النيل ، والذى دلل على عبقرية الإنسان ، وكيف سجل نقطة البداية لوجود مصر ، وترديد إيقاعات سيمفونية إنجازها العظيم ، الذى بهر الدنيا على المدى الطويل .

– ورغم كل المهارة الجغرافية ، فى مباشرة الرصد الجغرافى عن أوضاع مصر ، فى مكانها الجغرافى مرة ، وهى موجودة على صعيد الوطن القديم ، قبل النزوح العظيم ، ومرة أخرى بعد النزوح العظيم ، والإقامة المستقرة ، على صعيد الوطن ، فى ربوع السهل الفيضى ، على ضفاف النيل ، وإستشعار العلاقة بين هاتين الصورتين الجغرافيتين ، وكيف أتاحت الخبرة المكتسبة فى الصورة الأولى ، ترشيد مسيرة مصر العريقة فى الصور التالية ، وكيف أفضت إلى لقاء مثمر ، جمع بين عبقرية المكان وعبقرية الإنسان .

– ورغم كل المهارة الجغرافية ، فى مباشرة الرصد الجغرافى ، عن دواعى ومبررات ، قوة فعل عامل الطرد الذى باشر الضغط بقصد إقتلاع الأقوام من أرضها ، وإجبارها على المغادرة والرحيل والتفريط فى الوطن ، وعن دواعى ومبررات قوة فعل عامل الجذب ، الذى باشر الاغراء الشديد ، بقصد تمكين الأقوام الفازحة ، على الإستقرار ، فى أنحاء السهل الفيضى ، على ضفاف النيل ، وتعظيم معطيات اللقاء المثمر بين عبقرية المكان وعبقرية الإنسان .

– ورغم ذلك كله ، تتواضع المهارة الجغرافية تواضعاً له ما يبرره . ويكشف هذا التواضع عن عجز حقيقى وموضوعى ، فى مجال تحديد دقيق كاشف عن توقيتات ، وجود مصر فى محصلة تأهيل الإستقرار على صعيد الوطن المهجور مرة ، ووجود مصر فى مرحلة الإرتباط بالنيل ، واللقاء ، بين عبقرية المكان وعبقرية الإنسان مرة أخرى . بمعنى أن يتجلى هذا العجز ونعترف به ، فى مجال تحديد المساحة الزمنية ، وفى تحديد نقطة البداية فى كل مرحلة من هاتين المرحلتين . وفى غياب التاريخ عن رصد جغرافى ، يتحدث عن كل صورة من هاتين الصورتين الجغرافتين ، التى كانت قد تجمعت عناصر كل واحدة منها فيما قبل التاريخ ، يكون هذا العجز مرتين .

– فى المرة الأولى :

يكون هـذا العجز الجغرافى وله ما يبرره ، فى شأن تحديد دقيق ومتفق عليه ، يتحدث عن نقطة البداية الفعلية الصحيحة ، أو التاريخ الدقيق للثورة الإقتصادية ، فى تاريخ حياة الإنسان . وسواء تمثلت هذه الثورة الإقتصادية ، فى إستئناس النبات ، وإختيار الأنواع ، ومباشرة الإنتاج الزراعى فى جانب ، أو تمثلت هذه الثورة الإقتصادية ، فى إستئناس الحيوان ، وإختيار الأنواع ، ومباشرة الإنتاج الحيوانى ، فهى فى الحالتين ، كانت نقطة تحول حاسمة ، فى أوضاع الإنسان وتوجهاته ، وفى سيطرته على مصيره ، على الأرض . ويكفى أن أتاحت فرصة سيطرة الإنسان على العلاقة بين الإنتاج والإستهلاك . بل قل إنها هـى التى حـررت الإنسان من الإستسلام لمعطيات الإنتاج الطبيعى ومتغيراته .

– ومن غير التمادى أو الإستغراق ، فى الجدل البحثى الحائر وتصوراته المختلفة ، حول المكان والزمان ، الذى شهد إستئناس النبات ، أو الذى شهد

إستئناس الحيوان ، ومن غير التمادى أو الإستغراق مرة أخرى ، فى الجدل البحثى الحائر وتصوراته المختلفة ، حول التوالى فى رأى البعض ، أو التوازى فى رأى البعض الآخر ، نذكر أن هذا التوجه الذى كان لحساب الإنتاج ، هو إبداع مثير بكل المقاييس . وفجر هذا الإبداع ثورة فى تاريخ حياة الإنسان على الأرض ، غيرت وحسنت أوضاع حركة الحياة . وقل أن هذه الثورة ، التى تأتت فى الأصل على المحور الإقتصادى ، وبشرت بقدرة الإنسان على الإنتاج ، وضبط إيقاعات العلاقة بين العرض والطلب ، كانت لها تداعيات إجتماعية مثيرة ، وتداعيات حضارية أكثر إثارة .

– وفى توازى بديع ، وتناغم أكثر إبداعاً ، كفلت هذه التداعيات المتنوعة فى تاريخ حياة الإنسان ، نقلة نوعية كبيرة وحاسمة . وسجلت هذه النقلة النوعية ، توجهات فاعلة ومثيرة ، فى مجالات إستخدامات الأرض وتطويعها ، وفى تأمين حسن الإنتفاع بها . بل قل إنها كفلت سيطرة الإنسان على مصيره . والفرق كبير جداً ، بين تاريخ حركة حياة بدائية ، قبل الثورة الإقتصادية ، حيث إعتمد الإنسان كلياً ، على معطيات الإنتاج الطبيعى ، وجاوب وإستسلم لمتغيراتها فى جانب ، وتاريخ حياة الإنسان ، بعد الثورة الإقتصادية ، حيث باشر الإنتاج ، وسيطر على التوازن الحميد ، بين الإنتاج والإستهلاك ، أو بين العرض والطلب .

– والثورة الإقتصادية الاولى ، ومباشرة الزراعة وجنى ثمرات الإنتاج الزراعى ، وإقتناء الحيوان ، وجنى ثمرات الإنتاج الحيوانى ، على صعيد الوطن المصرى القديم المهجور ، هى التى رسخت قواعد الإستقرار . وقل أن ذلك الإنتاج ، هو الذى كفل وعزز الإرتباط المادى بالأرض مرة ، وهى تعطى وتجاوب وتنتج وتغطى الإحتياجات الأساسية ، وهو الذى كفل وعزز الارتباط الوجدانى بالأرض مرة أخرى ، وهى تحتوى ويتسع ترابها لقبر من مات وقضى نحبه من الأهل ، فى المكان والزمان .

– وهناك إتفاق سائد بين زمرة الباحثين ، على أن هذه البداية المبكرة ، التى شهدت هذه النقلة النوعية المثيرة ، وتداعياتها المادية والمعنوية ، إقتصادياً ، وإجتماعياً ، وحضارياً ، قد وضعت وجود الإنسان ومصيره ، وحقه فى الحياة ، بين يديه وتحت سيطرته . واستوجبت هذه السيطرة التى سخرت ما فى

الأرض لحساب الإنسان ، التحلى بالمهارات وإكتساب الخبرات ، فى كل مجالات استخدام الأرض وتطويعها . وقد تأتت هذه النقلة النوعية – فى الغالب – فى مساحة زمنية من العصر الحجرى الحديث ، على أرجح تقدير .

– ويعزز هذا التقدير بصفة عامة ، بل قل يوثقه ، ما هو معروف ومتفق عليه ، من تأتى زيادة طفيفة نسبية فى كم المطر إنذاك . وقد طمست أو إنتهكت هذه الزيادة الطفيفة فى كم المطر ، ملامح ومواصفات الجفاف الذى كان قد تأتى ، فى أعقاب نهاية العصر المطير الثانى فى البلايستوسين الاعلى .

ومعلوم أن هذه الزيادة الطفيفة فى كم المطر السنوى ، على المسرح الجغرافى المصرى القديم فى العصر الحجرى الحديث ، كانت زيادة منتظمة ومنضبطة إلى حد كبير . وقد أسقطت هذه الزيادة فى المطر ، عن هذا المسرح الجغرافى ، صفة الجفاف . بل قل إنها أسقطت ملامح وخواص مناخ الصحراء وشبه الصحراء عن هذا المسرح الجغرافى ، وإكسبته ملامح وخواص المناخ الممطر .

– وتساقط هذا المطر الخفيف ، فى أثناء العصر الحجرى الحديث ، هو الذى كفل وجود حركة الحياه ، وهو الذى أتاح فرص إنتاج الغذاء النباتى والحيوانى . وقل أن حصاد الزراعة المطرية على وجه الخصوص ، هو الذى استوجب الإستقرار فى المكان والزمان ، وعزز وجوده وأمنة . وأتاح توالى التداعيات الإقتصادية ، والإجتماعية ، والحضارية فى المكان والزمان ، لكى يزداد الإستقرار رسوخًا فى موضعه . بل قل إن هذه التداعيات المتنوعة ، هى التى تأسست عليها خواص وملامح النقلة النوعية ، فى تاريخ حياة الإنسان على الأرض ، وعندئذ أصبح للإنسان فى المكان والزمان ، حق السيطرة على الأرض ، وتسخير مواردها المتاحة ، وحق استخدامها وتأمين سبل الإنتفاع بها .

– **وفى المرة الثانية :**

– يكون هذا العجز الجغرافى ، فى شأن تحديد طول المساحة الزمنية ، التى عاشت فيها التجربة الحياتية فى ظل النقلة النوعية ، قبل النزوح إلى الوطن على صعيد السهل الفيضى . وقل كم كانت عدد القرون التى عاش فيها

الإستقرار ، وإكتسب الخبرات ، على صعيد المسرح الجغرافى للوطن القديم المهجور ، أثناء كل أو بعض العصر الحجرى الحديث . ومن غير الوقوع فى حبائل هذا الجدل البحثى ،عن طول هذه المساحة الزمنية ، التى لا نملك قدرة التدليل عليها وهى تبدأ ، أو التى لا نملك قدرة التدليل عليها وهى تنتهى ، هناك إتفاق عام على طول هذه المساحة الزمنية بصفة عامة . وتنامى مكتسبات النقلة النوعية ، هى وحدها التى تدلل على طول هذه المساحة الزمنية . وربما تأتت هذه المساحة الزمنية ، على إمتداد أكثر من ألفيه ، أو من عشرات القرون .

– ورغم غياب آثار ومخلفات هذا الإستقرار بصفة عامة ، تحت وطأة الجفاف الشديد إعتباراً من نهاية العصر الحجرى الحديث مرة ، وتحت وطأة زحف رمال الصحراء مرة أخرى (١) . هناك إعتقاد سائد يتحدث عن إستمرار هذه التجربة الحياتية ، على إمتداد مساحة زمنية طويلة . وقل دامت هذه التجربة الحياتية المبكرة ، ومضت على درب الإستقرار الذى إستغرق أكثر من الفية من السنين . وعلى إمتداد هذه الحقبة الزمنية ، خاضت هذه التجربة الحياتية ، كل مراحل التغيير مع تعاقب الاجيال . بل قل إنها تنغمت بكل التداعيات التى كانت تتوالى فى سياق مستمر ، على كل المحاور الإقتصادية ، والإجتماعية ، والحضارية ، وهى أمنة ومطمئنة ، على المسرح الجغرافى القديم ، فى حضن الوطن المهجور .

– وقد عاشت هذه التجربة الحياتية – فى الإعتقاد الجغرافى – آلاف السنين ، وهى تتنعم بالإستقرار ، وتجنى ثمرات النقلة النوعية ، وتطور أنشطتها وتحسن أوضاعها الإجتماعية ، وتواصل مسيرة إبداعاتها الحضارية . ويجسد ذلك معنى تأهيل الإنسان الفرد ، والإنسان الجماعة التأهيل المناسب . كما يصور مبلغ إكتساب الخبرات وصقل المهارات ، وإستيعاب الدروس المستفادة ، تحسباً للنقلة المكانية . وتمثلت هذه النقلة المكانية فى النزوح من الوطن الذى أصبح مهجوراً ، والإستقرار فى السهل الفيضى على ضفاف النيل . وعلى

---

(١) إثارة الإستقرار فى ديرتاسا ، مرمدة بنى سلامة ، وقيوم أ ، توفر بصيصاً من ضوء على أوضاع الإستقرار فى المرحلة الأخيرة قبل النزوح ومغادرة الوطن المهجور .

صعيد هذا الوطن ، تأتى وجود مصر الوطن ، ومصر جموع المواطنين .

– وقد شهد وطن هذه التجربة الحياتية المبكر المهجور ، وهو البعيد عن النيل ، تعاقب الاجيال ، وترسيخ قواعد الإستقرار . وكان في وسع الإستقرار على المدى الطويل ، أن يضيف إلى رصيد الموروث دائماً ، وأن يستوعب كل الدروس المستفادة ، في المكان والزمان. وفي إطار مساحة زمنية طويلة ، كان الإستقرار قد تأهل تماماً من أجل مباشرة الحياة فى الوطن على ضفاف النيل . وكما تعود على الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، تحلى أيضاً بإرادة التغير إلى ما هو أفضل . وكان الإستقرار آنذاك ، وكأنه يتأهب للنقلة المكانية .

– وكانت نهاية هذه الحقبة من تاريخ حياة الإستقرار ، قد تأتت فى صحبة التغير المناخى . وإستشعر الإستقرار هول هذا التحدى ، حيث إنتهك هذا الجفاف أوضاعه الإقتصادية ، وأفلتت من بين يديه مقومات الأمن الإقتصادى . واستوجب هذا التغير البحث عن الوطن البديل . بل قل أفضى هذا التحدى الطبيعى الصارم الذى كان لا قبل للإستقرار به ، إلى الرحيل ومغادرة ذلك الوطن القديم ، الذى بات بالضرورة مهجوراً ، وضاعت معالمه .

– صعب على الإستقرار الذى إرتبط بالأرض مادياً ووجدانياً على المدى الطويل ، وهى الوطن العزيز ، وهى الذكريات التى تبلى ، وهى الوفرة الإنتاجية والأمن الإقتصادى ، وهى الدفء الإجتماعى ، وهى التى إحتوت رفات الاباء والاجداد ، أن يهجر هذا الوطن ، ويغادره ويفرط فيه مكرهاً ، ومن غير رجعة . وصعب على الإستقرار مرة أخرى الذى إمتلك حق السيادة على الأرض ، التى كانت تجاوبه أو تطاوعه ، وتعطيه ، وهى لا تبخل عليه ، أن يرحل عن هذا الوطن ، دون أمل فى حق العودة إليه . ومع ذلك ينبغى أن ندرك جيداً ، ما يلى :

أ– كيف كانت ضراوة ضغوط التحدى الطبيعى فى صحبة الجفاف ، الذى لا قبل للإستقرار بها ، وهى تكرهه وتفرض عليه الرحيل أو النزوح ، ومغادرة الوطن والتفريط فيه ، وحتمية البحث عن الوطن البديل الأنسب .

ب– كيف كان البحث عن الوطن البديل الأنسب ، هو الملاذ ، تخوفاً

من الهلاك ، أو تحسباً من إحتمال المضى على دروب التشرد والضياع فى جوف الصحراء .

جـ- كيف كان الترابط فى إطار مجتمع الإستقرار ، والإستسلام لقيادة ر شيدة وواعية ، من وراء التوجه السديد ، إلى الوطن البديل الأنسب ، على صعيد المسرح الجغرافى ، فى أنحاء السهل الفيضى ، على ضفاف النيل .

د- كيف حمل الإستقرار فى جعبته ، كل رصيده من الخبرات والمهارات ، إلى مثواه فى هذا الوطن البديل ، لكن يتمم مشوار الحياة ، ولا يبدأ أبداً من فراغ .

- هذا ، ويثق الإجتهاد الجغرافى ، فى قوة فعل التغير المناخى ، الذى خيم على الوطن المهجور . وفى وسع هذا الإجتهاد الجغرافى إستحضار الصورة الجغرافية الغائبة التى غيبها عامل الزمن ، لكى تتحدث عن قوة الجفاف الذى تأتى ، فى نهاية العصر الحجرى الحديث ، وقد وضع هذا الجفاف . وهو يزايد مع مرور الوقت ، مصير حركة الحياة إنذاك ، فى مواجهة مباشرة ، مع التحدى الطبيعى الصعب ، الذى لا يقهر . والتحول من مطر ، كان مرتقباً ، بالكم والتوزيع المناسب ، الذى كفل الزراعة المطرية ، وأمن الإستقرار على المدى الطويل ، إلى جفاف شديد وهيمنة ملامح وخواص البيئة الصحراوية الحارة ، هو الذى عظم قوة فعل الضغط الشديد ، على أوضاع حركة الحياة .

- وقل إنتهك هذا الجفاف الشديد ، كل مقومات الأمن الإقتصادى ، والأمن الإجتماعى . وقل مرة أخرى إنتهك هذا التحدى المناخى ، كل معالم التجربة الحياتية المعاشة فى المستوطنات . بل قل جرد عامل الطرد الإستقرار ، من أى قدرة على الصمود ، وتجاوز المحنة ، فى المكان والزمان .

- هذا ، ويكون فى وسع الإجتهاد الجغرافى ، وهو يتقصى الحقيقة الغائبة عن الصورة الجغرافية ، التى بادت وإندثرت ، على صعيد الوطن المهجور ، أن يدرك وأن يستوعب جيداً ، فى نفس الوقت ، لماذا ، وكيف ، ومتى كان تحرك حركة الحياة ، ومغادرة هذا الوطن ، والتفريط فيه . وكان هذا التفريط ، من قبيل الإستجابة الحتمية ، لقوة فعل الجفاف وتداعياته المباشرة .

بمعنى أن كان الجفاف ، وهو الذى سيطر وتعاظم فعله مع مرور الوقت عامل طرد حقيقى . وقد إستوجب هذا العامل ، تفريغ الوطن المهجور من سكانه . وتأتى هذا التفريغ ، بالضرورة ، دون تعرض الإستقرار للهلاك ، أو دون تعرض للتشرد والضياع .

– وإستوعب الإجتهاد الجغرافى عندئذ ، معنى تفريط الإستقرار فى الأرض ، دون إعتراض . كما تحرى أيضًا معنى المغادرة وهجر الوطن ، فى مقابل حيازة أرض جديدة أنسب ، على صعيد السهل الفيضى ، على ضفاف النيل . ونجاح تحرك حركة الحياة ، وفى صحبتها الامتعة والأدوات والحيوانات ، وفى جعبتها الخبرات والمهارات ، وهى تولى الادبار ، وتتعمد الفرار ، وتستسلم لقوة فعل عامل الطرد ، كان نجاحًا بكل المقاييس . كما كان دليلاً على إستجابة حركة الحياة ، لقوة فعل عامل الجذب ، إلى المسرح الجغرافى فى الوطن البديل . كان هذا هو السلوك الأنسب فى مواجهة التحدى الطبيعى الصارم ، الذى تعذر على الإنسان إبطال مفعوله .

– وهكذا كانت ضراوة ضغوط هذا التحدى الطبيعى الصارم ، وهى تشتد وتتفاقم مع مرور الوقت حتى تضرر بها الإنتاج وتأمين مقومات الحياة ، من وراء التفكير الرزين ، فى مجال البحث ، على الوطن البديل الأنسب . ونجاح حركة الحياة فى الإنسجاب والمغادرة من الوطن المهجور ، لا يقل عن نجاح حركة الحياة فى التوجه إلى الوطن البديل . ولا تثريب على حركة الحياة أبدًا ، وهى التى حصدت ثمرات هذا النجاح فى الفرار من الخطر ، وفى الحصول على مقومات الأمن على الذات ، فى الوطن البديل .

– وصحيح أن هذا الإستجابة لضغوط الجفاف وفعله الطارد ، وهى تتزايد مع مرور الوقت ، والتى تمثلت فى مغادرة الديار فى الوطن المهجور ، كانت تجسد السلوك السلبى بكل المقاييس ، وتعبر عن مبلغ إفتقاد القدرة على ابطال مفعول هذا التحدى الطبيعى الصارم .

–وصحيح مرة أخرى ، أن هذا التحدى الطبيعى الصارم ، وتداعياته الصعبة ، كان وكأنه قد تعمد بكل الالحاح ، إخلاء الأرض ، وتفريغ المسرح

الجغرافى المهجور من كل سكانه ، بعد أن تأهلوا التأهيل الأنسب ، لمباشرة الحياة فى الوطن البديل .

– ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو رصد وحسن تقويم مبلغ تحلى حركة الحياة ، وهى التى واجهت هذا التحدى الطبيعى الصعب ، بكل رباطه الجأش والصبر على المكاره، ودون التخوف من التشرد ، أو الوقوع فى حبائل الضياع وفقدان الهوية .

– ومن ثم كان الحل الأمثل ، التى إعتصمت به حركة الحياة للخروج من المأزق ، هو مباشرة السلوك السلبى ، والكف عن المكابرة . وفرض هذا السلوك السلبى على حركة الحياة ، الهروب من هذه المواجهة الصعبة . وهذا الهروب من هذه المواجهة ، كان معناه حتمية مغادرة الوطن . وكفل هذا الهروب ، الإنتقال الهادئ من وطن فقد صلاحيته لوجود حركة الحياة ، إلى وطن بديل آخر على مسرح جغرافى صالح تماماً لوجود حركة الحياة .

– وكان هذا الوطن البديل ، على صعيد السهل الفيضى ، فى حضن النيل ، مؤهلاً ومجهزاً ، التجهيز المناسب ، لإستقبال وفود حركة الحياة . القادمة من أنحاء الوطن القديم المهجور . وكان الجريان فى النيل ، هو عامل الجذب الذى شد إنتباه تحرك حركة الحياة ، وإستقطبها . وكان من شأن النيل الذى وفر الماء والسهل الفيضى وأرضه الخصبة على ضفاف النيل ، أن إحتوى قدوم حركة الحياة ، وأن يسر إستئناف مشوار حركة الحياة فى هذا الوطن البديل ، من جديد . وما إستشعرت حركة الحياة أبداً ندماً أو حسرة ، على النزوح من أرض الوطن المهجور .

– ويدرك الإجتهاد الجغرافى جيداً ، أن تحرك حركة الحياة وقدومها إلى الوطن الجديد ، لم يكن أبداً مجرد رحلة سهلة وميسرة فى الإتجاه الصحيح . بل قل كانت رحلة صعبة من وطن تعين على حركة الحياة هجرة ، إلى وطن جديد تعين على حركة الحياة القدوم إليه . ومن أجل رصد خطوات تحرك حركة الحياة ، ومباشرة رحلة مغادرة الوطن المهجور ، ينبغى أن نفطن أن هذه المسيرة كانت متأنية . وقل كان الإقتراب والنزول إلى رحاب السهل الفيضى على ضفاف النيل ، إقتراباً متحفظاً ، ونزولاً هادئاً دون تعجل .

– وتحـرك حركة الحيـاة الذى تحلى بالإقتـراب المتحفظ ، والنزوح الحذر ، كان منطقيًا وضـروريًا . وكيف لا يكـون هذا التحفظ والتحلى بالحذر ، فى ظل تحرك واجه حاجز الغربة ، وتحرى تجاوزه أو إختراقه ، وإستشعر الخوف من المجهول . وفى ظل هذا التحفظ ، والإقتـراب الحذر ، الذى تحرى إسقاط أو إختراق حاجز الغـربة ، ينبـغى أن ندرك كيف تحرت حركة الحياة التى غادرت الوطن المهجور ، مراقبة النيل ، ورصد أوضاع الجريان فيه عن كثب ، تحسبًا منه لخطر الفيضان ، عند الوقوع فى أسره .

– ولأن شجاعة أقدام حركة الحياة ، لا تسقط دواعى ومبررات الخوف من المجهول ، كانت هناك حاجة إلى وقفة تأمل وتمعن ، من أجل تعارف جيد على النهر ، أسقط هذا الخوف . كما كانت وقفة التأمل والتمعن مطلوبة من أجل كشف النقاب ، عن خواص ومواصفات الجريان فى النيل ، ومبلغ إرتفاع المنسوب فى موسم الفيضان ، ومبلغ إنخفاض المنسوب فى الموسم الآخر . بل قل كان المطلوب أن تعرف حركة الحياة ، وأن تراقب فى صبر ، أو عن كثب الواقع الجغرافى على ضفاف النيل ، حتى يعرف الإستقرار كيف يقترب ، وكيف يؤمن وجودة ، وكيف يرسخ أوضاعه الحياتية ، فى ربوع الوطن الجديد .

– ومن غير تعجل ، أو من غير هرولة وإندفاع على غير هدى ، تحرت حركة الحياة ، جمع كل المعلومات ، التى تتداخل فى صياغة الصورة الجغرافية ، ورصد كل الخواص الطبيعية ، التى كانت تكسب المسرح الجغرافى مواصفاته . وقد بعثت حركة الحياة الطلائع ، التى تحرت المعرفة الجغرافية بالوطن الجديد . وفتحت هذه الطلائع ، أبواب هذا الإقتراب الحذر ، وهى على حق ، فى مشوار الخطوة خطوة ، صوب المكان الأنسب ، فى الوطن الجديد على ضفاف النيل . بمعنى أن كان هذا الإستقرار النازح من الوطن المهجور ، يقترب أو يتقدم من ضفاف النيل ، وهو على بينة بصورة الواقع الجغرافى السائد ، على المسرح الجغرافى من حوله .

– ولأن التغير المناخى وسيادة الجفاف ، على صعيد المسرح الجغرافى فى أنحاء الوطن المهجور ، لم يتأتى فى يوم وليلة ، فإن المغادرة أو التزوح وهجر الوطن ، والإقتراب الحذر ، ثم النزول الواثق ، إلى رحاب الوطن الجديد البديل

على ضفاف النيل ، لم يتأتى فى يوم وليلة . وليس فى وسع الإجتهاد الجغرافى – على كل حال– أن يتحدث حديثًا قاطعًا وصريحًا ، عن طول المساحة الزمنية ، التى شهدت مراحل الكشف والمراقبة والتعرف قبل مباشرة الإقتراب الحذر ، والنزول إلى رحاب السهل الفيضى . وربما استغرقت وقفات التــأمل والمعــاينة عن كثب وإقتراب الطلايع ، من أجل رصد الجريان فى النيل ، ومعاينة الصورة الجغرافية على صعيد السهل الفيضى أكثر من قرن من الزمان .

– وطول هذه الفترة الزمنية ، التى شهدت خطوات هذا الإقتراب الحذر من رحاب الوطن الجديد ، كانت لا تخفى أبداً تردد الأقوام ، بين إقدام تحلى بالرغبة فى طلب الأمن ، وإحجام تحلى بالخوف من المجهول . وقل أن الإقتراب الحذر ، عبر عن رغبة كل قوم من الأقوام ، فى التثبت من المعرفة الجغرافية المناسبة ، التى كان من الضرورى أن تبتنى عليها سبل التعامل المناسب مع الواقع الطبيعى فى رحاب الوطن الجديد . وأفلحت طلائع الإستكشاف التى كانت تروح وتغدو ، فى التمـهيد لقدوم كل قوم من الأقوام ، ونزوله من المكان المناسب ، على صعـيد السـهل الفيضى . كـما أفلحــت هذه الطلائع مرة أخرى ، فى تطهير المكان المنتخب ، وإخلاء الأرض من نمو نباتى طبيعى ، ومن وجود حيوانى برى ، من أجل تأمين قدوم القوم ، ومباشرة العلاقة مع النيل ، ومباشرة إستخدامات الأرض ، وسبل الإنتفاع بها .

– وتلك من غير شك بداية مبكرة متواضعة ، ولكنها كانت مهـمة وضرورية ، فى مجال الكشف الجغرافى ، وطلب المعرفة الجغرافية ، بأرض الوطن الجديد ، على ضفاف النيل . وكان فى وسع الطلائع التمعن والتدقيق فى عناصر المنظور الجغرافى الطبيعى ، وتحرى مواصفاته . وقد أسقط هذا التمعن والتدقيق ، دواعى الإنبهار المختلط بشئ من الخوف . كـما أسقط دواعى الخوف المخلوط بشئ من الإنبهار . وكان ذلك كله من وراء نزول القوم إلى الموقع المنتخب على بصيرة . ذلك أن معرفة خواص الأرض فى المكــان والزمان ، هى التى تبصر سبل التعامل معها ، وترشد مجالات الإنتفاع بها .

– ومـهـما يكن من أمر ، فإن هذا النزول المتحفظ إلى أرض السـهل الفيضى ، والإقتراب الحذر من مجرى النيل ، قد إعتمد على رصيد من

معطيات الكشف الجغرافى . ومن خلال هذا الرصد الجغرافى كان إختيار الموقع المناسب لإستقرار القوم على السهل الفيضى . وفى ظل الخصوصية والتفرد الذى تحلى به كل قوم من الأقوام النازحة من الوطن القديم المهجور ، نزلت الأقوام فى رحاب الوطن الجديد . وقد وقع إختيار كل قوم من هذه الأقوام ، على المساحة المناسبة ، فى الموقع الجغرافى المناسب ، وإتخذت منه مكاناً للإستيطان . وكانت هذه الخصوصية التى حفظها وحافظ عليها كل قوم ، وكأنها الخيط الرفيع الذى ظل فاصلاً بين هذه الاقوام ، على المسرح الجغرافى المصرى .

– وعلى المسرح الجغرافى ، فى الوادى بين خط عرض أسوان وخط عرض القاهرة ، وهو الذى شهد نزول وإستيطان كل قوم من الأقوام ، على ضفاف النيل ، إستوجب الأمر .

أ– حسن إختيار المساحة المناسبة ، فى المكان المناسب ، بعيداً عن مخاطر إرتفاع المناسيب فى موسم الفيضان ، وتخوفاً من هلاك الحرث والنسل .

ب– مراعاة الفاصل ، الذى كان من شأنه الفصل بين مستوطنات هذه الأقوام ، ودون أن يتعارض هذا الفصل مع التحلى بالإنفتاح بين الأقوام والإستعداد لقبول الآخر .

– وقد تحرى كل قوم من الأقوام ، إقامة وبناء الكتلة السكنية فى المستوطنة ، من أجل مباشرة الإستيطان ، الذى خيم عليه الدفء الإجتماعى . وكان بناء الكتلة السكنية ، على ظهر أرض مرتفعة قليلاً عن منسوب السهل الفيضى . وكان من شأن هذا الإرتفاع أن يحميها من الفيضان . وأفضى ذلك فى نهاية المطاف إلى تباعد المستوطنات . وتجنب الإستطان فى نفس الوقت ، التوجه إلى أرض دلتا النيل ، التى كانت فى طور أولى من أطوار تكوينها . وكانت إنذاك لاتكاد تصلح بالفعل للإستيطان ، فى ذلك الوقت المبكر ، فى عصر ماقبل التاريخ .

– وصحيح إن كل مستوطنة من المستوطنات ، كانت فى موقع جغرافى حصين ، على إرتفاع مناسب ، كفل لها الحماية من الفيضان فى موسم إرتفاع مناسيب الجريان فى النيل ، والتنعم بالدفء الإجتماعى .

- وصحيح أيضاً أن كل مستوطنة من المستوطنات كانت فى موقع جغرافى إستدبر حافة الوادى ، وإستقبل مجرى النيل ، الذى كان فى متناول الايدى ، وكفل الإمداد بالماء لحساب حركة الحياة .

-وصحيح أيضاً أن مساحة الأرض بين موقع المستوطنة وضفة النيل ، هى التى كانت تضم مساحات الأرض المستخدمة فى مباشرة الزراعة المروية ، وجنى ثمرات الإنتاج الزراعى والإنتاج الحيوانى .

- وصحيح أيضاً ، أن وضع كل مستوطنة من المستوطنات ، فى مكانها الجغرافى المنتخب ، قد جاوب حرص كل قوم من الأقوام ، على الخصوصية ، وعلى المحافظة على الذات الخاصة ، إقتصادياً ، وإجتماعياً وحضارياً .

-ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أن هذه الأقوام ، التى كانت قد تحلت بالإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، فى أثناء وجودها فى الوطن المهجور ، حافظت على مواصلة مشوار إنفتاح قنوات التعامل الإقتصادى ، والتواصل الإجتماعى ، والإحتكاك الحضارى فيما بينها . وعظم هذا الإنفتاح وحسن الإنتفاع به ، مسئولية التعامل المشترك مع النيل ، وحتمية التعاون فى مجال السيطرة عليه ، لحساب حركة الحياة .

- وفى كل مستوطنة من المستوطنات فى مواقعها الجغرافية المناسبة ، ومن أول يوم تأتى فيه الإستيطان وقعت حركة الحياة ، أو قل وقع كل قوم من الأقوام بكامل الإختيار ، فى أسر النيل ، ولا شئ أهم من النيل . وأصبح الجريان فى النيل ، وهو فى متناول الايدى ، ولا بديل غيره ، من وراء كل دواعى ومبررات إستشعار الأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى ، فى وقت واحد . بل قل كان الجريان فى النيل ، وهو لا يكف ولا يتوقف ، هو وريد الحياة وشريانها . بل قل وضع الجريان فى النيل ، نقطة البداية فى مضى الأقوام ، على درب التعاون فى الوجود مرة ، وعلى درب التجانس فى التعايش مرة أخرى .

-وفى كل مستوطنة من المستوطنات ، فى مواقعها الجغرافية المنتخبة ، ومن أول يوم تأتى فيه الإستيطان وقع النيل والجريان فى النيل ، فى أسر حركة الحياة . وفى ظل هذا الاسر ، عاشت الأقوام فى مستوطناتها ، على

صعيد السهل الفيضى ، وهى تستشعر الأمن . وكانت حركة الحياة فى كل مستوطنة ، من وراء إرادة ضبط النهر ، وبذل كل ما فى وسعها السيطرة عليه . وقد تمثل الهدف المنشود . من هذه السيطرة ، أو من هذا الضبط ، فى تأمين حسن الإنتفاع بالجريان . وتحرى هذا التأمين تغطية الإحتياجات مرة ، ودرء حظر الفيضان مرة أخرى .

– وفى ظل هذا الاسر المتبادل ، بين حركة الحياة فى كل مستوطنة ، وهى تضبط النهر ، وعينها لا تغفل فى جانب والجريان فى النيل ، وهو ينضبط ، ويجاوب إرادة حركة الحياة ، وأهدافها المنشودة فى جانب آخر ، تأتى إطمئنان الإستيطان على أوضاعه ، وعلى مصيرة ، فى المكان والزمان . وتوجهت حركة الحياة – بكل ما في وسعها – للكدح وفلح الأرض . وبدأ مشوار الزراعة المروية فى مساحات الأرض ، بين المستوطنة ، وضفة النهر . وشارك الحيوان ، فى صبر وجلد ، فى خدمة العمل الزراعى . وكان الحمار هو شريك الإنسان الأهم ، فى إنجاز هذه المهام .

– وتحت شعار إحفظ النيل ، يحفظ عليك حياتك ، ويؤمن أوضاعك ، ويقوى أواصر إرتباطك بالأرض ، كانت اليد التى تضبط الجريان فى النيل ، فى مقابل اليد الأخرى التى تعتنى بصحة الماء فى النيل . وتعود الإنسان على تجنب كل دواعى الإفساد فى ماء النهر . وفى ظل هذه العناية المتوازنة بالنهر ، بدأ وجود مصر الوطن ، ووجود مصر جموع المواطنين على أرض الوطن . وكانت هذه البداية المبكرة ، قبل أن تشهد مصر قيام أعرق دولة فى تاريخ العالم . وقد أنهت هذه البداية المبكرة مرحلة تاريخ عصر ما قبل التاريخ .

– وعصر ما قبل التاريخ ، شهد مشوار ضبط النيل ، وتحرى وضع الجريان فيه تحت السيطرة ، مرة فى موسم الفيضان وإرتفاع المناسيب ، ومرة أخرى فى موسم الغيضان وإنخفاض المناسيب . كما شهد أيضاً مشوار المحافظة على الجريان فى النيل من التلوث . وفى الحالتين ، كان الهدف المنشود ، هو ؛

أ– تغطية إحتياجات المستوطنات من الماء ، لحساب الزراعة المروية، ولحساب الإستخدامات المنزلية .

ب– كبح جماح الفيضان ، وإبطال مفعول هذا التحدى الطبيعى، الذى

كان فى وسعه تهديد وجود حركة الحياة ، وتبديد مقومات الأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى .

– وفى مواجهة إرتفاع المناسيب فى النيل فى موسم الفيضان ، كان التوجه الرشيد ، إلى تعلية وتقوية الجسور . وتعودت قوة العمل فى كل مستوطنة ، على الإشتراك فى نقل المواد ، التى كانت تستخدم فى تعلة هذه الجسور . كما كانت تشترك أيضًا فى دكها دكًا قويًا، لكى تتحمل الجسور ضغط الماء عليها ، عندما ترتفع المناسيب ، فى مواسم الفيضانات العالية. وكم تحرت قوة العمل أيضًا ، أن تحرس هذه الجسور ، فى صبر وجلد . كما تحرت سهر الليالى أحيانًا وعينها لا تغفل ، لكى تباشر أو تواصل هذه الحراسة الليلية . وقد جسد هذا التوجه مفهوم تهذيب المجرى ، وهو الوعاء الذى يحتوى الجريان . وما من شك فى أن تهذيب المجرى ، يمثل شريحة مهمة من شرائح ضبط النيل .

– وفى موسم الفيضان ، تحرت حركة الحياة بكل الإهتمام ، فى كل مستوطنة ، واتقنت مرة أخرى ترويض الجريان ، وهو شريحة أخرى من شرائح ضبط النيل . وتمثل هذا الترويض فى تحديد كم الماء المناسب من مياه الفيضان ، وهو المطلوب . لحساب الزراعة المروية ، ولحساب الشرب ، ولحساب الإستخدامات المنزلية . وتحرت حركة الحياة مباشرة هذا التحديد ، دون إضرار بالجسور ، وقدرتها على حماية الجريان على أعلى المناسيب . وفى إطار هذه المواجهة التى فرضت السيطرة على الجريان ، وضعت حركة الحياة ، فى كل مستوطنة ، القواعد والأسس التى أفضت إلى الأخذ بنظام الرى الحوضى . وقد أجادت أو قل أحسنت ، غمر المساحة المعنية فى الوقت المناسب بالكم المناسب من الماء ، فى المساحة الزمنية المناسبة . كما أجادت صرف الفائض من هذا الماء ، ورده إلى مجرى النيل .

– وفى مواجهة إنخفاض المناسيب فى النيل ، فى موسم الفيضان (الفترة الحرجة) ، كان التوجه الرشيد مرة أخرى للتعامل المناسب مع الجريان . وتحرت حركة الحياة إنذاك ، سحب الماء حسب الحاجة المحدودة ، دون اسراف أوتبديد . وتجنب هذا السحب الرشيد الوقوع فى حبائل الحرمان أو العطش ، وسلبيات المجاعة المائية . واستوجب هذا السحب فى غياب كل

وسائل رفع المياه ، النزول إلى منسوب الماء المنخفض فى قاع النهر ، والصعود بكم من الماء المطلوب . وكم تكرر هذا النزول والصعود مرات متعددة ، فى صبر وجلد . وتحرت حركة الحياة ، فى نفس الوقت ، تخفيض معدلات استخدامات الماء إلى أدنى حد ممكن . بل قل تحرت حركة الحياة مراعاة عدم الإسراف ، فى إستخدامات المياه .

– وقد أحسنت حركة الحياة ، إختيار مواقع النزول إلى منسوب الماء المنخفض ، ومواقع الصعود المتكرر بكل العناية . وأمن هذا الإختيار الحصول على إحتياجات الحد الأدنى لحساب حركة الحياة ، دون أن تضرر جسور النيل . وفى ظل عدم مباشرة الزراعة المروية ، فى هذه الفترة الحرجة ، كان الأخذ من مياه النيل ، أخذاً رشيداً ، دون إسراف أو تبديد . وكان الهدف المنشود إنذاك دائماً ، هو توفير كم الماء المناسب ، لحساب الشرب ، ولحساب أهم الإحتياجات المنزلية الملحة . وأتقنت حركة الحياة صناعة الأوعية ، التى إستوعبت حفظ وتخزين هذا الماء .

– وما كان فى وسع حركة الحياة ، فى موسم الفترة الحرجة ، وهى تباشر أوضاع حياتها ، وتمارس أنشطتها المتواضعة ، سحب أو قل إستحضار كم الماء الذى من شأنه تغطية إحتياجات الزراعة المروية . بمعنى أن استوجبت إيقاعات العلاقة مع الجريان ، إستخدام الأرض فى الإنتاج الزراعى ، وهو شغل قوة العمل الشاغل فى أى مستوطنة ، فى موسم زراعى واحد . وغطى هذا الإستخدام الموسمى مساحة زمنية محدودة على إمتداد أربعة أو خمسة شهور فقط . وكم عاشت قوة العمل موجب هذا النظام إنذاك فى الفترة الحرجة ، وهى تجتر الفراغ دون عمل جاد ، أو دون نشاط إنتاجى زراعى نافع تنجزه لحساب القوم .

– وفى إطار حب العمل وبذل الجهد ومباشرة الكدح ، لحساب حركة الحياة ، أتاح هذا الفراغ فرصاً للإبداع الحضارى المادى والمعنوى . وسواء تمثل هذا الإبداع فى التحسين والتجديد ، أو تمثل فى الإضافة وإبتكار الجديد ، تحرى المبدعون ، الإنجاز لحساب حركة الحياة . وقل كان هذا الإنجاز البديع مرة أخرى ، لحساب تحسين أوضاع معيشة حركة الحياة اليومية . وكان

هذا الإنجاز البديع مرة أخرى ، لحساب تحسين وسائل التعامل مع الجريان فى النيل ، وفى كــل الأحوال ، جاوب هذا الإنجاز البديع ، شطحات خيال المبدعين أحياناً ، أو عصارة التفكير العميق المبدع أحياناً أخرى .

– وأفضى هذا الإبداع الحضارى ، مع مرور الوقت وتعاقب الاجيال ، إلى تحسين أوضاع المساكن ، فى إطار الكتلة السكنية ، التى تتعطر برائحة الريف . وكان وجــود القرية التى إحتوت حركة الحياة ، أسبق من وجود المدنية ، التى تتعطر برائحة الحضر . وأضاف هذا الإبداع الحضارى إلى الكتلة السكنية مساحة لحساب السوق ، وأخرى لحساب اللهو والسمر وأحياء الأعياد فى المناسبـات العـامة . وكما إهتم هذا الابداع الحضارى بالقرية لحساب القوم ، كان إهتمامة بالجبانة لحساب من مات وقضى نحبه . واستوحى هذا الإهتمام إبداعه ، من خلال الإعتقاد فى الخلود والإنتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى ، وأسرارها الغامضة .

– ومن غير تفريط فى دواعى ومبررات خصوصية كل قوم من الأقوام ، وإعتصامه فى مستوطنته ، ومن غير تجاوزات تنتهك الخيط الرفيع الفاصل بين خصوصية القوم وخصوصية الأقوام الأخرى ، استوجب التعامل مع النيل وضبطه وأحكام السيطرة عليه ، تعاونًا ملزمًا ، بين هذه الأقوام . ورسخ هذا التعاون الجاد ، قيم وتقاليد الإنفتاح والتحلى بالإستعداد لقبول الآخر . وفتح هذا التعاون قناة إتصال بين هذه الأقوام ، جاوبت الإلتزام الجماعى ، فى مجال ضبط النيل بصفة عامة ، وتهذيب وصيانة المجرى بصفة خاصة .

– وفى ظل هذا التعاون ، إستشعرت الأقوام مفهوم المصلحة المشتركة ، العامة . وتعَـودت الأقــوام على مواجهة الجريان فى النيل ومتغيراته وتحدياته الخطرة ، على قلب رجل واحد . وإضاف هذا التعاون ، قوة دفع شدت أزر مسـيرة التجانس التى كانت قد بدأت بداية متواضعة ، فى الوطن القديم المهجور . وكان توحد مفردات اللغة ومباشرة الكلام ، أهم خطوة على درب هذا التجانس . ومع ذلك ظل كل قوم ، وظل ولى الأمر ، وهو الحاكم وصاحب السلطة فى المستوطنة ، مسئولاً عن أوهى معالم الخصوصية .

– من الجعبة التى كانت قد إحتــوت موروثات ثقافة الحياة ، وثقــافــة

الإعتقاد ، وثقافة الموت ، خرجت الإرادة والعزم والتصميم ، الذى تحرى حماية الخصوصية . وفى نفس الوقت ، كان فى وسع الأقوام ، أن تحافظ على التوازى والتوازن ، بين تعاون حتمى بينهم وهم فى صف واحد فى مواجهة الجريان فى النيل مرة ، وخصوصية إعتز بها القوم وتجنب التفريط فى أصولها ومبرراتها مرة أخرى . وكفل هذا التوازى والتوازن ، حسن الجوار وتنشيط معدلات التعامل الإقتصادى ، والتواصل الإجتماعى ، والإحتكاك الحضارى . كما كفل وجاوب فى نفس الوقت المسيرة المتأنية على درب التجانس .

– ومع مرور الوقت وتعاقب الاجيال ، شهدت المستوطنات النمو الديموجرافى الذى خيمت عليه نعمة الأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى . كما تنامى الإرتباط المادى بالأرض ، وهى تنتج ولا تبخل ، والإرتباط الوجدانى بالأرض ، وهى تضم رفات الاموات . وباشرت الأقوام التوسع الأفقى ، فى مساحات الأرض المزروعة ، وتضخمت فى نفس الوقت المستوطنات . ومن حول هذه المستوطنات ، إنتشرت بعض التوابع أو القرى الصغيرة ، التى شغلت المساحات الفاصلة بين القوم والقوم الآخر . وأصبح المسرح الجغرافى على إمتداد السهل الفيضى من خط عرض أسوان إلى خط عرض القاهرة ، مأهولا وزاخراً بالعمران .

– ومع مرور الوقت ، وتعاقب الاجيال ، بلغت تكوينات سطح دلتا النيل آنذاك مبلغ النضج البنيوى المناسب لوجود حركة الحياة . وأسعف النمو الديموجرافى رحلة الزحف العمرانى فى إتجاه أرض الدلتا . وشهد المسرح الجغرافى على صعيد الدلتا ، هذا التوسع الافقى فى العمران . وتكرر الإهتمام بإختيار المواقع الجغرافية المناسبة للإستيطان ،وإقامة المستوطنات فى إنحاء متفرقة من الدلتا . بل قل تكرر سيناريو الإستيطان ومباشرة العمران ، الذى كان قد شهده السهل الفيضى فى الوادى ،على ضفاف النيل .

– وسواء أقام الإستقرار فى المستوطنات وتوابعها ، على صعيد السهل الفيضى فى الوادى الضيق على ضفاف النيل ، أو أقام الإستقرار الزاحف فى المستوطنات فى أنحاء الدلتا الواسعة ، وعلى ضفاف فروع النيل ، فقد تمادت حركة الحياة فى مباشرة الزراعة المروية . وأفضى الإنتشار العمرانى على المستوى

الأفقى ، إلى توسيع مساحة الوطن المصرى ، الذى تعطر برائحة الريف . وعاشت حركة الحياة ، تحت مظلة الأمن الإقتصادى الذى عزز الأمن الإجتماعى ، وهى التى كانت تمضى على درب التجانس .

– وإستوجب التحول من مباشرة الزراعة المطرية ، التى كان قد تعود عليها الإستقرار فى مستوطنات الوطن القديم المهجور ، إلى مباشرة الزراعة المروية فى ظل نظام الرى الحوضى ، شيئًا كثيراً من الكدح والعمل اليومى الشاق ، والحرفية . وتمثلت هذه الحرفية المكتسبة ، فى مهارة تمرير مياه الرى فى الوقت المناسب لكى تغمر الأرض . كما تمثلت هذه الحرفية أيضاً ، فى مهارة ضبط إيقاعات صرف الماء الزائد عن حاجة الأرض ، ورده إلى مجرى النيل وفروعه ، فى الوقت المناسب . وتزايدت هذه الحرفية ، عندما تأتى إبداع الشادوف ، والقدرة على سحب المياه من المنسوب المنخفض ، من أجل زراعة مساحات صغيرة محدودة ، فى أثناء الفترة الحرجة .

– وأفضى هذا التحول من مباشرة الزراعة المطرية ، إلى مباشرة الزراعة المروية ، إلى نقلة نوعية مستجدة من وجهة النظر الإقتصادية . وحررت هذه النقلة النوعية المستجدة ، قوة العمل فى الحقل ، من مباشرة أساليب الزراعة الأولية البدائية المتواضعة ، إلى مباشرة أساليب الزراعة الراقية . وإمتلك المزارع إستخدام الفأس فى فلح الأرض وتجهيزها للزراعة . وإتخذت هذه الزراعة الراقية ، مواصفات وخواص الزراعة الكثيفة ، وهى محصلة الرى الحوضى ، فى نهاية كل موسم من مواسم الفيضان . وكفلت المساحة الزمنية التالية لموسم الحصاد لمساحات الأرض المزروعة ، الوقت الكافى ، لكى تسترد التربة الطيبة عافيتها وحيويتها ، إستعداداً لموسم زراعى جديد .

– ورشدت هذه الزراعة الراقية من وجهة النظر الإقتصادية ، الإبداع الحضارى ، لكى يبتكر أول حساب للزمن ، فى إطار السنة الزراعية . وقسم هذا الابداع الحضارى السنة إلى ثلاثة مواسم . وبصرف النظر عن تفاوت المساحة الزمنية لكل موسم من هذه المواسم ، تمثلت فى موسم الفيضان ، وموسم الزراعة ، وموسم الحصاد . ونشط هذا الإبداع التفكير العميق فى شأن حساب الزمن ، وتحرى ظاهرة طبيعية مناسبة لضبط إيقاعات حساب الزمن . وبشر هذا

التفكير بقرب وضع التقويم المناسب لحساب الزمن .

– ورسخت أوقل عظمت هذه الزراعة المروية الكثيفة ، ومعطياتها فى نهاية كل موسم زراعى ، دواعى الأمن الإقتصادى ، لحساب القوم فى كل مستوطنة ، على صعيد المسرح الجغرافى المصرى . وحققت هذه الزراعة الكثيفة ، وفرة فى إنتاج المحاصيل الحقلية ، وفى تنوعه . وفى الوقت التى زادت فيه العناية بصوامع تخزين الغلال ، إتسعت فرص تسويق بعض المحاصيل . وشهدت السوق على هامش الكتلة السكنية فى كل مستوطنة ، هذا النشاط التجارى وخضع العرض والطلب للنظام الإقتصادى العينى ، ومبادلة السلعة فى مقابل السلعة الأخرى .

– وعلى صعيد كل قوم من الأقوام ، وفى كل مستوطنة من المستوطنات ، كان وضع اليد ، هو السند الشرعى لحق حيازة الأرض وإمتلاكها . ومباشرة الزراعة المروية ، أو أى نشاط إنتاجى آخر ، على صعيد أى مساحة معينة ، هى التى كانت تعلن عن هذا السند الشرعى ، وتستوجب الإعتراف به وإحترامه . وأفضى حق الحيازة ،ومباشرة إستخدام الأرض ، مع مرور الوقت وتعاقب الاجيال ، إلى ترسيخ حق الملكية الخاصة التى كان لا يجوز الطعن فيها . وتعارف الناس فى كل قوم ، على سبل إحترام هـذا الحق والمحافظة عليه ، وعدم التفريط فى الأرض . كما تأتى التعارف على قبول حكم ولى الأمر ، فى مجال فض المنازعات ، على حق حيازة وملكية الأرض .

– وفى إطار رصيد موروثات ثقافة الحياة ، التى تعود عليها الناس فى الوطن القديم المهجور ، سار الأخذ بمعطيات هذا الرصيد ، بل قل سار التعارف على معنى ومغزى توريث التركة ، وكيف كان يتأتى إنتقال حق الملكية من جيل إلى جيل آخر . وأصبحت هذه الملكية مقياساً متعارفاً عليه ، فى مجال الوجاهة بين الناس ، والتمييز بين الثرى والفقير . كما سار التعارف على سبل فض المنازعات ، بين الورثة أحياناً ، أو بين الورثة وغير الورثة أحياناً أخرى .

– هكذا كان الامعان أو التمادى فى حب الأرض والإعتزاز بها ، والتفانى

فى درء العدوان عليها . وقد عظمت ملكية الأرض وحتمية المحافظة عليها ، وتحرى أحسن سبل الإنتفاع بها وعدم التفريط فيها ، روح التحلى بالإنتماء الوطنى . وفى مقابل إنتماء وطنى تحلى به القوم فى الوطن القديم المهجور ، تأتى إنتماء وطنى تحلى به القوم فى وطنهم على صعيد المسرح الجغرافى المصرى . وفى توازى حميد ، وتوازن بديع جمع ونسق ، بين التحلى بالإنتماء القومى فى جانب ، والتحلى بالإنتماء الوطنى فى جانب آخر ، خيم على المستوطنة السلام الإجتماعى . ورسخ هذا السلام الإجتماعى ، موجبات ومبررات وقواعد الأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى .

– وإتخذ حب الأرض والحرص على ملكيتها من النمو الديموجرافى مبرراً لتوسيع المجال الحيوى الخاص بالمستوطنة على المستوى الأفقى . وقامت التوابع بدور الديدبان الحارس لهذا التوسع الأفقى ، لحساب المستوطنة الأم . واستوجب هذا التوسع زيادة فى أنشطة إستخدام الأرض . وأضافت هذه الزيادة أعباء إستجدت ، على كاهل قوة العمل . وفى صحبة هذا التوسع الافقى واجه القوم سلبيات ومتاعب ، فى مقابل إيجابيات ومنافع .

– وتمثلت هذه السلبيات ، فى تداخل فى بعض الأحيان ، بين المجال الحيوى للمستوطنة ، والمجال الحيوى للمستوطنة المجاورة . وكم اثار هذا التداخل المنازعات على الحق فى إستخدام الأرض ، أو على الحق فى حيازة وإمتلاك الأرض . ومن ثم كان من الضرورى التماس سبل فض الإشتباك ، وتحجيم المنازعات وتداعياتها بين المتنازعين . وكانت مجالس المصالحة حريصة على فض هذا النزاع ، من أجل المحافظة على السلام الإجتماعى بين الأقوام .

– وتمثلت هذه الإيجابيات ، فى تقارب بين القوم والقوم الآخر . وكم أفضى هذا التقارب إلى تفعيل الإنفتاح وتعظيم الإستعداد لقبول الآخر . وفى ظل تفعيل الإنفتاح ، تحسنت فرص التعامل الإقتصادى ، وفرص التواصل الإجتماعى ، وفرص الإحتكاك الحضارى ، بين الأقوام . وأفلح ذلك فى تنشيط دواعى التجانس ، وفى إسقاط دواعى الفصل بين خصوصية الأقوام ،

التى كانوا قد تعودا عليها ، وتشبثوا بها . وهل هناك أجدى من تداخل الأقوام فى نسيج القوم الواحد ؟

– ومع مرور الوقت ، وتعاقب الاجيال ، واستمرار مشوار التجانس ، والمضى على درب الإبداع الحضارى المادى ، تحرت حركة الحياة المزيد من التنور . وسجل هذا التنور إضافات أثرت وعززت رصيد ثقافة الحياة على صعيد كل مستوطنة من المستوطنات . ورشدت معطيات هذه الإضافات ، تنشيط وإتساع دائرة الإنتاج بصفة عامة ، وأثرت البنية الإقتصادية بصفة خاصة . وأفضى هذا الثراء الإقتصادى إنذاك إلى تنويع الإنتاج تنوعياً جاوب تفتح شهية الإستهلاك ، وتحسين مستوى المعيشة . هذا بالإضافة إلى حفز دواعى المضى فى طلب ما هو أفضل .

– وإستوجب هذا التوجه الرشيد إلى طلب الأفضل ، المضى فى مجالات ، تنشيط الإنتاج ، وتوسيع قاعدته ، وتنويع معطيات . وتنافست حركة الحياة فى المستوطنات ، فى هذا التوجه . وجاوب هذا التوجه زياد العرض فى مواجهة زيادة الطلب . كما جاوب مرة أخرى ، إتساع دائرة التعامل الإقتصادى إتساعًا أنهى تحرى البعض الكفاية الذاتية . وأفضى هذا الإتساع إلى تنشيط إيقاعات التبادل السلعى ، بين الأقوام فى المستوطنات ، وإنتعاش الحركة فى السوق ، فى كل مستوطنة .

– ومع تنامى التجانس وتداخل الأقوام فى لباس القوم الواحد ، وتنامى التعامل وإتساع دائرة العلاقة بين العرض والطلب . نشأت الأسواق التى جاوبت هذا التنامى . وشهدت هذه الأسواق تنشيط العلاقات الإقتصادى وتبادل السلع المتنوعة بين سكان المستوطنات . وفى خدمة هذ التوجه الإقتصادى ، وإنتعاش التبادل السلعى ، وتنامى وإزدهار دور الوسيط التجارى . بل قل تخصص هذا الوسيط التجارى فى أداء دوره الوظيفى . وكان عليه عندئذ ، ضبط إيقاعات العلاقة بين العرض والطلب .

– وفى الإعتقاد الجغرافى ، الذى يكون فى وسعه ، إستحضار صورة حركة الحياة ، فى ذلك الماضى البعيد إدراك وحسن إستيعاب معنى ومغزى ، تداخل أرصدة ثقافة الحياة للأقوام ، فى رصيد موحد جامع . وهذا التداخل

الذى تأتى مع مرور الوقت ، هو الذى أفضى إلى حتمية توحد مصالح وأهداف الأقوام . بل قل إنه التداخل الذى كان وراء تحرى وحدة المصير المشترك فى المكان والزمان . وأصبح هذا التوحد وتداعياته ، إقتصاديًا ، وإجتماعيًا ، وحضاريًا ، من وراء تسريع مشوار تجانس لبنات البناء البشرى . وكانت صياغة هذا البناء البشرى المتجانس ، من وراء صياغة نسيج القوم الواحد .

– وفى الإعتقاد الجغرافى مرة أخرى ، أن رتابةوتواصل السطح ، على صعيد المسرح الجغرافى المصرى ، على إمتداد السهل الفيضى فى حضن النيل وفروعه (١) . أسهم فى تداخل الأقوام ، فى نسيج القوم الواحد المتجانس . وأعلن هذا التداخل عن مولد شعب مصر ، على كل تراب أرض مصر . وفى ظل هذا الوضع المستجد ، إستمر مشوار التجانس . وأصبح الفاصل بين المستوطنة والمستوطنة الأخرى ، ورغم حضور ولى أمر حاكم حريص على خصوصيتها ، أو هى من خيط العنكبوت . بل قل أصبح الشعب الذى توحد وتجانس لبناته ، فى إنتظار الحاكم القوى ، الذى يجاوب هذا التوحد ، وفرض سيادة شعب مصر على كامل تراب مصر .

– ومن تحت نفس العباءة ، التى أخرجت دواعى وموجبات التمرد على الفصل بين الأقوام ، والاقلاع عن دواعى ومبررات التشرذم ، ووجهت الأقوام إلى التوحد ، وصياغة رصيد ثقافة الحياة الموحد ، أخرجت دواعى وموجبات توحد رصيد ثقافة الموت . وكفل توحد ثقافة الموت ، مزيداً من تعظيم وتقدير

---

(١) نزلت أو قل نزحت بعض الأقوام من الوطن المهجور ، إلى الجيوب السهلية المغلقة ، على إمتداد النيل النوبى . وعاش كل قوم من هذه الأقوام متفرداً فى جيب من هذه الجيوب السهلية . وطور كل قوم مسيرته إقتصاديًا وإجتماعيًا وحضاريًا ، فى إطار خصوصية إحتوتها هذه الجيوب السهلية . وفى ظل خواص وخصوصية كل جيب من هذه الجيوب السهلية ، وإنغلاقها الذى فرضه الواقع التضاريسى ، إنغلق كل قوم على ذاته ، وحافظ على مقومات خصوصيته . ومع مرور الوقت إتخذ كل قوم شكل القبيلة . وما كان فى وسع هذه القبائل أبداً ، وهى تجاوب الواقع الطبيعى ، أن تصل العلاقات فيما بينها ، إلى درجة التجانس ، لكى يكون شعباً متجانساً .

وإجلال الموت ، ومزيداً من إستيعاب معنى ومغزى مفارقة الحياة . واستوجب هذا التوحد ، تطوير طقوس ، ومراسم تشييع الميت ، وطقوس وضعه فى مرقده الأخير تحت التراب . وقل زادت العناية بجبانة الموتى . وجاوبت هذه الزيادة ، ترسيخ رفض فكرة العدم ، فى مقابل ترسيخ فكرة الخلود ، بل قل إزداد الإيمــان ، بمشــوار الإنتقــال الحــتمى للموتى ، من الحيــاة الدنيا ، إلى الحياة الأخرى .

– وفى ظل ترسيخ رفض فكرة العدم رفضاً قاطعاً ، وتعظيم فكرة الخلود الايدى تعظيماً صريحاً ، تأتى الإهتمام بسلامة جثمان الميت فى مرقده تحت التراب . وتمثل هذا الإهتمام ، فى عملية تحنيط جثمان الميت ، ومباشرة الطقوس والمراسم المصاحبة لعملية التحنيط . وكان الهدف إنذاك ، أن يبقى هذا الجثمان سليماً ، حتى ترتد إليه الروح ، وهو يمضى فى مشوار الحياة الأخرى . كما تمثل هذا الإهتمام مرة أخرى ، فى إبداع أغراض وبعض متاع الميت فى صحبته تحت التراب . وكان الهدف أن يتسنى للميت إستخدام هذا المتاع ، فى مباشرة حياته ، فى الحياة الأخرى . وقد وثقت ثقافة الموت علاقتها بثقافة الإعتقاد ، حيث ساد التصور بالتحاق الميت بصحبة الالهة . وحملت ثقافة الموت ، فى رصيدها المتنامى ، الإعتقاد ، فى تواصل حتمى بين مكانة المرء فى حياته ومكانته فى الحياة الأخرى .

– وفى ظل علاقة الوصل المنطقى ، بين رصيد ثقافة الحياة ، ورصد ثقافة الموت ، نمت وتطورت ثقافة الإعتقاد . وفى ظل هذا التطور ، وتحرى تعميق الإعتقاد ، أضافت حركة الحياة الهة جديدة . وكانت هذه الإضافات من وحى البيئة المصرية . كما أضافت حركة الحياة ، تعظيماً وتقديساً للالهة . وفى غيبة عدم القدرة على إستيعاب التجريد ، حافظت حركة الحياة على التجسيد ، والإستغراق فى صناعة الأوثان بايديهم ، وهى التى خروا لها ساجدين . وعمقت ثقافة الإعتقاد ، أسس وقواعد الإيمان فى قلوب حركة الحياة .

– وفى ظل هذا التطور ، وتعميق الإعتقاد مرة أخرى ، بدأ إستشعار معنى ومغزى الحساب ، وتصور الوقوف أمام الالهة . وإستشعرت حركة الحياة مسئولية المرء عن عمله ، وعن سلوكه ، والإستعداد لتلقى الثواب أو العقاب . بمعنى

أن سارت فكرة التميز بين الخير والشر ، أو بين الصواب والخطأ . واستوعبت حركة الحياة مفهوم الخطيئة ، ومسئولية المرء عنها . ومن ثم صار التمييز بين إستحقاق التنعم بنعيم الجنة ، وإستحقاق العذاب في جحيم النار . وهيمن الخوف من العقاب وسوء المصير في الحياة الأخرى ، هيمنة إستوجبت التمادى في التقرب إلى الالهة .

– وفي الوقت الذى أمعنت فيه حركة الحياة وتمادت في تقديس الالهة ، والتغرب إليها ، بدأت العناية بتشيد المعبد ، في المكان المناسب في إطار الكتلة السكنية . وإتخذت حركة الحياة من المعبد في شكله المتواضع ، مكاناً للعبادة ومباشرة طقوس ومراسم تقديم القرابين . وفي المعبد ظهرت شخصية الكاهن الذى أصبح متفرغًا لاداء دوره الوظيفي ، وهو في صحبة الالهة . وبموجب هذه الصحبة ، إحتل الكاهن مكانة مهمة في إطار التركيب الهيكلي للمجتمع في المستوطنة . ومكانة الكاهن أكسبته مهاية وشرفًا عظيماً ، ومنحته نفوذاً خطيراً ، وأجلسته في موضع الإحترام والتقدير . ورفعت هذا المهامة قدر الكاهن وزادته تشريفاً . وإقترب من ولي الأمر الحاكم في المستوطنة ، وتقرب منه الحاكم في نفس الوقت . وبات من شأنه تقديم المشورة أحياناً ، أو توجيه الأمر الية أحياناً أخرى . بل قل إكتسب الكاهن سلطة ، أعانته على مباشرة التسلط . ولا أحد كان في وسعه أن يسأله ، أو أن يعترض عليه ، أو أن يعرض عنه

– وتحرى الكهنة العناية بالمعبد ، وهو بيت الاله . ووضع الكهنة طقوس ومراسم دخول المعبد ، وطقوس ومراسم إستقبال الوافدين إليه ، وطقوس ومراسم الدعاء والإنتهال وتقديم القرابين . وخيمت إرادة الكاهن وهيمنت على الحضور في المعبد ، وهو يباشر هذه الطقوس ، وتحرى العلاقة بين العابد والمعبود . ولكى يؤمن الكاهن سيطرته وتعظيم هيمنته ، وتعزيز هيمنته ، وترسيخ مكانته ، تحرى الكاهن التحلي بالحكمة والعلم . وتعود الناس عندئذ ، على التقرب إليه ، والتماس البركة منه حتى أصبح وكأن روح الاله ، قد تجسدت فيه .

– وكان في وسع ثقافة الإعتقاد ، وهي التي وثقت الصلة بين ثقافة الحياة وثقافة الموت ، أن تمثل الشغل الشاغل الذى شغل الكاهن بصفة

خاصة، والذى شغل حركة الحياة بصفة عامة . وتداخل تأثير ثقافة الإعتقاد وتداعياتها ، بشكل مباشرة أحياناً ،وبشكل غير مباشر أحياناً أخرى ، فى مشوار حركة الحياة . وأفضى هذا التداخل ، إلى تعظيم الالوهية ، وتعظيم مكانة ومهابة الكاهن ، وهو وثيق الصلة بالاله . وتعاظمت سلطة الكاهن ، حتى هيمن أحياناً ، وتسلط أحياناً أخرى ، على أوضاع حركة الحياة ، وتعامل الناس مع الكاهن ، وتقبلوا هيمنته عن طيب خاطر ، وكأن هو بذاته الاله .

– وفى ظل هذا الإقتناع والقبول ، بل قل الإستسلام الكامل لسيطرة الكهنة ، وهيمنة ثقافة الإعتقاد ، وهى تشبع وتوجه الجوانب المعنوية من الحياة ، تعاظمت قوة فعل الإبداع الحضارى المعنوى وتداعياته . وفى ظل التنعم الفعلى بالأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى ، وهو يجاوب الجوانب المادية من الحياة ، تعاظمت قوة فعل الإبداع الحضارى المادى وتداعياته . وفى صحبة هذا الإبداع الحضارى وتجلياته وتداعياته ، على الوجهين المادى والمعنوى ، تنامت وإنتعشت دواعى ومبررات التجانس البشرى .

– هذا ، وكان هذا التجانس البشرى ومشواره الطويل ، الذى بانت بشائره المبكرة ، على صعيد الوطن المهجور ، من وراء نسيج بشرى متين ، على صعيد المسرح المصرى . وقد تلاحمت لبنات هذا البناء البشرى ، تلاحماً سليماً ، بث ورسخ روح التوحد القومى . ووضع هذا التوحد القومى شعب مصر ، فى مواجهة أعباء حركة الحياة ، على قلب رجل واحد . وأفضى هذا الوضع المستجد ، إلى أن أصبح هذا النسيج البشرى المتجانس الذى خلع عن الأقوام لباس التشرذم ، شعباً واحداً تماسكت لبناته .

– وتحلى هذا الشعب إنذاك بالجمع المتوازن وجدانياً ، بين الإنتماء الوطنى وحب الوطن ، والإنتماء القومى وحب الأهل أصحاب الوطن . وبات هذا الشعب ، على صعيد كل المسرح الجغرافى المصرى وقد تماسكت بنيته ، وتوحدت مصالحه ، وإشتد عوده . وعندئذ قل تجسدت هوية شعب مصر ، وتحددت ملامح شخصيته، فى إطار وطنه . وكان ذلك كله ، وكأنه التوجه الجماعى الذى وجه الدعوة ، التى دعت أو قل إستوجبت ، أن تخرج زعامة

من بين الشعب ، تجاوب إرادته . وكان فى وسع هذه الزعامة ، أسقاط الخيط الرفيع الفاصل بين المستوطنات ومجالاتها الحيوية ، وفرضت هذه الزعامة نظام حاكم ، خرج من تحت عباءة شعب مصر على أرض مصر ، لكى تكون دولة مصر .

الرابعة

صورة تتحدث عن شعب عريق أقام دولة مصر ، وتحلى بإنفتاح جدد الحيوية فلا يشيخ أبداً ، ولا تغيب مصر عن مجتمع الدول على الساحة العالمية

الرابعة

حضور مصر ، الذى لا يغيب

– من بعد أن وجدت مصر الأرض ، على المسرح الجغرافى ، فى المكان والزمان ، فى مرحلة أولى ، وهى الوطن . وقد لعب جريان النيل دور البطولة المتفردة ، فى كل مشهد من مشاهد سيناريو ، إعداد وتجهيز هذا المسرح الجغرافى ، على صعيد السهل الفيضى والدلتا .

– ومن بعد أن وجدت مصر الناس فى ربوع هذا المسرح الجغرافى على ضفاف النيل ، فى مرحلة ثانية ، وهم جذور شعب مصر . وقد لعب الجفاف ، وهو عامل طرد ، فى مقابل جريان النيل ، وهو عامل جذب ، دور البطولة المشتركة ، فى صياغة كل مشهد من مشاهد سيناريو النزوح ومغادرة الوطن المهجور ، إلى الوطن المصرى .

– ومن بعد أن وجدت مصر الأرض ، وهى الوطن ، ووجدت مصرالناس على صعيد أرض الوطن وهم جذور الشعب ، بدأ مشوار التجانس الذى صنع نسيج الشعب المتين ، فى مرحلة ثالثة . وقد لعب الإنفتاح والتحلى بالإستعداد لقبول الآخر ، فى تعاون الناس فى مجال ضبط النيل ، والسيطرة عليه مرة ، وفى ترسيخ قواعد الأمن الإقتصادى ، وأصول الأمن الإجتماعى مرة أخرى ، وعلى أوسع مدى ، فى تفعيل وتنشيط دواعى ومبررات التجانس . وقل بعد ذلك كله ، أن هذا التجانس ، هو الذى سوى من تواصل وتلاحم وتعاون الناس شعباً ، عاش ويعيش التجربة الحياتية المصرية .

– ومساحة زمنية طويلة على المدى الجيولوجى الطويل ، كانت لكى يتكامل سيناريو تجهيز المسرح الجغرافى للوطن على ضفاف النيل وفروعه فى الدلتا . ومساحة زمنية طويلة ، على المدى الطويل فى أثناء العصر الحجرى الحديث ، كانت لكى يتأهل الإستقرار ويتحلى بالخبرات والمكتسبات الإقتصادية والإجتماعية والحضارية ، قبل النزوح الإجبارى العظيم والتوجه الرشيد ، إلى المسرح الجغرافى للوطن المصرى . ومساحة زمنية مناسبة على

صعيد الوطن المصرى ، كانت لكى تتأتى كل دواعى التجانس ، وتتكامل بنية وصياغة النسيج البشرى المتجانس الذى أعلن عن ميلاد شعب مصر العريق .

– وكانت إرادة الله الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، من وراء تسخير قوة فعل الطبيعة لكى يتأتى تنفيذ سيناريو تجهيز المسرح الجغرافى للوطن المصرى مرة ، ومن وراء تسخير الإلهام وتوجهاته الرشيدة لكى يتأتى ترشيد الإنسان وحسن صياغة وتنفيذ سيناريو تأهيل الإستقرار مرة أخرى . كما كانت إرادة الله أيضاً من وراء النزوح العظيم من الوطن المهجور ، وهو الذى سخر عامل الطرد تسخيراً جاوب عامل الجذب . وعلى صعيد المسرح الجغرافى للوطن المصرى ، الذى شهد مقدم هذا النزوح . وكانت إرادة الله ، من وراء تفعيل وتنشيط كل دواعى ومبررات التجانس ، لكى يكون الشعب على صعيد مصر .

– ومن تحت عباءة هذا الشعب ، خرج النظام الحاكم ، الذى تحرى ضبط إيقاعات مسيرته ، وتأمين وجوده على المسرح الجغرافى للوطن . وفى مرحلة ، خرج هذا النظام الحاكم الذى جاوب إرادة الشعب فى الوادى، وخرج النظام الحاكم ، الذى جاوب إرادة الشعب فى الدلتا . وأعلن هذا الوضع الذى إستجد ، عن تكامل مقومات وجود دولتين ، واحدة فى مصر العليا ، والاخرى فى مصر السفلى . وقد تولى النظام الحاكم فى كل دولة ، المسئولية فى خدمة الشعب ، وهو الذى دعم وعزز الأمن الإقتصادى ، وهو الذى حمى وحافظ على الأمن الإجتماعى ، وهو الذى تحرى تحسين أوضاع حركة الحياة .

– ومع مرور الوقت كانت دواعى التجانس ومبررات المصلحة المشتركة لحساب شعب مصر الذى تجانست لبناته ، أقوى من دواعى ومبررات ، هذا الفصل بين شعب واحد فى دولتين . وإنتهى الأمر ، إلى نظام حاكم قوى أنهى هذا الفصل ، وأعلن عن مولد دولة جاوبت تجانس ووحدة شعب مصر . وفى ظل هذا النظام الحاكم الذى أدخل الدولتين فى ثوب الدولة الواحدة ، تحددت ملامح نظام الحكم المركزى فى الدولة . وكانت دولة مصر هى الاقدم والاعرق ،على الصعيد الاقليمى ، بل قل على الصعيد العالمى إنذاك ، وكان وجود مصر الوطن ، ووجود مصر الشعب المتجانس ، ووجود الدولة ، وكأنه النموذج أو المثال ، الذى ضبط إيقاعات مسيرة حركة الحياة ، والذى كان

ينبغى الأخذ به .

– وإضافة إلى هذه السيناريوهات المتلاحقة ، التى تحدثت عن وجود مصر الوطن ، وعن وجود مصر الشعب ، وعن وجود مصر الدولة الموحدة فى المكان والزمان ، هناك السيناريو الاعظم ، الذى يجب أن يتحدث عن إستمرار وجود مصر في مكانها الجغرافي ، وأن يتحرى دواعي ومبررات إستمرار وجود مصر . ومن شأن هذا السيناريو أن يكشف عن حيوية مصر ، وكيف تجنبت أعراض الشيخوخة ، حتى كان فى وسعها أن تمتلك هذا الحضور المستمر ، فلا تغيب عن الساحة أبداً .

– ومعلوم أن مصر قامت فى مكانها الجغرافى ، وحددت ملامح شخصيتها الجغرافية ، وجسدت محصلة العلاقة بين عبقرية المكان وعبقرية الإنسان ، لكى تبقى ولا تغيب أبداً عن الساحة . وقل فى كل صفحة من صفحات تاريخ الإنسانية على صعيد الأرض ، يأتى ذكر مصر ، ودور تستحق بموجبه ، أن يرد ذكر مصر . بل قل مصر موجودة فى قلب الاحداث على الساحة ، ولا مبرر لتهميشها أو لغيابها . وتبقى مصر التى لا تغيب ، وهى تزهو وتتألق فى مقعد العز والإزدهار أحيانًا ، أو وهى فى مقعد الضعف والإضمحلال أحياناً أخرى . ويبشر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو القائل بأن أهلها فى رباط إلى يوم الدين ، بإستمرار هذا الوجود ، الذى لا تغرب عنه الشمس أبداً .

– وفى ظل المقارنة التى لا تقع فى خطيئة التميز ، بين وجود مصر التى لا تغيب عن الساحة أبداً ، ووجود دول كثيرة أخرى ، قامت لبعض الوقت ، ثم غابت وإندثرت وفقدت حق وجودها على الساحة ، يكون السؤال الذى يستفسر عن سر إستمرار وجود مصر ، التى لا تغيب ولم ولن تغيب عن الوجود فى إطار مجتمع الدول . ومنذ أن رفع مينا راية الوحدة ، وأقام نظام الحكم المركزى ، أصبحت مصر فى مكانها الجغرافى ، موجودة على الساحة وسواء جاوب مينا إرادة الشعب المتجانس ، فكانت مصر الدولة ، أو جاوب الشعب المتجانس دعوة مينا الملك ، فكانت مصر الدولة العريقة والراسخة فى مكانها الجغرافى الحاكم ، فرضت مصر وجودها العبقرى فى أول صفحة من

صفحات تاريخ الإنسانية .

– ومصـــر التى خرجت خروجًا منطقيًا ، من تحت عباءة الإبداع الحضارى ، الذى أسفر عنه ذلك الاسر المتبادل بين عبقرية المكان الذى يتوجه النيل فى جانب ، وعبقرية الإنسان الذى يتوجه التجانس ، فى جانب آخر ، وإتخذت مواصفات وملامح أقدم وأعرق دولة ، وجدت لكى تبقى . وما إنفرط أبداً ذلك العقد المتين ، الذى جمع منظومة مقومات الدولة وتركيبها الهيكلى السليم ، حتى تغيب ويغيب ذكرها ، فى أى صفحة من صفحات تاريخ الإنســانية لبعــض الوقت ، ثم تــرتد إليهــا الروح لكى تقوم مرة أخرى من جديد .

– وقل إن مصر كانت موجودة ، وهى دولة مستقلة على الساحة ، السياسية ، ولها ولشخصيتها كل المهابة بين الدول فى مجتمع الدول . وقل مرة أخرى إن مصر كانت موجودة ، وهى فى أسر التبعية لإمبراطورية كبرى حاكمة على الساحة الإقليمية ، ولها كل المكانة الخاصة المتفردة . بل قل أن مصـــر التى ظلت موجــودة ، والتى حــافظت على كيانهـا الخاص ، فى الحالتين ، كان فى وسعها دائمًا ، أن تكون ، وأن تبقى وتحافظ وتصون ملامح شخصيتها الجغرافية المتميزة والمتفردة فى المكان والزمان ، ولم تفرط فيها أبداً .

– وإذا كان من شأن النظام الحاكم فى مصر ، وهى دولة مستقلة على الساحة ، ولها كل المهابة المحافظة على ملامح شخصية مصر وخصوصيتها المتفردة ، فإن قوة وصلابة مقومات هذه الشخصية ، هى التى فرضت على النظام الحاكم الغريب ، وهى فى أسر التبعية ، المحافظة على خصوصية ملامح هذه الشخصية . وظلت مصر فى مكانها الجغرافى ، هى مصر التى حافظت على خصوصية وتفرد شخصيتها . وكان فى وسع شعب مصر المتجانس ، أن يحمى ويحافظ ويصون هذه الخصوصية ، وهى السند الشرعى للذات أو للهوية .

– وصحيح أن وقوع مصر فى آسر التبعية لإمبراطورية ، كان من شأنه أن يطعن ، أو يسقط عن مصر المهابة . ولكن الصحيح أيضاً فى نفس الوقت ، لم يكن فى وسع من أسقط مهابة مصر ، وفرض عليها مهانة التبعية ، أن يطعن

فى ، أو أن يسقط عن مصر الشعب الصامد ، الحق فى المحافظة على المكانة . بل قل ما كان فى وسع نظام الحكم الغريب عن مصر ، أن يضيف ، أو أن يحذف شيئاً جوهرياً ، فتتأثر بموجبه ملامح شخصية مصر وخصوصيتها المتفردة .

– وفى الإعتقاد الجغرافى ، أن صمود الشعب فى مجال الحرص على ملامح شخصية مصر وخصوصيتها وتفردها ، وعدم الإستسلام لتأثير قوة فعل متغيرات خارجية ، تفرض على شعب مصر ، كان مفتاح السر ، الذى شد أزر الصمود ، وحافظ على إستمرار وجود مصر ،على الساحة . وما كان لهذه الشخصية الخاصة والمتفردة ، أن تصمد وتنتصر ، فى مواجهة ضغوط قوة فعل المتغيرات الخارجية ، من غير حسن إستثمار الإستجابة للعلاقة الحميمة بين عبقرية الإنسان ، وعبقرية المكان ، وإستشعار العزة التى يفضى إليها هذا الإستثمار .

– ومعلوم أن إستثمار العلاقة بين عبقرية الإنسان وعبقرية المكان ، هو الذى رسخ وقوى وشد أزر الهوية والإعتزاز بالذات المصرية . وقل أن عبقرية المكان ، هى التى صنعت وشكلت ورسخت عبقرية الإنسان فى حضن الوطن ، وأن عبقرية الإنسان هى التى يدورها عظمت الإستجابة ، وأحسنت إستثمار عبقرية المكان . ومن ثم ينبغى أن ندرك جيداً ، كيف جاوب وجود مصر إرادة الشعب . كما يجب أن ندرك أيضاً ، كيف كان إستمرار وجود مصر ، أمانة غالية فى عنق شعب مصر .

– وشعب مصر الذى أهله الله ، الذى خلق فسوى ،والذى قدر فهدى ، وأسكنه فى وطن مناسب ، وأنعم عليه بدواعى ومبررات التجانس ، إستشعر دائماً الحاجة إلى النظام . ومن نظام متواضع على مستوى المستوطنة ، كانت بداية المشوار ووصولاً إلى نظام حاكم سوى وقوى وهو نموذج يحتذى . وقد أسندت إرادة الشعب لهذا النظام الحاكم ، المهمة التى صاغت ملامح الشخصية الخاصة ، ورسخت قواعدها ومقوماتها . وفى ظل هذه الشخصية ، عاش شعب مصر ، وهو على ثقة بأن من غيرها يكون الضياع . بل قل عاش شعب مصر وهو شديد الحرض على النظام الحاكم ، تخوفاً من الفوضى التى تقضى إلى الضياع .

– وتمثلت مهمة النظام الحاكم على أى وضع مقبول أحياناً أو غير

مقبول أحياناً أخرى ، فى قبضة اليد اليمنى القوية ، التى كانت تمسك بزمام السيطرة على الجريان فى النيل وتضبط إيقاعاته ، وفى قضبة اليد الأخرى القوية ، التى كانت تدعـم وتعزز مقـومات الأمن الإقتصادى والأمن الإجتماعى . وكفلت قوة قبضة النظام الحاكم ، التنعم بالازدهار ، وهى قوية وقادرة على تفعيل دورها الوظيفى . وكم أفضى ضعف أو تهاون قبضة النظام الحاكم إلى التردى فى مهاوى الإضمحلال .

– وفى جميع الأحوال ، التى أشاعت العز والإزدهار أحياناً ، أو التى أفضت إلى الهوان والإضمحلال كان من شأن الشعب ، المحافظة على تجانس لبناته . وقد تحرى الشعب دائماً تماسك لبنات بنيته ، وهو الذى شد أزر بعضه بعضاً . وقل كان فى وسعه أن يجدد حيويته دائماً ، لكى لايبلغ مبلغ الشيخوخة . وقد لعب تحلى الشعب بالإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، وهو جزء مهم من ملامح الشخصية المصرية الخاصة ، دوراً مهماً ، فى تحرى التوازن البديع ، بين المحافظة على التجانس مرة ، وتحرى تجديد الحيوية والمحافظة على شبابه مرة أخرى .

– هذا ، وفى الوقت الذى إهتم فيه شعب مصر وتحرى تفعيل ودعم وتقوية مقومات ودواعى التحلى بالإنتماء الوطنى ، فى توازى وتوازن بديع مع تفعيل ودعم وتقوية مقومات ودواعى التحلى بالإنتماء القومى ، تأتى التشبث الشديد ، بالوجود فى الوطن .ودلل هذا الوجود على حب تراب الوطن ، وحب صحبة الاهل والعشيرة . وغاب عن شعب مصر إنذاك أى تفكير فى مغادرة الوطن ، أو الهجرة المؤقتة ، هروباً من قحط ، أو فراراً من متاعب . وأصبح الصمود فى مواجهة التحديات ، والصبر على المكاره ، من أهم سمات الشخصية المصرية .

– وفى المقابل بعد ذلك كله ، فتح شعب مصر ذراعيه دون خوف أو إعتراض ، وعلى أوسع مدى ، لكى يستقبل قدوم الوافدين إليه . وكم تحرى إكرام مثواهم والترحيب بهم ، وعدم التخوف منهم . وهذا هوعين ما يعنى التحلى بالإنفتاح على الغير ، وحسن الإستعداد لقبول الآخر . وأصبح هذا الإنفتاح ملمحاً من أهم ملامح الشخصية المصرية . بل قل هذا هو عين ما يعنى الإستعـداد لقبول الآخر ، والأخذ منه دون حرج ، والإستعداد لقبول الآخر ، والعطاء له من غير تحفظ . ومن خلال الإنفتاح والإستعداد لقبول

الآخر ، ومن خلال التعود بالضرورة على الأخذ والعطاء ، استقبل شعب مصروعايش شعب مصر وهضم بعض الغرباء الوافدين إلى رحابه .

– ومصر ، التى شهدت فى مراحل من وجودها الدائم ، أوضاع الازدهار والرخاء ، وجلست وتربعت على مقعد العزة والوفرة والزيادة ، إستقبلت وفود أو قدوم الغرباء الفارين إليها . ومصر التى شهدت فى مراحل أخرى من وجودها الدائم ، أوضاع الإضمحلال والشدة ، وجلست وتربعت على مقعد الهوان والشح والنقصان ، جسدت مبلغ صمود الشعب ، وعزوفه عن الهجرة أو المغادرة والفرار منها . وكما نجح الشعب فى إستيعاب الغرباء ، وأشركهم فى النعمة ، نجح مرة أخرى ، فى تجاوز المحنة دون تفريط فى تجانس البنية .

– ووفود الغرباء والقادمين إلى مصر ، كان مرتقبًا ، فى فترات الإزدهار والرخاء . وكان الغرباء يتقاطرون فرادى أو جماعات ، وهم يقتربون على إستيحاء ، ودون عنف أو عدوان . وكان معظم الغرباء القادمين إلى مصر ينشدون التعايش والإقامة . وكانت قلة منهم تلتمس الزيارة . وقل كانت الوفرة فى الارزاق ، وكان الرخاء ، هو عامل الجذب ، الذى إستوجب هذا القدوم . وفى كثير من الاحيان ، كان القحط فى أوطان الغرباء ، هو عامل الطرد الذى إستوجب المغادرة والرحيل إلى مصر .

– ووفود الغرباء القادمين إلى مصر ، كان مرتقبًا مرة أخرى ، فى فترات الازدهار أحيانًا ، أو فى فترات الإضمحلال أحيانًا أخرى . وقد إتخذ هذا القدوم شكل الغزو ، وهو يقتحم الديار عنوة . وسواء كان هذا الغزو ، عدوانا أفقد مصر إستقلالها ، أو كان هذا الغزو ، من أجل وضع مصر فى إطار التبعية لامبراطورية ، إستشعر شعب مصر الخطر الذى هدد الأمن الإجتماعى والأمن الإقتصادى . بل قل إفتقد شعب مصر عندئذ السلام وحبهم الراسخ فى التنعم به . وإزداد فى نفس الوقت الحرص على تجانسهم .

– وهكذا كان وفود الغرباء من البلدان المجاورة ،وقدومهم إلى مصر ، وهم يتسللون ، أو وهم يباشرون الغزو ، وفودًا هادفًا . وقل إنه القدوم البرئ المسالم ، أو القدوم الجرئ المعتدى ، الذى لا يتأتى من فراغ ، والذى لا ينتهى أبدًا من غير غاية . ومع ذلك كان فى وسع شعب مصر ، الذى شهد هذا القدوم ، أن يتعامل معه . بل قل بموجب التحلى بالإنفتاح وحسن الإستعداد لقبول

الآخر ، كان من شأن شعب مصر أن يجنى إيجابيات وثمرات هذا التعامل ، وتأكيد حسن الإنتفاع بها .

– وجاء من جاء إلى مصر زائراً لبعض الوقت ، وهو فى طلب المشاهدة والمعاينة والمعايشة ، في صحبة أهل مصر . ونزل القادم للزيادة ، وهو الفرد ، أو وهو الجماعة أصلاً ، وحل بين الناس سهلاً . وكم تجول هنا وهناك وهو مبهور ، فى ظل ترحيب وحسن إستقبال ، وحسن تعامل ، فرضه الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر . وفى ظل أمن وأمان كفله النظام الحاكم ، تنعم الزائر ، وقضى وطره . وفى ظل علاقات حسنة بين الزائر الغريب فى جانب ، وأولئك الذين عايشوه أو تعاملوا معه ، ورحبوا به ، تفتحت كل قنوات التواصل الحميد .

– وأفضى ذلك التواصل المباشر الحميد ، إلى إحتكاك حضارى بين الطرفين . وقد أخذ الذى أخذ ، وأعطى الذى أعطى ، بكل السماحة وكامل الإختيار . وأضاف هذا الإحتكاك الحضارى المباشر ، إضافات مفيدة إلى الرصيد الحضارى المصرى . كما أضاف هذا الإحتكاك الحضارى مرة أخرى إضافات مفيدة ، إلى رصيد الزائر الحضارى . والإضافة التى أثرت الرصيد الحضارى المصرى ، كانت من وراء الامعان فى التطوير ، والتمادى فى التنمية الحضارية ، لحساب شعب مصر ووجوده الراشح ، فى المكان والزمان .

– وجاء من جاء من الغرباء من البلاد المجاورة إلى مصر ، وهو فى طلب الإقامة والتوطن والإنضمام إلى توليفة البناء البشرى لشعب مصر . وتسلل القادم الغريب على إستحياء وحذر ، وهو الفرد ، أو وهو الجماعة ، فنزل أهلا وهل سهلاً .وتحرى هذا القادم الغريب إلى مصر ، مباشرة السلوك الحميد المناسب ، الذى كفل إكتساب حق التعايش ، قبل البحث عن فرص العيش . وطلب العيش من خلال حسن التعايش ، معناه أن تحرى هذا الغريب خطب الود ، من أجل إكتساب الثقة .

– هذا ، وفى ظل ترحيب ، فرصة الإنفتاح وحسن الإستعداد لقبول الآخر ، عاش الوافد الغريب . وفى ظل ود وتودد إكتسب التسلل الغريب ثقة من حوله ، ونال حق المعايشة . وفى ظل أمن وأمان كفله النظام الحاكم ، وجد هذا الغريب فرصته من أجل تحصيل فرصة العمل ، وكسب لقمة

العيش . وإكتساب حق المعايشة الهادئة ، ووجود فرصة تحصيل لقمة العيش ، أدخلت هذا الغريب الوافد إلى مصر فى تجربة التمصير .

– وتجربة التمصير كانت تعنى وقوع هذا الوافد الغريب فى بوتقة الإنصهار . وكان من شأن هذا الإنصهار ، أن يميز بين من هو قابل للتمصير فى جانب ، ومن هو غير قابل للتمصير فى جانب آخر . ومن إجتاز هذه التجربة ، التى كانت تدلل على استعداده الفعلى للتمصير ، مضى على درب التجانس والتداخل الميسر فى إطار توليفة الشعب المصرى المتجانسة . وسجل هذا التداخل الميسر السوى ، إضافة مفيدة لشعب مصر .

– أما من أستعصى من الغرباء عن الانصهار ، وترفع وإمتنع من التمصير ، فكان مصيره الابعاد . ومن كان مصيره الابعاد ، صار مرفوضاً ومطارداً ومطروداً . بل فقد هذا المطرود حق المعايشة والإقامة . وأصبح وكأنه الجسم الغريب الذى تلفظه توليفة الشعب المصرى المتجانس . ومن ثم كان على هذا الغريب ، أن يخرج من حيث جاء ، بعد أن إنقطع حبل الود بينه وبين شعب مصر ، وفقد القدرة على حسن المعاشرة ، وعلى حسن التداخل والتجانس فى نسيج شعب مصر .

– هذا ، وما أصاب شعب مصر من حتمية هذا الإبعاد مع مرور الوقت ، ورفض هذا الغريب الذى إفتقد القدرة على التمصير والتجانس ، ضرراً . بل قل إنتفع شعب مصر بهذا الابعاد ، لأنه حافظ على سلامة بنيانه ، أو على أهم مقومات تجانسه . وكانت هذه المحافظة على سلامة بنيان الشعب ، وتجانس لبناته ، فى ظل إنتماء وطنى وتفانى فى حب الأرض ، وإنتماء قومى وتفانى فى حب الاهل جزء من كل سر حضور مصر التى لا تغيب عن الساحة الاقليمية ، أو عن الساحة العالمية .

– وقد تكرر هذا السيناريو الذى جسد وفود الغرباء إلى مصر ، مرات ومرات ، على المدى الطويل . وتكرر إستيعاب ، وتمصير بعض الغرباء ، وتداخلهم السليم فى توليفة الشعب المصرى المتجانسة . وتكرر إستبعاد وطرد الغرباء ، الذين إستعصى على الشعب المصرى إستيعابهم بعد تمصيرهم . وفى كل الأحوال ، تحرى شعب مصر المحافظة على سلامة بنيته البشرية ، وعلى تجانس اللبنات التى كلفت هذه السلامة . وكانت هذه السلامة تعنى فيما

تعنى فى الماضى ، وفى الحاضر ، تأمين التجانس ، والوحدة الوطنية ، والوحدة القومية ، التى يتنعم بها شعب مصر .

– وعلى سبيل المثال وليس الحصر ، يتحدث سيناريو من هذه السيناريوهات المتكررة من حين إلى حين آخر عن غرباء وفوداً إلى مصر . وكان الغرباء قد بيتوا البنية على التوطن فى مصر . وكان هؤلاء الغرباء القادمون إلى مصر من جنوب غرب آسيا ، من القبائل العربية . وجاء بعض الغرباء ، فى صحبة الفتح العربى الإسلامى ، أو فى اثرة . وبدأ إنذاك مشوار طلب حق المعايشة أو التعايش فى إطار التداخل السوى فى التوليفة المتجانسة لشعب مصر . وبارك الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، مسيرة هذا التوجه الحميد إلى التوطن .

– ومع مرور الوقت ، بدأت التجربة الحياتية ، التى خيم عليها هذا الإنفتاح . وأفضت هذه التجربة إلى إنقسام الغرباء الوافدين إلى مصر إنقساماً ، ميز بين فريقين . وإكتسب فريق من هذين الفريقين حق التعايش وفرص الإستيطان . وافتقد الفريق الآخر القدرة على إكتساب هذا الحق . وقد أقبل الفريق الذى إكتسب حق الإستيطان ، على الانصهار فى بوتقة التجانس ، وإختلط وتداخل عندئذ فى بنية شعب مصر المتجانسة عن طيب خاطر . أما الفريق الآخر ، الذى إفتقد القدرة على إكتساب حق الإستيطان ، بموجب الإستعلاء أحياناً ، أو الإنغلاق أحياناً أخرى ، فقد غادر أرض مصر ، عن طيب خاطر ، ورحل فى إتجاه الجنوب إلى أرض الأقاليم السودانية .

– وإذا كان من شأن من إكتسب حق التعايش ، وباشر الإستيطان ، وقبل بالإنصهار حتى أصبح مصرياً بالفعل ، وأخذ وعمل بموجب القيم والتقاليد والأعراف المصرية السائدة ، وأقبل على طلب العيش ، فقد أقبل فى نفس الوقت على الإختلاط بالشعب من حوله . وقد عمق هذا الإختلاط مصريته ، وتحلى بالإنتماء الوطنى وبالإنتماء القومى . وتزوج من تزوج المصرية ، وتزوجت من تزوجت المصرى ، عن طيب خاطر ، زواجاً شرعياً ، حكمته الضوابط والقواعد والتقاليد والقيم ، التى أخذ بها واستوعبها ، وتعود عليها الشعب المصرى . بمعنى أن خلع الغريب عنه لباس الغربة ، وألبسه هذا

الإختلاط والتمصير ، لباس المواطنة .

– وأفضى ذلك الإختلاط بالضرورة ، إلى إنسياب دماء جديدة ، ضخها الغـرباء في شرايين شعب مصر . وكفلت هذه الدماء الجديدة ، تجديد الحيوية ، التي تمتع بها شعـب مصـر ، دون مساس أوإهدار أو إنتهاك للتجـانس . وأصبـح من شأن تجديد الحيوية ، أن حافظ شعب مصر على شبابه ، ولم يدخل أبداً فى طور الشيخوخة . وقل كانت محصلة هذا الإختلاط ، لبنات فتية وقوية ، تداخلت التداخل السـوى ، فى صلب البناء البشرى المصرى المتجانس ، الذى لا يشيخ .

– وسـواء كان وفود الغرباء ، الذين تسللوا إلى مصر ، فتعايشوا وتمصروا ، من شعوب وأقوام من جنوب غرب آسيا ، أو من شعوب وأقوام من جنوب أوروبا ، أو من أقوام وقبائل أفريقية ، قد تحرى الإختلاط والانصهار فى بوتقة التمصير ، فما من شك فى أنهم أضافوا من حين إلى حين آخر ، على المدى الطويل الدماء التى إنسابت فى شرايين شعب مصر . وكم أفضت كل جرعة من جرعات هذا الدماء إلى تجديد حيوية شعب مصر . وكم أفضت هذه الحيوية المتجددة ، إلى إسترداد عافيته ، وإلى إنتعاش أوضاعه ، وإلى تجديد شبابه ، وإبعاد شبح الشيخوخة عنه .

– وفى حضور شباب الشعب الذى كان يتجدد ،وفى غياب دواعى الشيخوخة ، أفلح شعب مصر فى أن يحافظ على وجوده . وكم أخرجت حيوية الشعب المتجددة ، حركة الحياة من متاعب الإضمحلال . وكم عاودت هذا الشعب الصحوة ، التى كانت ترقى به حتى تربع على مقعد الإزدهار . وقل حيوية شعـب مصـر وهى التى كانت تتجدد ، كان معناها حضور لا يغيب ، وإنتعاش متواصل مع مرور الوقت . بل قل أفلح شعب مصر فى أن يحافظ على وجوده ، وعلى مقومات مصريته وما فرط أبداً ، فى التحلى المتوازى والمتوازن ، بين الإنتمـاء الوطنى والإنتمـاء القومى ، أو فى التحلى بالإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر .

– وعن موقف النظام الحاكم صاحب السلطة من هذا القدوم الغريب الوافد إلى مصر تسللاً ودون إقتحام أوغصب ، يجب أن نميز بين وضعين مختلفين . وفى وضع من هذين الوضعين ، كانت مصر دولة مستقلة ، وكان

النظام الحاكم فيها ، وهو صاحب السلطة التى أفرزها وقبل بها شعب مصر . وجاوب هذاالنظام الحاكم بالضرورة إرادة شعب مصر ، وتحرى سيادته على أرض الوطن ، وتعظيم مكانته فى مكانة الحاكم على صعيد المسرح الجغرافى المصرى . كما تحرى هذا النظام الحاكم مرة أخرى ، تأمين وجود الشعب ، وحماية أمنه الإقتصادى ، دون تخوف من التسلل الغريب الوافد إلى مصر .

– وفى ظل إستقلال مصر ، وقيام النظام الحاكم الوطنى ، وتحمل مسئولياته وأداء دوره الوظيفى ، كانت عين النظام لا تغفل ، وهى التى راقبت وفود الغرباء المتسللين ، إلى مصر عن كثب . وكان شغل هذه العين الشاغل ، هو التأكد من أنه قدوم مسالم ، وليس غزواً . وهذا معناه ، أن أباح النظام الحاكم ، هذا القدوم المتسلل ، وما تحرى التصدى له ، أو منعة . وقل لم يستشعر النظام الحاكم من هذا القدوم ، الذى أتى مصر متسللاً خطراً على مصر الوطن ، أو على مصر الشعب ، أو على مصر الدولة .

– وهكذا إستشعر النظام الحاكم ، جدوى هذا الإنفتاح ، وشجع وبارك الإستعداد لقبول الآخر . وقد وجد فى القدوم المتسلل ، وهو فى طلب التعايش وكسب الشقة قبل العيش ، إضافة إلى قوة العمل ، والإنجاز لحساب شعب مصر . وفى الوقت الذى ترك النظام الحاكم الحبل على الغارب ، لكى يتأتى هذا التسلل ، حمل الشعب مسئولية إستيعاب الغرباء . وكان فى وسع هذا الإستيعاب ، أن يميز بين فريق صار تمصيرهم ، وهضمهم هضماً لا يسئ إلى التجانس فى جانب ، وفريق آخر استوجبت التجربة رفضهم والإعتراض على وجودهم ، وتحرى طردهم أو إبعادهم .

– وفى الوضع الآخر من الوضعين ، كانت مصر فى موضع التبعية لنظام حاكم غير وطنى . وقد فرض هذا النظام الحاكم ، وهو قوى قادر ، نفسه على شعب مصر . وفى ظل فقدان الإستقلال ، وبموجب الوقوع فى أثر هذه التبعية ، جاوبت إرادة شعب مصر ، سلطة هذا النظام الحاكم غير الوطنى أحياناً أو تسلطه أحياناً أخرى ، وأصبحت عندئذ جزءاً من إمبراطورية ، قامت وفرضت نفوذها وهيمنتها ، على الصعيد الاقليمى . وكم عاش شعب مصر فى ظل هذه التبعية ، وهو كارة ومغلوب على أمره أحياناً ، أو وهو راضى وحريص على

ذاته وعلى شخصيته أحيانًا أخرى . وقد حافظ فى الحالتين على التحلى بالإنفتاح ، والإستعداد لقبول الآخر .

– وفى ظل تبعية مصر لنظام حاكم غير وطنى ، تحمل مسئوليته ، وأداء دوره الوظيفى ومباشرة الحكم ، غابت العين اليقظة التى كانت ترقب عن كثب ، وفود الغرباء إلى مصر . وإنفتح باب مصر على مصراعيه وتحرر هذا القدوم الوافد الغريب إلى مصر ، من دواعى ومبررات التسلل ، والحاجة إلى الإستيحاء والتخفى ومباشرة السلوك المناسب ، فى طلب حق التعايش . وقل أباحت هذه التبعية ، تحركات هذا القدوم الغريب الوافد إلى مصر ، وأكسبته حق المواطنة . وأسقطت عنه صفة الغربة . بل قل أتاح تحلى شعب مصر بالإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، فرص الترحيب بهذا القدوم الغريب الوافد إلى مصر ، من حيث الشكل فقط .

– والترحيب بالغرباء من حيث الشكل ، كان لا يحرم شعب مصر من حقه فى إستيعاب هؤلاء الغرباء . وقد تحرى هذا الإستيعاب ، قبول من يقبل من الغرباء بالتمصير ، ويستسلم للتجانس فى جانب ، ورفض من يرفض التمصير ، ويستعلى عن التجانس فى جانب آخر . وبموجب تشبث شعب مصر بهذا الحق ، وحسن توظيفه ، كان فى وسع الشعب ، أن يحافظ على قواعد وأصول وأسس تجانسه . بل قل إمتلك الشعب الحق فى الاعراض عن من رفض التمصير ، وترفع عن التجانس ، وقد تحرى عندئذ أبعاده وطرده من حيث أتى .

– هذا ، وكما شهدت مصر على المدى الطويل ، وعايشت سيناريوهات قدوم الغرباء المتسللين ، وهم لا يضمرون ولا يقدرون على العدوان والدخول غصبًا أو عنوة ، شهدت مصر أيضًا ، وعايشت سيناريوهات قدوم الغرباء المعتدين . وإتخذ هذا القدوم صفة الغزو ، وباشر العدوان . وقد إستخدم أساليب القهر ، وفرض وجوده ، وجلس على مقعد السلطة ، وأمسك بزمام التسلط . ومن خلال هذا التسلط والبطش الذى إنتصر على المقاومة ، تولى الغرباء أمر الحكم ، وتحرى وباشر كل أساليب القمع .

–وإسقاط النظام الوطنى الحاكم ، وغيابه عن الساحة ، وضع الشعب بشكل مباشر أو غير مباشر فى مواجهة الغرباء الغزاه . وكان من شأن الشعب

آنذاك ، أن يبادر بالدفاع عن أوضاعه . ودون مهادنة ، تحرى الشعب حماية تجانس لبناته ، والدفاع عن بعد من أهم أبعاد الشخصية القومية المصرية . ومن غير تفريط فى التحلى بالإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، أحسن شعب مصر الدفاع عن الذات المصرية ، والمحافظة على نسيجه المتجانس .

–وصحيح أن شعب مصر فى نسيجه المتجانس ، كان محباً للسلام ، وهو لا يتحلى بالميول العدوانية . وصحيح مرة أخرى ، أن الحروب التى خاضها شعب مصر – فى الغالب – كانت حروباً وقائية أحيانًا ، أو كانت حروباً دفاعية أحيانًا أخرى . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أن كراهية الحرب الهجومية ومباشرة العدوان على الغير ، كانت لا تعنى أبداً إستسلام شعب مصر للغزو . وما ترك شعب مصر الحبل على الغارب ، لكى يطعن نظام الحكم غير الوطنى ، فى مقومات البنية البشرية ، طعناً يهدد بإنهيارها .

– ومن تحت عباءة التجانس ، وهو من وراء الوحدة الوطنية ، التى كان ومازال يحرسها التوازى والتوازن البديع ، بين التحلى بالإنتماء الوطنى ، والتحلى بالإنتماء القومى ، تأتى الصمود الشعبى . وفى ظل هذا الصمود الشعبى المتين ، تأتت المهارة فى الدفاع عن الذات والهوية مرة ، وعن التجانس مرة أخرى . بل قل فى ظل كل دواعى ومبررات التحفظ والحذر ، إتسمت هذه المهارة باللين والمسالمة ، وتجنب العنف إلى حد كبير .

– وكان من شأن هذه المهارة ، الإقتراب الشعبى الحذر من الغرباء الغزاه ، أو الغرباء فى صحبة الغزو . وقد دخل هذا الإقتراب الحذر ، فى تجربة أولية ، كانت تعجم عود الغرباء عن كثب . وكفلت هذه التجربة بالضرورة ، التمييز الواقعى ، بين فريقين من الغرباء .

وفريق من هذين الفريقين ، كان بموجب الإستعلاء والترفع والغطرسة ، غير قابل للإستيعاب أو الهضم . وكان من الطبيعى أن يتخوف هذا الإقتراب الشعبى من ذلك الفريق ، ويتجنبه . بل قل كان يستشعر خطر هذا الفرق على التجانس ، وهو حائط الصد القوى عن مقومات الوحدة الوطنية .

وفريق آخر من هذين الفريقين الغرباء ، كان بموجب التحلى بالمرونة وعدم الإستعـلاء ، قابلاً للإستيعاب والهضم . وكان من الطبيعى آنذاك ، أن يوظف هـذا الإقتراب الشعبى ، سبل التحلى بالإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، فى هضم وصهر وتمصير هذا الفريق .

– وكان فى وسع الشعب عندئذ ، ضم هذا الفريق الذى تمصر إلى صفة ، فى مجال دعم حائط الصد المتين عن التجانس ، وعن مقومات الوحدة الوطنية . بل قل كان فى وسع هذا الإقتراب الشعبى مرة أخرى ، ضم هذا الفريق الذى تمصر عن طيب خاطر ، فى مجال ضخ دماء جديدة فى الشرايين وتجديد الحيوية . وكفل ضخ هذه الدماء إبعاد شبح الشيخوخة ، والمحافظة على شباب الشعب ، الذى حافظ على وجود مصر وعدم غيابها عن الساحة .

– ومن بعد ذلك كله ، ومع توالى مشاهد سيناريو هذا الإقتراب الشعبى الحذر ، كان من الضرورى أن يتأتى على الساحة ، المشهد الأخير ، أو قل مشهد مسك الختام . وحكى هذا المشهد الأخير دائماً ، عن خروج الزعيم أو القائد الوطنى ، من تحت عباءة الشعب الصامد ، الذى ظل يتربص بالفريق صاحب السلطة المتسلطة ، الذى إستعلى وترفع عن الهضم والتمصير . وكم باشر هذا الزعـيم الوطنى فى السر أو فى العلن ، إيقاظ الصحوة الشعبية الغاضبة . وكم إحتدم الصراع بشكل أو بآخر ، ضد النظام الحاكم الغريب ، حتى تأتى طرده وإنهاء جبروت تسلطه .

– ومن حيث يدرى النظام الحاكم المتسلط الغريب ، أو من حيث لا يدرى أحياناً أخرى ، كانت المعركة التى خاضتها إنتفاضة شعب مصر . وقل كانت الكرة تلو الكرة ، وهى إنتفاضة تجاهد بكل سلاح حتى أفلحت ، فى طرد وإبعاد النظام الحاكم الغريب . وخرج شعب مصردائماً من مهانة هذا الوضع الردئ .وقل حافظ شعب مصر على مقومات تجانس بنيته ، وعلى صلابة وحـدته الوطنية . بل قل إكتسب فى نفس الوقت الحيوية ، التى جددت شبابه ، وأسقطت عنه كل ملامح الشيخوخة .

– وفى صفحة من صفحات تاريخ مصرالقديمة ، راجع مشاهد سيناريو غزو الهكسوس . وعبر سيناء المدخل الشرقى ، أجهز هذا الغزو وقهر النظام الحاكم الوطنى . وقد تسلط الغزاة الغرباء ، وأمسكوا بزمام السلطة ، وهم حكام مصر . ثم راجع مشهد الإجتهاد الشعبى المصرى ، مرة فى محال إستيعاب وهضم من استسلم لدواعى ومقومات التمصير ، ومرة أخرى فى نفس الوقت ، فى مجال التجهيز والإعداد ، لمواجهة شرسة مع من استعصى على الهضم ، وتعالى على التمصير ، واستوجب الطرد .

– وفى صفحة أخرى من صفحات تاريخ مصر القديمة ، تابع مشهد الإنتفاضة فى طلب التحرر . وقد باشرت هذه الإنتفاضة الكرة القوية ، التى أكرهت الهكسوس الغرباء على الفرار . وفى ظل هذا الإنتصار ، صان شعب مصر ذاته ، واسترد كرامته ، وحافظ على تجانس بنيته ، وعلى أهم ملامح خصوصية شخصيته القومية . وقد نهض النظام الحاكم الوطنى من كبوته ، وإستعاد هيبته وسلطانه . وبموجب المحافظة على تجانس بنيان شعب مصر ، تألق وجود مصر على الساحة ، وهى أكثر حيوية ، فى مواجهة المتغيرات التى كان قد فرضها عامل الزمن .

– وفى صفحة أخرى من صفحات تاريخ مصر القديمة ، راجع مشاهدة سينايو غزو الاسكندر الأكبر ، الذى تحرى حكم العالم ، فى إطار إيمان مطلق بمفهوم وحدة الأرض وحدة الناس على الأرض . وصحيح أنه قهر النظام الحاكم المصرى الوطنى ، وأنهى وجوده على عرش مصر . وصحيح مرة أخرى أن تولى وجلس على مقعد الحكم فى مصر ، وأمسك بزمام السلطة . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أن الاسكندر ومن كان معه ، تحرى أن يخلع عنه لباسه المقدونى ، وأن يلبس فى نفس الوقت لباس التمصير . وقد كفل هذا التوجه والتحلى بالتمصير عن طيب خاطر ، قبول شعب مصر له ، والترحيب به . وما إستشعر شعب مصر إنذاك خطراً على بنيته المتجانسة .

– وبموجب التحلى بالإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، كان فى وسع شعب مصر ، إستيعاب وهضم وتمصير كل الوفود القادم من بلاد الاغريق .

وأمــن هذا التمصير ، جلوس البطالمة على عرش مصر . ودون مســاس بالتجانس ، الذى كان شعب مصر حريصاً عليه ، بدأ مشوار الهضم والتمصير ، ومشوار الأخذ والعطاء ، والإنتفاع الجاد بمعطيات الإحتكاك الحضارى . وإتخذ حكم البطالمة مواصفات النظام الحاكم الوطنى المشروع .

– وتحت مظلة هذا الإحتكاك الحضارى ، بين شعب مصر والاغريق ، تجددت حيوية شعب مصر ، وإنتعش شبابه . وقد تبنى البطالمة الذى تمصروا ، أمال وطموحات وتوجهات شعب مصر . وأخذ عنهم شعب مصر دون حرج اللغة ، لكى تصبح لغة التخاطب ، ولغة التدوين ، ولغة العلم . ويتحدث التاريخ عن تألق مصر التى أرست قواعد نقلة نوعية ، تأتى بموجبها إنتقال العلم من خصوصية الإنتماء للمدنية المصرية ، إلى عمومية التوجه إلى العالمية . ومشهد النهاية من هذا السيناريو ، لا يحكى ولا يتحدث عن مقاومة شعبية أو إنتفاضة ، إستهدفت إنهاء حكم البطالمة . بل قل أن النظام الحاكم البطلمى ، هو الذى ضيع نفسه ، وضيع مصير مصر معه ، وفرض عليها الوقوع فى قبضة الغزو الرومانى .

– وفى صفحة تالية أخرى من تاريخ مصر القديمة ، التى كانت لا تغيب عن الساحة ، راجع مشاهد سيناريو الوقوع فى قبضة التبعية للإمــبراطورية الرومانية . وصحيح أن هذه التبعية ، قد نحت البطالمة ، وأنهت أوضاع النظام الحــاكم المصرى الوطنى . وصحيح أيضًا ، أن جلس الرومان على مقعــد الحكم ، وأمسك بكل دواعى ومظاهر التسلط ، زمام السلطة التى حكمت مصر وهى جزء من كل الامبراطورية . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أن تأتت الفجوة من أول يوم ، أوقل تأتت الجفوة ، بين حكم الرومان الذى إستعلى وترفع ورفض التمصير فى جانب ،وشعب مصر الذى عض بالنواجذ وحافظ على بنية نسيجه المتجانس فى جانب آخر .

– هكذا أعرض الرومان إعراضًا كليًا عن التمصير ، وعاشوا غرباء . وأعرض فى المقابل شعب مصر ، عن فتح قنوات التواصل ، أو الإنفتاح على الرومان . وفى غياب أى محاولة جادة ، على إستيعاب وهضم الرومان ، كانت الفجوة التى إتسعت مع مرر الوقت . وفى ظل إستعلاء الرومان وإتساع هذه الفجوة ، تأتى ترسيخ دواعى ومبررات الجفوة والكراهية . بل قل تأتى إستدبار

الرومان . وظلوا فى مصر غرباء ، وإستحقوا إعراض شعب مصر عنهم .

– ومن تحت عباءة الجفوة والكراهية والإستدبار ، إزداد حرص شعب مصر على تجانس لبناته وتماسكاً . وفى مقابل هذا الحرص على التجانس ، وعلى أهم مقومات الشخصية المصرية الخاصة ، نال شعب مصر من حكم الرومان الإضطهاد وسؤ العذاب . وفى المرحلة التى شهدت دخول شعب مصر فى المسيحية ، وإصرار الرومان على الكفر ، إزداد البطش ، وتعاظمت الجفوة . واستمرت هذه الجفوة ، عندما إنحاز شعب مصر للمذهب الارثوزوكسى ، وإعتنق الرومان المذهب الكاثوليكى .

– وصمود شعب مصر ، فى مجال الحرص على الذات والهوية ، وفى مجال المحافظة على تجانس بنيته كان ضرورياً . ومع ذلك كان شعب مصر أعجز من مواجهة بطش الرومان مواجهة إيجابية ، بقصد إخراجهم من مصر ، وإنهاء تسلطهم ، أو بقصد التخلص من أسر التبعية . وكان هذا العجز من وراء الترحيب الصامت ، بمقدم الخلاص ، فى معية الفتح العربى الإسلامى . كما كان هـذا العجز ، من وراء إضمحلال أوضاع حركة الحياة ، على صعيد مصر .

– هكذا عاش شعب مصر عدداً من القرون فى ظل هذه التبعية للإمبراطورية الرومانية . وأرهقت هذه التبعة شعب مصر ، وأصبح محروماً من دماء تنساب فى الشرايين ، لكى تتجدد حيوية وشباب شعب مصر . ومع مرور الوقت وتعاقب الاجيال ، أو شك شعب مصر ، أن يقع فى برائن الشيخوخة ، لولا أن تدارك الفتح العربى الإسلامى الوضع . وبدأ عندئذ مشوار التصحيح ، وإسترد شعب مصر فرص تجديد حيويته واستعادة شبابه ، من جديد .

– وصحيح أن إستيعاب وهضم وفود الغرباء المتسللين عبر سيناء وتمصيرهم ، قد ضخ بعض الدماء فى شرايين شعب مصر ، أثناء حكم الرومان . وصحيح أن هذه الدماء ، قد إشتد بموجبها عود شعب مصر ، فى مواجهة مخاطر الشيخوخة . ولكى الصحيح بعد ذلك كله ، هو جدوى إستيعاب وهضم الوفود العربية القادمة فى صحبة الفتح العربى ، أو فى أعقابه . وقد أخرج هذا الإستيعاب والتمصير ، شعب مصر ، من أزمة

الشيخوخة تماماً ، وجدد شبابه وحيويته ، مرة أخرى من جديد .

– وكان من شأن شعب مصر آنذاك ، وهو الذى إنتعش وإسترد عافية الشباب والحيوية ، أن حافظ على وجود مصر فى مكانها الجغرافى ، وعلى علو مكانتها على الساحة ، فى مراحل التاريخ الإسلامى . وقل حافظ شعب مصر على كل مقـومات تجانـس لبنات بنيته ، وعلى ملامح هويته وشخصيته الخاصة .

بل قل تداركت عناية الله شعب مصر ، وحافظت عليه ، يوم أن ساق الله إلى مصر الفتح العربى ، لكى يسترد العافية والحيوية والشباب . ومن ثم يستمر وجود مصر ، التى لا تغيب أبداً عن الساحة .

– ومن تداعيات هذا الفتح العربى الإسلامى ، وإسترداد شعب مصر الحيوية والشباب ، تأتى عرض الإسلام على الشعب ، تحت شعار لا إكراه فى الدين . وبموجب التحلى بالإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر مرة ، وبموجب إمتلاك حق الإختيار مرة أخرى ، قبل بعض الشعب الدخول فى الإسلام عن طيب خاطر ، وفضل البعض الآخر المسيحية . ولأن المسيحية والإسلام ، يشتركان فى عبادة الله الواحد ، مع إختلاف جوهرى فى طقوس ومراسم ومناسك هذه العبادة ، لم يفضى هذا الإختلاف فى التوجه العقدى ، إلى شرخ أو جفوة أضرت بالتجانس .

– هذا ، وكان من شأن هذا التجانس الذى لم يضار ، حسن توثيق أواصر الوحدة الوطنية ، فى إطار التحلى بالإنتمـاء الوطنى . وقد إشترك القطاع المسيحى والقطـاع المسلم مـن الشعب ، على قدم المساواة ، فى التفانى فى حب الأرض ، وهى الوطن العزيز . وكان المسيحى والمسلم ، وكأنهما معاً يبحران فى سفينة حملتهم فى بحر الحياة . وقد تحرى كل واحد منهما ، المحافظة على سلامة السفينة ، لكى يؤمن سلامته ، ويؤمن معها سلامة الآخر . وصان هذان الشريكان فى الإنتماء الوطنى ، مقومات هذا التجانس البديع . وواجه الشعب أعباء الحياة على قلب رجل واحد .

– ومن تداعيات هذا الفتح العربى الإسلامى ، وإسترداد شعب مصر الحيوية والشباب ، تأتى عرض اللغة العربية على الشعب ، تحت شعار حتمية التجانس . وبموجب التحلى بالإنفتـاح والإستعداد لقبـول الآخر مرة ،

وبموجب إمتلاك حق الإختيار الحر وعدم الإكراه مرة أخرى ، قبل شعب مصر كله اللغة العربية . وقد إتخذ منها لغة للتخاطب والتدوين ، وتخلى عن لغته المنحدرة من اليونانية . وهذا معناه إنحياز جماعى إلى التعريب . ومعناه أيضاً إنتساب إلى العروبة عن طيب خاطر .

– وكفل هذا الإنتساب الجماعى إلى العروبة ، المحافظة على التجانس . كما بث هذا الإنتساب فى شعب مصر ، كل دواعى التحلى بروح الإنتماء القومى . وقد إعتز القطاع المسلم من الشعب ، والقطاع المسيحى بهذا الإنتماء القومى . وفى ظل توازى وتوازن بديع بين التحلى بالإنتماء الوطنى فى جانب ، والتحلى بالإنتماء القومى فى جانب آخر ، تأتت حسن الصحبة بين المسيحى والمسلم ، وحسن المواطنة والتعايش والتعامل ، دون شقاق أو تعصب .

– وفى ظل التبعية الوطنية لمصر ، وتعظيم الإنتماء الوطنى مرة ، وفى ظل التبعية القومية للعروبة وترسيخ الإنتماء القومى مرة ثانية ، وفى ظل التبعية السياسية للدولة الإسلامية الكبرى مرة ثالثة ، تنامى مع مرور الوقت الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر . وفى غياب الحدود الحاكمة ، إنفتحت مصر و إنفتح شعب مصر على أوسع مدى دون حرج أو تخوف . وإستقبلت مصر القادمين إليها ، من أنحاء الدولة ، من الشرق ، ومن الغرب . وقد إتخذت منهم شركاء فى التعايش ، أو فى طلب العيش .

– وفى ظل حسن الصحبة والمعاشرة ، باشر شعب مصر قدرته على إستيعاب وهضم الغرباء وتمصيرهم . وقد أفلح شعب مصر فى إدخالهم فى سبيكة بنيته المتجانسة . وإنسابت فى شرايين شعب مصر الدماء الجديدة . وكان من شأن هذه الدماء ، بث المزيد والمزيد من الحيوية والشباب والإنتعاش ، وأبعد ذلك عن شعب مصر مخاطر الشيخوخة والهرم . وقل حمل شعب مصر على كاهله ، هموم إنتمائه للعروبة وللإسلام . وقل هو الذى حمل مشاغل التنوير والتثقيف والتعليم مرة ، وهو الذى حمل سلاحه دفاعاً عن حق الحياة فى الدنيا والدين مرة أخرى .

– وبعد أن واجه شعب مصر الصليبيين ، وأنهى إطماعهم وفشلت إحلامهم ، وبعد أن تصدى شعب مصر لهجمات التتار الشرسة ، وقهرهم

وكسر شوكة عدوانهم المدمر . وبعد أن تجاوز محنةالتشرذم الذى أضعف العروبة والإسلام ، وبعد أن دافع عن الحضور العربى المغترب فى المحيط الهندى ضد البرتغال ، خرجت مصر من أوضاع العصور الوسطى ، ودخلت فى العصر الحديث . وكان شعب مصر فى عز الحيوية والشباب ، وهو الحريص على تجانسه ، وعلى التوازن بين إنتمائه الوطنى وإنتمائه القومى ، حتى وقع فى أسر التبعية لدولة الخلافة العثمانية .

– وفى الوقت الذى أدخلت فيه هذه التبعية العثمانية مصر فى نفق التخلف المظلم ، إعتباراً من القرن السادس عشر الميلادى ، تدافع سبل من الغرباء إلى مصر . ومشاهد سيناريو هذه التبعية ، التى فتحت أبواب مصر ، تحكى عن وفود الغرباء القادمين إلى مصر ، طمعاً فى المعايشة والمعيشة . وفى ظل الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، تحرى شعب مصر هضم وتمصير الغرباء ، الوافدين من كل حدب وصوب . ورغم كل سلبيات التبعية لحكم الدولة العثمانية ، التى تضررت لها مصر ، حافظ شعب مصر على حيويته المتجددة ، وعلى سلامة تجانس البناء البشرى المصرى .

– ودعم كل سلبيات التبعية لحكم دولة الخلافة العثمانية ، والتى تضرر بها شعب مصر ، حافظت الحيوية الشعبية المتجددة ، على سلامة تجانس البناء البشرى المصرى . وفى زحمة المتغيرات السياسية ، التى خيمت على أوضاع مصر فى القرن التاسع عشر ، إنتفضت حيوية شعب مصر ، وهى تتحسس وتلتمس سبل الخروج من نفق التخلف المظلم . وفى الوقت الذى إنتكست فيه حيوية دولة الخلافة العثمانية ، وهى تلعب دور الرجل المريض على المسرح السياسى ، تقمص شعب مصر وهو فى غاية الحيوية دور الرجل القوى . بل قل بانت فى الأفق بشاير يقظة شعب مصر ، وصعوده ، لكى تسترد مصر مكانتها فى الموقع الجغرافى الحاكم .

– ورغم الهجمة الفرنسية ، التى إجتاحت مصر ، ثم إنسحبت بعد أن فجرت يقظة شعب مصر ، ورغم الموقف الأوروبى الذى حجم دور مصر على المسرح السياسى الاقليمى ، إستمر شعب مصر فى هضم وتمصير الغرباء ، وقد اشتد عود شعب مصر ، وحافظ على تجانسه . وقل إنتعش تحلى شعب

مصر بالإنتماء الوطنى مرة ، وبالإنتماء القومى مرة أخرى . بل قل أفلح شعب مصر فى تأمين وحدته الوطنية . وفى ظل هذه الوحدة الوطنية ، كان فى وسع شعب مصر ، الصمود فى مواجهة شراسة النفوذ البريطانى .

– وفى ظل حيوية شعب مصر المتجددة ، وهو لا يشيخ ،وفى ظل التجانس البديع الذى كفل وحدة الصف المصرى ، وهو لا يفرط فيه ، خيمت كل دواعى التحلى بالإنتماء الوطنى ، والتحلى بالإنتماء القومى ، على الصمود الذى خلص مصر من براثن السيطرة البريطانية . وكم لعبت بريطانيا على أوتار سياسة فرق تسد ، سراً أحياناً ، وعلناً أحياناً أخرى . وكم حاولت شق الصف المصرى ، والفصل بين المسيحين والمسلمين ، وفى كل الأحوال ، وعلى كل المستويات فشلت كل محاولات الطعن فى تجانس وقوة تماسك لبنات البناء البشرى المصرى .

– وديناميكية كل دواعى ومبـررات وموجبـات ، تجديد حيوية شعب مصر ، والمحافظة على تجانس لبناته ، على المدى الطويل ، هى التى ظلت تحافظ على شبابه وعلى إستمرار وجود مصر . وقل كان تجديد حيوية شعب مصر الذى لا يشيخ ، وتجانس لبنات نسيج شعب مصر ، وهو لا يغيب ولا يبلى ، من وراء الحرص على نظام حكم مركزى ومصر مستقلة ، أو وهى إطار التبعية لامبراطورية على الصعيد الاقليمى . وحافظ هذا النظام المركزى على وجود مصر وعدم غيابها عن الساحة ، وهى مستقلة . وكم تداعت وتفككت أوصال الامبراطوريات ، وظهر فى نفس الوقت النظام المركزى الحاكم الذى حافظ على وجود مصر .

– وهكذا ندرك كيف أفضى النزوح العظيم من الوطن المهجور ، وتحمل مسئولية ، أن تكون مصر ، فى مكانها الجغرافى الحاكم ، منذ أكثر من سبعة الاف عام . كما ينبغى أن ندرك مرة أخرى ، كيف تأتى الإبداع الحضارى الذى أخرج من تحت عباءة شعب مصر ، النظام الحاكم الذى أعلن عن ميلاد دولة مصر . وكم تفردت مصر فى مكانها الجغرافى ، وتوالى إبداعها الحضارى على الساحة الاقليمية ، حتى إستحقت لقب أم الحضارات . وكم عاشت مصر ، وهى تزهو وتتألق أحياناً ، أو وهى تضمحل وتتواضع أحياناً أخرى ، وما

غابت عن الساحة أبداً .

– وكان شعب مصر ، وهو الذى باشر الإنفتاح والتحلى بالإستعداد لقبول الآخر ، من أجل تجديد حيوتيه والمحافظة على شبابه ، حريصًا على النظام الحاكم المركزى ، لكى يدوم ويستمر وجود مصر . وكان هذا الوجود فعالاً وهى تعطى من كان حولها ، أو وهى تأخذ ممن كان حولها ، على الساحة . وكان الحرص على النظام الحاكم ، وهى تتمتع بالإستقلال وعلو المكانة فى مكانها الجغرافى أحيانًا ، أو وهى تقع فى آسر التبعية وقبول المهانة أحياناً أخرى ، هو المؤشر الذى أعلن عن إستمرار وجود مصر . وهذا معناه فى نهاية المطاف أن شعب مصر ونسيجه القوى المتجانس ، هو الذى أبدع مفهوم النظام الحاكم المركزى ، وهو الذى حافظ عليه وليس العكس .

خـاتمــة

– فى الإعـتقـاد الجغرافى أن جذور شعب مصر ، التى عاشت النقلة النوعية ، وحصدت ثمرات تداعياتها الإقتصادية الإجتماعية والحضارية ، إستشعرت الحاجة إلى الخروج من قوقعة التشرذم . وفى بطء وحذر ، أو فى ثقة ويقين كان التحول إلى الإنفتاح الجزئى فى أحضان الوطن المهجور . ومن بعد النزوح من الوطن المهجور ، والوقوع فى أسر النيل ، إنتعشت دواعى التوجه إلى الإنفتاح الكامل ، والتحلى بالإستعداد لقبول الآخر .

– وقد أفضى هذا التحلى بالإنفتاح إلى تواصل وتكامل وتجانس شعب مصر . وإستشعار جدوى هذا الإنفتاح ، أفضى إلى تحلى شعب مصر بمهارة إستيعاب الغرباء وهضمهم وتمصيرهم . وكفل هذا الإستيعاب والهضم ، تجديد حيوية الشعب والمحافظة على شبابه . وأصبح شعب مصر على بنية بجدوى الإنفتاح والإستعداد لقبول الآخر ، لكى يشتد عوده مرة ، وبجدوى المحافظة على النظام الحاكم المركزى والخضوع لسلطانه مرة أخرى ، لكى يؤمن إستمرار وجوده ووجود مصر .

– وقد إعتمد شعب مصر الذى جدد الإنفتاح حيويته ، على النظام المركزى الحاكم ، وهو حكم وطنى ، أو وهو حكم غير وطنى ، لكى يحافظ على وجوده . وقد طلب شعب مصر دائمًا من النظام الحاكم المركزى ، توظيف اليد القوية ، فى ضبط إيقاعات السيطرة على النيل ، لحساب حركة الحياة . وكـان فى وسـع شعب مصر ، رصد العلاقة بين مستوى هذا الضبط فى جانب ، ومستوى الازدهار والتنعم به فى جانب آخر ، وكان شعب مصر على يقين بأن ضمان وتأمين هذه السيطرة على الجريان فى النيل ، وحسن الإنتفاع به ، هو الكفيل ، بإستمرار نبض الحياة ، ودوام وجود مصر ، أرضًا وشعبًا ، ودولة . وتلك هى بكل تأكيد الإستجابة المثلى ، لإرادة الله الذى قدر فهدى ، وخلق فسوى ، ونفذ أمره بأن تكون مصر . وقد جسد هذا الوجود العلاقة البناءة والإيجابية الحميدة ، بين عبقـرية المكان وعبقـرية الإنسان .

– ولحساب العلاقة الحميمة والحتمية ، بين عبقرية الإنسان الذى يتنعم بالتجانس ، وعبقرية المكان الذى يتزين بوجود النيل ، كان التمادى فى ضبط النيل . وتحرى هذا الضبط فرض السيطرة على الجريان ، وتأمين حسن الإنتفاع

به ، من أجل استمرار وجود مصر . وأهم مشهد من مشاهد سيناريو هذا التعامل مع النهر ، هو الذى يتحدث مرة عن تهذيب المجرى وصيانته لكى يستوعب الجريان على كل المناسيب ، ويتحـدث مرة أخرى عن ترويض الجريان ، وحسن سبل السيطرة عليه ، وتعظيم الإنتفاع به .

– وفى فجر نهضة مصر الحديثة ، وهى تنفض عن أوضاع حركة الحياة المصرية غبار الإضمحلال ، أو وهى تعظم عبقرية الإنسان ، وترتقى السلم الصاعد إلى مقعد التألق والازدهار ، كان إنشاء قناطر محمد على ، فى موقع مناسب شمال خط عرض القاهرة . وتلك هى أول لبنة فى مشوار وتريض الجريان الذى عظم الإنتفاع بمياة النهر . وكفل تشغيل هذه القناطر ، وإحتجاز مياه النيل أمامها ، إرتفاع المنسوب ، لكى ينساب الماء فى شبكة قنوات التوزيع الكبرى . ومن ثم تأتت مباشرة الرى الدائم على صعيد دلتا النيل وتكثيف الإنتاج الزراعى فى جانب ، وتأمين الجريان الذى غطى إحتياجات العمران فى أقليم قناة السويس فى جانب آخر .

– وفى نهاية القرن التاسع عشر ، ومصر تنتفض ، لكى يتخلص شعبها من كابوس الإحتلال البريطانى وتواصل مشوار الازدهار والتألق ، تأتى إنشاء سد أسوان . وقد أتاح ذلك السد ، الذى أقيم عند خط عرض أسوان ، فرص تسوية الابرار الطبيعى سنوياً . وكان إحتجاز الجريان ، قرب نهاية موسم الفيضان ، من أجل إضافة تتدارك النقص ، وتدنى منسوب الجريان فى الفترة الحرجة ، بداية من شهر فبراير من كل عام . وعزز هذا الإنجاز فرص التوسع الافقى ، فى مساحات الرى الدائم . وأفضى هذا التوسع إلى مباشرة الزراعة فى الموسم الشتوى ، وفى الموسم الصيفى ، وفى الموسم النيلى . بمعنى مباشرة التوسع الافقى فى مساحات جديدة ، ومباشرة التوسع الرأسى بموجب تكرار زراعة المساحة المروية ، فى إطار دوره زراعية منتظمة .

–وإذا كانت تسوية الايراد الطبيعى فى إطار ترويض الجريان ، قد إستوجبت فى بدايات القرن العشرين إنشاء سد جبل الأولياء على النيل الأبيض فى السودان ، من أجل تعزيز آداء سد أسوان ، وتحسين أوضاع الرى الدائم ، على صعيد الدلتا ومصر الوسطى ، فإن إنشاء سد أسوان العالى ، فى بدايات النصف

الأخير من القرن العشرين ، أضاف إضافة مهمة ومجدية فى مجال ترويض الجريان . وكفل سد أسوان العالى نقلة نوعية حقيقية ، لحساب الترويض وأحكام السيطرة على الإيراد الطبيعى على المدى الطويل .

–وتمثلت هذه النقلة النوعية ، فى التحول من تسوية الايراد الطبيعى فى إطار السنة المائية ، إلى تسوية الايراد الطبيعى ، فى إطار مجموعة سنوات متوالية . بمعنى أن يحتجز الماء أمام جسم السد العالى ، فى سنوات زيادة الإيراد الطبيعى عن المعدل ، لكى يتسنى تغطية العجز المائى فى سنوات نقصان الإيراد الطبيعى السنوى عن المعدل . وكان هذا المعدل ثمانين مليار متر مكعب ، وهو نصف حاصل جمع أقل ايراد طبيعى فى سنة الفيضان المنخفض ، وأعلى إيراد طبيعى فى سنة الفيضان العالى . وأتاح هـذا التطبيـق لنظرية التخزين على المدى الطويل ، فرص الإتساع الافقى فى الرى الدائم ، وإضافة مساحات مروية مستجدة ، فى توشكى ، وفى شمال سيناء ، وفى غرب الدلتا .

– ومن ثم ، قل بكل الثقة ، كان فى وسع غبقرية الإنسان ، وهى تشد أزر سيطرته على جريان النيل ، أو وهى تدعم المحافظة على تجانس لبنات نسيج الشعب ، أو وهى تجاوب طموحات وتطلعات الشعب فى طلب الأفضل ، أن تعظم عبقرية المكان . وتعظيم عبقرية المكان ، هو الذى يؤمن وجود مصر المستمر ، وهو الذى يرسخ دواعى التألق والازدهار . وتدلل كل الشواهد ،على مهارة شعب فى تجاوز أى محنة ، والخروج من أزمات الإضمحلال ، والصعود إلى مقعد الابهار .

– هكـذا كان ويكون وجـود مصر الوطن ، ووجود مصر الشعب العبقرى ، ووجود مصر الدولة وجوداً راسخاً لم تغيب عنه الشمس على المدى الطويل . أو لم تكن مصر على المدى الطويل مبعث التنوير ، ومنبع التثقيف ، ومصدر التعليم ، الذى علم العالم . أو لم تكن مصر هى فيض عطاء لا ولم ولن يكف عن العطاء . أو لم تكن مصر رائدة ، وهى تتخذ من مدرسة الاسكندرية نقطة تحول ، فأتى بموجبها نقلة نوعية من خصوصية العلم والمعرفة إلى عالمية العلم والمعرفة ؟

– وها هى مصر التى تمضى فى مسيرة العولمة ، وهى تعرف كيف

تجاوب توجهات هذه العولمة على كل المحاور ، دون التخوف من الوقوع فى حبائل التبعية ، ودون تفريط ، فى خصوصية ثقافة الشخصية المصرية المتفردة وها هى مصر التى لا تغيب عن الساحة الإنسانية ، والتى تحسن ضبط العلاقة السوية بين أصالة عريقة تعتز بها ، ومعاصرة متألقة تجاوب روح العصر .

– وبعد ذلك كله ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى لا ينطق عن الهوى ، وان هو إلا وحى يوحى . وقل هو الذى بشر صراحة عن إستمرار وجود مصر . أو ليس هو الذى قال وقوله الحق « وأهلها فى رباط إلى يوم الدين . وسبحان من شاء فكان ما شاء ، وكيف ما شاء ، لما شاء وسبحان من بيده ملكوت كل شئ ، وهو على كل شئ قدير .

المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية :

١ – الشامى ، صلاح الدين : نهر النيل منشأة المعارف الإسكندرية

٢ – محمد صفى الدين : مرفولوچية الأراضى المصرية – دار النهضة العربية – القاهرة ١٩٦٩ .

٣ – محمد عوض محمد – نهر النيل القاهرة ١٩٤٧ .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

1- Brooks, C. P. : Climate through out the Ages .

2- Caton Thompson, G and Gavchener , E

The pre - historic Geography of Khanga Oasis - Geog. Jour. n° 5 1932 .

3-Fouxftau , R . - The miocene in Egypt . Cairo Sci. Jour Vol VIII.

4- Gardener ,E . The Origin of The Fayoum Basin Geog. Jour. Vol Lxxiv , 1929 .

5- Huzayin , S . A . the place of Egypt in pre-history Cairo , 1941 .

6- Lozac , J . Le Delta du Nil. Le Caire, 1935 .

7- Sand ford , k . S . and Arkell , W . J .

8- Paleulithic man and the Nile - Fayoum devide 1929 .

9- Paleofithic man and the Nile valley in Upper and midle Egypt chicago. 1934 .

10- Paleolithic man and the Nile valley in Nubia and upper Egypt . 1933 .

11- Paleolithic man and the Nile - Fayoum an devide. 1929.

12- Paleolithic man and the Nile valley in Lower Egypt . 1939.

الفهرس


Bibliotheca Alexandrina
0410947